سيرة الشطار

في

الادب الاسبانى

تحتل قصص الشطار في أدب العصر الذهبي الاسباني مكانا رفيعا وهي تؤلف وحدها فرعا [illegible] أبدع فيه كتاب ذلك العصر أيما ابداع [illegible] [illegible] مؤلفاتهم [illegible] [illegible] [illegible] بالغة [illegible] [illegible] خاصة أثارها مؤرخو الأدب الاسباني من الاسبان وأجانب كثر [illegible] وخصوها بأبحاث ودراسات مستفيضة وكان [illegible] له [illegible] وضع [illegible] واسع حول هذه الظاهرة من الادب الاسباني [illegible] من نوع عامة



مكتب الترجمة الاسبانية العربية

فرنسيسكو دي كيبيدو

سيرة الشاطر

تعريب

1950
مطبعة المخزن
تطوان

دي طورمس واقدم طبعة لها معروفة ترجع الى سنة 1554. وهي حكاية صبي فقير اتخذه احد العميان دليلا (وكلمة لاثاريو معناها دليل الاعمى) وكان يسيء معاملته حتى انتهى به الامر الى تركه والانصراف الى خدمة كاهن وبعد ذلك الى خدمة نبيل معدم. وما زال ينتقل من خدمة سيد الى سيد آخر حتى نال في آخر الامر وظيفة دلال في اسواق طليطلة وفيها تزوج بخادمة احد الكهنة. وهنا تنتهي القصة.

وتمتاز قصة لاثاريو دي طورميس بسهولة انشائها ودقة تصويراتها وسيطرة روح المرح عليها رغم بعض المشاهد المؤلمة. لكنها بعيدة كل البعد عن ذلك العمق التحليلي الذي نشاهد في القصص التي جاءت بعدها حين بلغ هذا الفن درجة نضوجه التامة. وهي بالاجمال تدل على ان فن قصص الشطار لم يزل في فجره. لكنه فجر يبشر بنهار جلي.

وفي سنة 1620 ظهرت في باريس تتمة القصة

ان نقدم لهذا الكتاب الذي ننشره الان معربا بكلمة وان موجزة عن قصص الشطار ليدرك القارئ مكانة الكتاب ادبيا وتاريخيا

وأول واجب علينا هو تحديد معنى كلمة "الشاطر" Picaro . ان الشاطر لشخص يعيش على هامش المجتمع ويكره العمل والنظام ويعشق الكسل والفوضى في الحياة، لا يحترف حرفة ولا يمتهن مهنة، وانما يمد يده الى اللقمة حيث يجدها قانعا بما يسد رمقه دون اجهاد نفسه بعمل منتج مضنك. اما مشاكل المجتمع الذى يحيط به وأهدافه ومطامعه فهو يعتبرها لا تمت اليه بصلة. فبينما الناس في كفاح مستميت للحصول على الرفعة والمجد وبينما المجتمع يسعى بارادة حديدية وعزم أكيد ون" مثل اعلى اذا بالشاطر ـ على حد تعبير المؤرخ الاستاذ دبات بلاخا ـ ممدد تحت نور الشمس يتساءل بسخرية عما اذا كانت هذه الصفقة تستحق ان يخاطر المرء من اجلها هذه المخاطرة

وأول قصة من هذا النوع هي قصة "لاثاريو

ثناؤك على ذكاء من يعرف كيف ان في الاطلاع على حياة الشطار ووصفها وصفا ظريفا من اللذة ما لبس في ابتكارات أخرى اعظم واهم.

اما المؤلف فانك تعرفه. والكتاب لست تجهله. فهو عندك، ان لم تكن قد تصفحته عند بائع الكتب، وذلك امر عليه ثقيل. ومن الواجب استئصاله بصرامة قصوى لان من الناس من يتطفلون على الكتب كتطفل غيرهم على الموائد. ومنهم من يطلعون على رواية بقراءتها نتفا نتفا في مرار مختلفة. ثم يرتقون اخيرا هذه القطع. وذلك لمن المؤسف حيث ان فاعله يتم دون ان تكلفه نميمته أي مال. وتلك دناءة زنيمة ونذالة لم يبلغها «فارس الكلابة» (1)

---

1) اشارة الى الكتاب الذي وضعه كيندو تحت عنوان فارس الكلابة وهو مجموعة من

الدامغة على ان مستوى المعيشة الشعبية في ذلك العهد لم يكن منحطا كما قد يستنتج من بعض مشاهد قصص الشطار. وانما تصور هذه في حقيقة الامر سلسلة حوادث فردية شخصية من حياة مؤلفيها اضفيت عليها حلة فكاهية بولغ في نسجها.

بقي علينا أن نتساءل: هل استمدت قصص الشطار أصلها من آثار أدبية سابقة؟ ان مؤرخي الادب مجمعون على القول انها وليدة القرن السادس عشر. لكنه اصبح من المحقق اليوم أن الاجيال المرتجلة، مستحيلة في عالم الادب مثله في عالم الاحياء. ولذلك تراهم بالرغم عن اجماعهم على القول المذكور يردون بعض أصولها الى قصص الفروسية والى بضعة كتب أخرى اسبانية وأجنبية ظهرت بين أوائل القرن الرابع عشر ومنتصف السادس عشر من أهمها، كتاب الحب الحسن للارثيبريستي دي هيتا Arcipreste de Hita و كورباتشو أو شجب الحب الدنيوي، للارثيبريستي دي طلبيرة Arcipreste de Talavera وكتاب سيبال

Spill للمؤلف البلنسي جاومي رويج Jaume Roig والرواية الشهيرة المعروفة باسم «لا ثيلستينا». ففي كل هذه المؤلفات مشاهد وفلتات تصويرية ومرح وفكاهة يمكن اعتبارها من جملة الاصول التي يستوحي منها مؤلفو قصص الشطار.

ويرى المستعرب الاسباني المرحوم ضون اميلیو غونصالبص بالنثيا في مقامات الحريري مصدرا محتملا من جملة مصادر قصص الشطار. فحيل ابي زيد السروجي في نظره هي نفس الحيل التي يلجأ اليها أبطال تلك القصص للحصول على اسباب العيش. وكلامه عن فن الكدية في المقامة الساسانية مثلا لجدير بأي كان من هؤلاء الشطار. ويقول غونصالبص بالنثيا انه وان كان الالمام بالعربية في اسبانيا حين ظهرت قصص الشطار كان قد ضعف أو كاد يتلاشى بحيث لا يمكن الاعتقاد بالاطلاع على مقامات الحريري في أصلها العربي ليس من المستبعد أن تكون حوادث أبي زيد السروجي قد اصبحت متداولة بين العامة

من جملة القصص الشعبية بعد أن بلغت تلك المقامات الاندلس وتداولتها أيدي أدبائها وشرحها الشريشي أوفى شرح

هذا واننا في واقع الامر ان بحثنا في الادب العربي وجدنا كثيرا من قصص الشطار المبعثرة في المجموعات الادبية. وفي كتاب البخلاء للجاحظ يشار الى الشطار عدة مرات. ففي مطلع الكتاب يقول انه وضع رسالة عن « لصوص النهار وما لصوص النهار في الواقع سوى الشطار بالمعنى المقصود هنا والذي نراه في القصص الاسبانية. وفي مكان آخر يسرد لنا الجاحظ عدة أسماء فارسية الاصل لطبقات من الناس لبسوا في الحقيقة سوى من نشير اليهم تحت اسم "الشطار" اذ يقول في حديث خالد بن يزيد حين سأله بنو تميم وكان قد نزل في شق منهم: وانك لتعرف المكدين: فأجاب: «وكيف لا اعرفهم وانا كنت كاخان في حداثة سني ثم لم يبق في الارض مخطراني ولا مستعرض الاقفية ولا شحاذ ولا كاغاني ولا بانوان

ولا قرسي ولا عوا ولا مشعب ولا مزيدى ولا اسطيل الا وقد كان تحت يدى، وبعد ان يفرغ الجاحظ من سرد القصة يشرع بتفسير معاني تلك الكلمات فيقول:

المخطراني الذي يأتيك في زي ناسك ويريك ان نابك قد قور لسانه من اصله لانه كان مؤذنا هناك ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب فلا ترى له لسانا البتة ولسانه في الحقيقة كلسان الثور وانا احد من خدع بذلك ولا بد للمخطراني ان يكون معه واحد يعبر عنه او لوح او قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته. والكاغاني الذي يتجنن ويزبد حتى لا يشك انه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته. والبانوان الذي يقف على الباب ويسل الغلق ويقول بانوا وتفسير ذلك بالعربية يامولاى. والقرسي الذي يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليلة فاذا تورم واختنق الدم مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين وقطر عليه شيئا

من سمن واطبق عليه خرقة وكشف بعضه فلا يشك من رآه ان به الاكلة او بلية شبه الاكلة والمشعب الذى يحتال للصبى حين يلد بان يعميه او يجعله اعشم او اعضد ليسأل الناس به اهله وربما جاءت به امه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل لانه يصير حينئذ عقدة وغلة فاما ان يكتسبا به واما ان يكرياه بكراء معلوم وربما اكروا اولادهم ممن يمضي الى افريقية فيسأل بهم الطريق اجمع بالمال العظيم فان كان ثقة مليئا والا أقام بالاولاد والاجرة كفيلا. والكاغان الغلام المكدي اذا واجر وكان عليه مسحة جمال والعواء الذي يسأل بين المغرب والعشاء وربما طرب ان كان له صوت حسن وحلق شجي. والاسطيل هو المتعامي ان شاء اراك انه منخسف العينين وان شاء اراك بهما ماء وان شاء اراك انه لا يبصر للخسف ولريح السبل والمزيدي الذي يدور ومعه الدريهمات ويقول هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة فزيدوني فيها رحمكم الله وربما احتمل صبيا على انه لقيط

وربما طلب في الكفن. والمستعرض الذي يعارضك وهو ذو هيئة وفي ثياب صالحة وكأنه قد هاب من الحياء ويخاف ان يراه معرفة ثم يعترضك اعتراضا ويكلمك خفيا. والمقدس الذي يقف على الميت يسأل في كفنه ويقف في طريق مكة على الحمار الميت والبعير الميت يدعي انه كان له ويزعم انه قد احصر وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والافريقية وتعرف تلك المدن والسكك والرجال وهو متى شاء كان من اى مخاليف اليمن شاء. والمكدى صاحب الكداء.»

وانما أردنا هنا مجرد الاشارة فحسب دون أن نتجرأ على تأكيد وجود علاقة بين مؤلفات الجاحظ هذه وغيرها من القصص وهذا النوع من الأدب الاسباني. ونحن نرجو ان وفق الله أن نعود الى بحث هذا الموضوع في المستقبل.

• • •

مرت خمسة عقود وقصة «لاثاريو دى طورميس» وحيدة من نوعها الى أن ظهر سنة 1599 القسم الاول من قصة «قزمان دى الفراتشى

التي سماها مؤلفها ماتيو ألمان مرصد الحياة البشرية» وتقع هذه القصة في مجلد ضخم وهي تعتبر أنضج ثمرة لهذا النوع الادبي واكملها فنا. لكن الكآبة تغلب فيها المرح والمرارة ترافق الفكاهة والتشاؤم يسيطر على التحليل النفساني والاجتماعي.

وفي سنة 1605 ظهرت قصة النشاطرة خوستينا منسوبة لفرنسيسكو لوبث دى اوبيدا. وفي سنة 1613 أصدر سرفانطيس مجموعة القصص المثلى وقد تضمنت بضع قصص يمكن ردها الى هذا النوع وهي المماسحة النبيلة» و رنكونيتي وكورتاديو و الزواج الخادع» و ومناجاة الكلاب وهذه اهمها.

وقبل ذلك بسنة أي سنة 1612 ظهرت قصة ابنة لاثليستينا ومؤلفها الونصو خيرونيمو دى سالاص بارباديو. وفي سنة 1618 ظهرت قصه حياة ماركوس دي أوبريغون» وهي تصور

كثيرا من الحوادث التي وقعت لمؤلفها بيثينطي اسبينيل. وتمتاز بدقة التصوير وعمق الملاحظة.

وفي سنة 1624 ظهرت قصة حياة الشاطر، لفرنسيسكو دي كيبيدو التي ننشر هنا تعريبها. وهي الى جانب «الاحلام» تعتبر من اكمل مؤلفات ذلك الكاتب الشهير الذي يوضع في المقام الاول بين كتاب العصر الذهبي

والقصة صغيرة بحجمها كما يرى القاري وبالرغم عن صدورها مطبوعة سنة 1624 يرد المؤرخون تاريخ وضعها الى ما بين سنة 1601 و 1614 أي حين كان كيبيدو في شرخ شبابه. و«حياة الشاطر» قطعة فنية خالدة تمثل هذا النوع الادبي في أرقى وأكمل درجاته لانها تجمع الى روح المرح والفكاهة براعة في التصوير تؤدي بالمؤلف الى حد المبالغة في الوصف لاخراج الصورة الفكاهية على شكل يحمل الى نفس القاري أوفر قدر من المتعة. والمرح يسيطر على القصة باكملها بحيث لا يرى فيها أثر للمرارة والالم اللذين يحتلان

المقام الاول في «قزمان دي الفرتشي». أضف الى هذا كله متانة في التركيب تكاد تبلغ في كثير من الاحيان درجة التعقيد. وكثيرا مـا يعمد الى التورية والتلاعب بالكلام بشكل يجعل مهمة المعرب شاقة عسيرة

وقبل ظهور القسم الثاني من قصة «لاثاريو دي طورميس» بسنة أي في سنة 1619 ظهرت في باريس أيضا قصة للدكتور كارلوس غرسيا عنوانها «اشتهاء مقتنى الغير». وهي وصف لحيل ومغامرات أحد اللصوص يرويها للمؤلف وهو في السجن. وتسيطر عليها روح التهكم ممزوجة بالمرارة والالم.

وممن برعوا في هذا الفن الادبي ضـون الونصو دي كاسطيو سولورثانو الـذي نشر سنة 1632 قصة ظريفة تحت عنوان «فتاة الاكاديب» تريزا دي مانثناريس» وفي سنة 1637 قصة «المأذون ترابانثا».

وظهرت بعد ذلك خلال القرن السابع عشر عدة قصص اخرى نذكر منها خاصة «الشيطان الاعرج»

للكاتب الشاعر لويس بيليث دي غيبارا و «حياة ضون غريغوريو غوادانيا لانطونيو انريكيث غوميث و حياة ومآثر اسبانيو غونصاليص التي ظهرت في مدينة امبيريس البلجيكية سنة 1646

وتعد «حياة الدكتور ضون دييغو دي طوريس بياروييل» التي بدأ ظهورها سنة 1743 خاتمة المؤلفات المنسبة الى هذا النوع في اسبانيا

وبالجملة يمكن القول ان قصص الشطار من ابرز الآثار الادبية الاسبانية واغناها واكملها فنا. وقد تعدت شهرتها حدود اسبانيا فنقل معظمها الى كثير من اللغات الاجنبية واسترعت منذ زمن بعيد اهتمام البحاثة والمؤرخين.

كيبيدو
1645 - 1580

بعد فرنسيسكو دي كيبيدو من أعظم كتاب العصر الذهبي الاسباني. ولد سنة 1580 وتلقى المبادئ الاولى في مدريد وفي سنة 1592 دخل مدرسة الاباء اليسوعيين حيث بقي اربع سنوات. ثم انتقل الى جامعة قلعة هناريس حيث بقي حتى سنة 1601 اذ انتقل الى بلد الوليد وهناك بدأت مؤلفاته تنتشر بين جميع الاوساط الادبية والشعبية رغما عن انخراطه في سلك طلاب جامعة تلك المدينة

وفي سنة 1606 عاد الى مدريد وفيها أقام حتى استقدمه الى صقلية سنة 1613 نائب الملك فيها الدوكي دي اوصونا الذي الحقه بخدمته كمستشار خاص. فأدى له خدمات جليلة وقام بمهمات سياسية خطيرة دلت على مقدرته. ثم عاد الى مدريد سنة

1619 ووقعت بعد عودته قطيعة بينه وبين الدوق فانقطع عن خدمته.

وبعد مدة قربه اليه الوزير الكوندي اوليفاريس لكنه لم يلبث ان نقم عليه واغضب عليه ايضا الملك فأمر بزجه في السجن حيث بقي ما يربو على ثلاثة اعوام ولم يخرج منه الا بعد عزل الكوندي اوليفاريس. لكن صحته ساءت كثيرا بسبب ما عاناه من متاعب وتوفي يوم 8 سبتمبر (ايلول) سنة 1645

هذا واننا قد وضعنا تحت عنوان «كيبيدو أمير الظرافة» كتابا خاصا درسنا فيه حياته ومؤلفاته بكل تفصيل.

سيرة الشاطر ضون بابلوس

الى القارىء

كم أراك راغبا أيها القارئ او المستمع ـ اذ ان العميان لا يقرؤون ـ في التعرف الى خرافة ضون بابلوس امير حماة الشطارة.

فانت واجد هنا في جميع انواع الشطارة ـ وهي في ظني ما بفضله الاكثرون ـ خدائع وحيلا وبدعا وطرفا كلها ناشئة عن الفراغ لتعيش من التحيل والكذب. وليس بقليل ما يمكنك ان تجنيه منه اذا أعرت العبرة انتباهك. وان لم تفعله فاستفد على الاقل مما فيه من مواعظ لانني اشك في ان واحدا من الناس يشتري كتاب نكت ليحيد به عما يحرض عليه طبعه الفاسد. وعلى كل حال فليكن ما تريد. صفق له فهو للتصفيق مستحق. واذا ضحكت من نكته فليكن

حفظك الله من الكتاب الشرير ومأموري القضاء (1) والمرأة الشقراء اللحوح المستدبرة الوجه.

الرسائل ينصح كاتبها القارئ لصيانة جيبه من كل انواع الطفيليين والطفيليات

1) استعملنا كلمة مأمور القضاء او المأمور القضائي لتعريب لفظة Alguacil وهي عربية الاصل مشتقة من كلمة الوزير. وفي التنظيم القضائي الحالي تدل على مأمور مكلف بابلاغ اوامر المحكمة.

الى ضون فرنسيسكو دي كيبيدو

من صديقه لوسيانو (1)

اي ضون فرنسيسكو! بعيار واحد تزن الجد والهزل فتشير بنصائح صائبة وتجعل ضون باتلوس شاطرا في آن واحد.

---

1) اشارة الى المؤلف اليوناني لوسيانوس الذي عاش من سنة 191 الى 125 قبل المسيح. وبعد أن تعاطى المحاماة في انطاكية جال عدة بلدان ملقيا دروسا ومحاضرات في جميعها. وبعد عودته الى الشرق انصرف الى الادب. وامتاز بالادب الهزلي وترك اثنين وثمانين مؤلفا نثريا ومجموعة من الابيغرام التي نقلت الى معظم اللغات الحديثة وكان كيبيدو يحذو حذوه، ومنهم من دعوه بلوسيانو اسبانيا.

اني لاعترف بانه سيكون والكلابة(1) تصحبه شاطر (2) مناسا. فحمله اياها لن يفوق الحديث عن حفظه : لا بل بالعكس فلو أنه سار بدونها لكان نغمة

---

2) اشارة الى الكتاب نفسه وهو «حياة الشاطر»

1) اشارة الى كتاب المؤلف «فارس الكلابة»

وفي الاشارة هنا الى الكتابين تورية حسنة فظاهر الكلام معناه ان الشاطر اذا سار مصحوبا «بالكلابة» فتجارته ناجحة حتما وباطنه ان مؤلفه الجديد «حياة الشاطر» يكمل مؤلفه السابق «فارس الكلابة» فلا يضر أحدهما بالآخر ولا يحط من قدره

سيرة الشاطر

المسمى ضون بابلوس

مثال العاطلين ومرءاة المحتالين

الفصل الاول

وفيه الكلام عن نسبه ومسقط رأسه

أنا يا صاح (1) من بلدة شقوبية. ومنها كان والدي ـ أودعه الله الجنة ـ واسمه كلمنتي بابلو وكانت حرفته الحجامة حسب قول الكل. غير انه

---

1) وضع المؤلف هذا الكتاب بصورة اعتراف يدلي به بطل القصة بعد اعتزاله حياة الشطارة. وهو اسلوب متبع في معظم قصص الشطار وبالشكل نفسه تبدأ حكاية لازاريو وحكاية قزمان دي الفراتشي.

كان لسمو افكاره يأنف من ان يلقب حجاما فيقول
انه حالم الوجنات وخياط اللحى. ويقال انه كان
عريقا في النسب وكانت سيرته تحمل على الاعتقاد
بصحة هذا القول اما زوجته فهي الدونيا ساتورنو
دي ريبوبو ابنة اوكسافيو دي ريبوبو كلوديو وحفيدة
لبيدو بيوز كورطي

وكانت تحوم في البلدة ريبة حول عرق
نسبها في الديانة المسيحية (2) بالرغم عن انها
كانت تدعي بالنظر الى اسماء اجدادها التحدر من
سلالة المثلث الروماني (3) وكانت بهية المنظر
وانها نصوب أنظار الماجسن بحيث لم يبق في
اسبانيا واحد من شعراء الزجل الا وتغنى بها.

---

(2) كان الانتماء الى نسب عريق من اعز
اماني الانسان في مطلع القرن السابع عشر. فادعاء
العدد في الديانة المسيحية قد تكون حجة على
الانتماء الى طبقة الاشراف

(3) اشارة الى المثلث الروماني الذي تألف
من اوكتافيو ولبيدو وانطونيو

وعقيب زواجها منيت بانعاب كبيرة، وبعد ذلك أيضا لان ألسنة بذيئة كانت تتقول على ابي بان يده تمتد الى الجيوب، فقد ثبت عليه ان جميع من كان يحلق لهم اللحي بينما كان برفع وجوههم الى المغسلة ليصب عليها الماء كانت بد اخي البالغ من العمر سبع سنوات تتسرب بخفة الى جيوبهم فتستخرج مخها. وقد توفي ذلك الملاك على اثر جلدات جلدها في السجن فحزن عليه والدي حزنا شديدا لانه كان يستولي على افئدة الجميع. ولهذه النزهات واخرى غيرها ادخل السجن ولكنني اخبرت فيما بعد انه غادره باصع الصحيفة مصحوبا بمئتى حدرة (4) وان لم تكن واحدة منها ممن نشار اليها بلقب البيافة. ونقال ان النساء كن بطللن من النوافذ لبريه لانه كان حسن الطلعة

---

(4) أي المؤلف هنا بتورية لا يمكن ترجمتها ومداره كلمة «كردينال» التي تعني «حدرة» وهو المقصود اولا وتعنى أيضا الرتبة الكنسية المعروفة وهو المعنى القصود ثانيا.

ان ماشيا وان راكبا. ولا اقول هذا متفاخرا فالكل يعلم كم انا عن المفاخرة بعيد. فانت ترى اذن ان امي لم نصب نكوارث. وذات يوم كانت تمدحها في محضري عجوز زبني فقالت انها كانت من الطافة على جانب كبير فتسحر (5) كل من عاشرته. وقالت انها أفشت لها مرة بكلام عن تيس (6) وكاد ذلك يؤدي الى حملها على معاطاته علانية (7) واشتهرت بتجديد الغيبات وبعث الشعر

---

(5) يكرر المؤلف هنا التورية في كلمة «سحر» فيستعملها بالمعنى المجازي اي استمالة الارادة وبالمعنى الحقيقي اي معاطاة السحر وهو المقصود في الجملة التالية.

(6) كان التيس يعتبر رمزا للشيطان. وكانوا يروون ان الشيطان يتخذ شكل تيس حين يظهر للساحرات ليجالسه

(7) المقصود انه اشتهر امرها بانها تتعاطى السحر. وكان تعاطيه في ذلك العهد من الجرائم الكبرى.

واخفاء الشيب. فالبعض كانوا يسمونها مرقعة للاذواق والاخرون جابرة للارادات المضطربة. وباسم سفيه بدعونها قوادة و «فلوش» (8) لدى الجميع. وكانت امي تستمع مبتسمة الى كل هذه الاقاويل فيزداد بذلك امتلاكها للخواطر والقلوب ولن اتوقف لاصف ما كانت تأتي به من اماتة وكفارة. فغرفتها التي لم يكن ليدخلها سواها وانا ايضا - لان ذلك كان مباحا لي لصغر سني - كانت محاطة من داخلها بالجماجم. وعنها تقول انها لتذكيرها بالموت بينما البعض يقولون على وجه الذم أنها لممارسة السحر. وكان سريرها منصوبا على حبال المشانق وكانت تقول لي:

---

(8) «فلوش» Flux لفظة تستعمل في بعض انواع اللعب بالورق وتدل على اجتماع كل الاوراق التي هي من لون واحد ومن اجتمعت لديه كان هو الرابح. فقولهم Hacer flux «عمل فلوش» معناه مجازا ذهب بماله ومال غيره دون ان يدفع لاحد ما عليه

تأمل يا بني! اني بذكرى هذه الحبال انصح حتى تنجو من الوقوع فيها بالعيش كمن يحمل ذقنه على كتفه (9) بحيث لا يمكن الاطلاع على عمالهم ولو باصعر الدلائل. وقد وقع نزاع كبير بين والدي في نفرتي اية واحدة من حرفتيهما يجب ان تبع. أما انا ـ وقد ساورتني منذ صغري افكار النبل والشهامة ـ فلم اكن لاميل الى واحدة منهما وشان والدي يقول لي: يا بني ليست اللصوصية من الحرف اليدوية (10) بل العقلية وبعد ان يسكت قليلا يتنهد ثم يضم يديه ويتابع قائلا: ان من لا يسرق في هذه الدنيا لا يعيش

---

(9) - حمل دقنه على كتفه، مثل اسباني قديم يقصد به العيش بحشمة واحتراس كما يفعل من له عدو فهو يمشي ملتفتا يمينا ويسارا.

(10) أني المؤلف هنا بتورية في كلمة: mecanica التي يمكن تأويلها على وجهين «المشينة» و البدوية فالتأويل الاول هو المناسب لوصف اللصص. والتأويل الثاني هو المطلوب لمناقضة التعبير التالي.

ولماذا يكرهنا في ظنك الحكام ومأمورو القضاء بهذا المقدار فيقضون علينا بالنفى احيانا وبالجلد اخرى وبالشنق غيرها؟ اجل، لا أقدر ان اقول ذلك دون ان تسيل دموعي - وكان الشيخ المسكين حين يصل في كلامه الى هذا الحد يبكي كالطفل متذكرا المرات العديدة التي رضت فيها اضلعه - لانهم حيث يكونون لا يرضون بان يكون من لصوص غيرهم ومعاونيهم لكن الحيلة تنجينا من كل شيء ففي ثماني ظنات كنت أغشى الكنائس (11) وكم كنت حملت على الحمار (12) لو اعترفت في كرسى التعذيب. ولكني

---

11) لان الكنائس كانت تعتبر حرما فلا يمكن لمأموري السلطة دخولها للقبض على المجرمين الذين يلتجئون اليها. وهذه العادة لم تزل متبعة في المغرب بشأن المساجد واضرحة الاولياء. فمن التجأ اليها استحال القبض عليه ما دام فيها.

12) كان المحكوم عليهم بالجلد يطاف بهم راكبين على حمار. ويجلدون في الطواف

لم أعرف (13) قط الا في المواعيد التي تأمر بها امنا الكنيسة المقدسة. فهذا وممارسة حرفتي كفيت امك اشرف عيش قدرت عليه. فتثور حينئذ ثائرة امي التي كانت تتألم لقلة ميلي الى معاطاة السحر والشعوذة فتصيح قائلة: كيف تقول انك اعلنتني؟ الست انا التي اعلنتك واخرجتك من السجن بحيلة وأسعفتك بالمال وانت فيه؟ وان لم تقر افكان هذا من ذلك نفسك ام بفضل ما سقيتك اياه من اشربة؟ أجل، ان الفضل لمواقيلي. ولولا خوفي من ان يسمع كلامي خارجاً لابحت بتلك الحادثة حين دخلت من المدخنة واخرجتك من السطح. ولو لم تنفكك من شدة الضربات سبحة من اضراس الموتى شدت بين يديها لبالغت في القول لما كان يبدو عليها من الغضب

---

(13) أتى المؤلف بتورية في استعمال كلمة اعترف فاراد بها اولاً اقرار المجرم بجريمته امام السلطة وثانيا السر الكنسي المعروف وهو الاقرار بالخطايا للكاهن

وبعد ان ضرب السلم خيامه فوقهما قلت لهما اني عازم ان اسلك جادة الفضيلة واواصل السير الى الامام بنواياى الطيبة وطلبت منهما أن يدخلاني المدرسة لانه لا شيء ممكن بلا قراءة ولا كتابة فاستصوبا رأيي بعد ان تهامسا بشانه حينا ثم عادت امي الى تنظيم الاضراس في السبحة ومضى ابي ليحلق لاحد زبائنه ـ حسبما قال ـ ولست أدري ان لحيته او جيبه. وبقيت وحدي اشكر الله الذي جعلني ابنا لوالدين بلغا هذا الحد من المهارة والاهتمام بصالحي.

الفصل الثاني

في ذهابي الى المدرسة وما وقع لي فيها

ما أصبح اليوم التالي حتى كانت الكرامة بين يدي والمخابرة مع المعلم قد تمت . فذهبت باكراً الى المدرسة . فاستقبلني المعلم باشا وقال لي ان امارات الفطنة والادراك مرتسمة على وجهي فحملني قوله هذا على تأدية الدرس في ذلك الصباح تأدية حسنة لكي لا اخيب ظنه في وكان المعلم يجلسني الى جانبه. وفي اكثر الايام انال الجائزة لاني كنت أول من يصل وآخر من يخرج فاقضي بعض الحاجات للسيدة ـ وهو اللقب الذي نطلقه على زوجة المعلم ـ وبمثل هذه التملقات اصبح الجميع مدينين لي وبالغوا في احظائي فازداد بقية الصبية حسداً مني اما انا فكنت أتصل بأبناء الاشراف وخاصة باحد ابناء ضون ألونصو

كورونيل دي زونيغا. فاتحدنا اتحاداً وثيقا وصرت أذهب الى داره في ايام الاعياد وارافقه في كل يوم واصبح الاخرون، اما لاني لم اكن احادثهم واما لانهم كانوا يعتبروني متعجرفا، يطلقون علي القابا تشير الى ابي. فالبعض يسمونني ضون ناباخا (1) والبعض الاخر ضون بنطوسا (2) وهذا يقول تبربرا لحسده انه يكرهني لان ابي سرقت ليلا اخنيه الصغيرتين وذاك ان ابي قد استدعي الى داره لينظفها من الفيران قاصدا بذلك تسميته قط (3) والبعض بصيحون بي حين امر بجنبهم ساي. (4) والاخرون مس، (5)

وحاصل الامر انه بالرغم عن كل مااعنابوني به لم تبلغني منهم اهانة قط ولله الحمد واني وإن

---

1) Navaja اي الموس
2) Ventosa اى المحجم
3) اي لصا
4) لفظة تستعمل لطرد القطط
5) لفظة تستعمل لدعاء القطط

كنت أخجل مما يقولون فقد كنت احسن اخفاء خجلي محملا كل شيء الى ان تجرأ يوما أحد الاولاد على القول لي بصوت عال «يا ابن الباغية الساحرة» وبما انه لفظ تلك العبارة بوضوح لايترك مجالا للسكوت - اذ لو انه قالها مبهمة لغضضت الطرف عنه - فما كان مني الا امسكت حجرا ورميته به ففججت رأسه. ووليت راكضا شطر امي تتخبئني

وأخبرتها بكل ما جرى لي فقالت: «نعم ما فعلت يا بني. وقد برهنت عمن أنت وانما اخطأت في اغفالك عن سؤاله من قال له ذلك فحين سمعت كلام أمي - وقد كنت اضمر دائما افكارا سامية - التفت نحوها قائلا: آه يا أماه! انما يؤلمني اشد الالم ان بعض الذين كانوا حاضرين الحادثة قالوا لي انه لا داعي لغضبي بسبب ذلك الكلام ولم اسألهم ان كان ما يقولونه لي يرجع الى صغر عمري فائلته او لسبب آخر. ثم رجوتها ان تخبرني اذا كان بوسعي ان اكذبه عن حق وان تعلمني

اذا كنت ابن ابى حقا امان في حبلها بى اعتترا كا لعنة رجال؟» فضحكت وقالت: خزيا لك! اهـذا القول نعرف ان تقول؟ او ابله انت؟ أجل، ان كلامك مدعاة للعبث ولقد احسنت صنعا حين فججت رأسه واعلم ان هذه الامور وان كانت صحيحة يجب الا تقال. فبهت كالميت حين سمعت هذا الكلام وعزمت على حمل ما أقوى عليه ضمن ايام قليلة ومغادرة دار والدى من شدة ما عمله الحياء في نفسي عبر انى اخفيت ما في خاطري وسار ابي الى دار الصبى فضمد جراحه وهدأ خاطره وردني الى المدرسة حيث استقبلني المعلم بغضب تبدد لم نخف تاثيره الا بعد ان سمع وعرف سبب المشاجرة فاعسر اذ اداك ان الحق كان بجانبي.

وحلال هذا كله كان ابن ضون ألونصو دى رونسغا واسمه دبيغو لا ينقطع عن زيارتي اذ كان يضمر لي الود والعطف. فاصلت بيني وبينه روابط الصداقة والاتحاد وصرت اعتنيه

واعطيه مما أتغداه دون ان اطلب منه مما يأكله واشتري له صورا واعلمه المصارعة والعب وايـاه لعبة الثيران واسليه دائما. فحين شاهد والـداه مقدار فرحه برفقتي اصبحا يرجوان والـدى في اكثر الايام ان يسمحا لي بالبقاء معـه لاتغـدى واتعشى وفي معظم الايام لانام الليل ايضا

وحدث ذات مرة في الايام الاولى التي عدنا الى المدرسة فيها بعد عيد الميلاد ان رجلا مشهورا بالاحتيال يدعى بنصيو دى اغيرى كان مارا في الشارع فقال لي ضون دييغو: «ناده باسم بنصيـو بيلاطو واطلق ساقيك للريح فناديته بهذا الاسم ارضاء لخاطر صاحبي. فما كان من الرجل الا ان غضب وجرى ورائي مجـردا خنجـره ليقتلنـي فاضطررت الى الالتجاء في هربي الى دار معلمـي ودخل الرجل ورائي صائحا. فتقدم معلمي لحمايتي طالبا من الرجل ان يعفو عن حياتي مؤكدا له انه سيعاقبني عقابا صارما وهكذا كان بالرغم مـن توسلات زوجته وتوسطها من اجلي لما كنـت

أقدم لها من خدمات. فأمرني بنزع قميصي ثم اخذ يجلدني ويقول بعد كل جلدة: اتعود الى القول بنصيو بيلاطو؟ فاجيبه. لا يا سيدي. ولقد اجبته مثنى عن كل جلدة جلدتها ووجدت في تلك الجلدات عبرة للتحامي عن ذكر اسم بنصبو بيلاطو. ونشأ بسببها في نفسي خوف من التلفظ بهذا الاسم بحيث انه اذ امرني المعلم في اليوم التالي على عادته بتلاوة الصلاة على بقية التلامذة حين وصلت الى قانون الايمان - ولتلاحظ حضرتك مكري المري - وبلغت فيه حد قوله: «ونألم على عهد بنصيو بيلاطو (1) تذكرت انه ينبغي ان لا اعود الى لفظ كلمة بيلاطو، فقلت: «نألم على عهد بنصيو دي اعيري، فحين سمع المعلم سذاجتي هذه ورأى الخوف المستحوذ علي من أجله ضحك حتى بدت نواجذه وعانقني واعطاني وعدا كتابا

---

(1) بنصيو بيلاطو او بيلاطوس البنطي هو الوالي الروماني على فلسطين الذي صلب سيدنا يسوع المسيح على عهده

بانه يعفو عني في المرتين المقبلتين اللتين استحق فيهما الجلد فذهبت راضيا مسرورا

ثم اقبل زمن المرفع (٦) فأمر المعلم بان تنظم لعبة «ملك الديوك» (٨) ترويحا عن نفوس تلامذته ووقعت القرعة بين اثني عشر منا فكان الحظ حليفي واوعزت الى والدي ان يدبرا لي اثوابا فاخرة. وحين اقبل اليوم المعين خرجت ممتطيا صهوة جواد ذابل مصدور يحني رأسه كمن يسلم باحترام لا أدبا بل لعرج الم باحدى ساقيه. وكان ذا كفل عاري الشعر قصير الذيل ككفل القردة. وذا عنق يفوق طولا عنق البعير ولم يكن في وجهه سوى عين واحدة على انها بيضاء. وكان يقرأ على بدنه ما نحمله المكلف بتغذيته من تقشف

---

٦) هي الايام الثلاثة السابقة لصيام النصارى وعند الموارنة هي الاسبوع السابق كله

٨) هي لعبة نقوم بدفن ديك مع ترك رأسه وعنقه فوق التراب ثم نعصب عينا احد اللاعبين وعليه ان يتقدم اذاك في مسافة ما باحثا عن الديك والسيف في يده

وصوم وما قام به من غش في شرائه له العلف. فبينما كنت سائرا على متنه ارتجج يمينا ويسارا كفريسي (٩) في سيره وبقية الاولاد ورائي بزينتهم مررنا بساحة البلدة ـ ان بدني يقشعر لمجرد ذكراها ـ وحين وصلنا الى موائد البقالات ـ نجانا الله ـ خطف حصاني كرنبا لواحدة منهن وباسرع من البرق ارسله الى امعائه حيث لم يصل في تدحرجه داخل حلقومه الا بعد وقت غير يسير فاخذت البقالة ـ وكلهن كما تعلم سفيهات ـ تزيط. ثم وصلت الاخريات مصحوبات ببعض الشطار رافعات جزرات كبيرة وسلاجم ضخمة وباذنجانات وغيرها من البقول. وشرعن بمطاردة الملك المسكين. اما انا فحين رأيت انها معركة ملحمية ليس لي ان

---

(٩) الفريسيون جماعة من اليهود كانوا يتظاهرون بالتقشف والتعبد ويتمسكون بظاهر الشريعة عابثين بروحها وكثيرا ما حمل عليهم سيدنا يسوع المسيح كما نرى في الانجيل المقدس. وقد اصبحت كلمة فريسي في الاسبانية مرادفة لمنافق

اشارك فيها راكبا اردت ان اترجل. لكن حماني خلفي ضربة عنيفة في وجهه وهو يحاول ان يشبو فاذا به يهوي بي ـ حاشاكم ـ في احد المراحيض وذركني كما بوسعك ان تتصور وكان فتياني قد تسلحوا بالحجارة وشرعوا بمطاردة البقالات ففجوا رأس اثنين منهن اما انا فقد اصبحت بعد سقوطي في المرحاض اكثر من نحتاج اليه في المشاجرة. ثم اقبل مأمور العدالة فقبض على البقالات والصبيان وفتش عما يحملونه من الاسلحة فنزعها منهم حيث ان البعض منهم كانوا قد جردوا خناجر وسيوفا صغيرة من التي جاؤوا بها للزينة. وحين وصل ولم ير معي أي سلاح لانهم كانوا قد نزعوه عني ووضعوه في احد المنازل مع المعطف والقبعة لتنشف. طلب مني سلاحي فأجبته والوساخة تحليني ان لا سلاح آخر لدي اذا كان هذا لا يؤذي الانوف. ولا بد لي ان اخبرك عرضا انه حين بدأت يرمينني بالباذنجان والسلجم وبقية البقول ظننت اذ كنت احمل ريشا في قبعتي انهن اعتبرنني والدتي

وانهن يرمينها عن قصد كما فعلن مرارا أخرى. فأخذت اصيح على بلاهتي وطفولتي قائلا: «يا اخواني اني وان كنت أحمل ريشا لست الدونصا سانورنو دي ريبوبو والدتي كما لو انهن لم يكن ليرين ذلك من قامتي ووجهي. لكن الخوف ووقوع المصيبة فجأة معذرة لجهلي

ولنعد الان الى مأمور العدالة فقد اراد سوقي الى السجن لكنه لم يفعل لانه لم يجد في ممسكا من حرث سقطتي ونوحلي. فذهب البعض منجهة والاخرون من جهة اخرى وعدت من الساحة الى داري معذبا انوف كل من اصادفهم في طريقي. وما كدت ادخلها واخبر والدي بما حدث حتى غضبا غضبا شديدا وهما يضربني لما يأباني عليه من سوء حالة. اما انا فكنت القي التبعة على الحصان الذى اعطيته محاولا ارضاءهما، وحين رأيت محاولتى فاشلة خرجت من الدار متوجها الى دار صديقي ضون دييغو فوجدته قد اصيب بجرح في رأسه. وقد عزم والداه لسبب ذلك على

الا يرسلاه فيما بعد الى المدرسة وهنالك اخبرت ان حصاني حين رأى نفسه في ضيق حاول ان يرفس لكنه من ضعفه الزائد انقطع كفله وبقي في الوحل على شفير الهلاك. واذ ابصرت العيد قد نعكر صفوه والبلدة في هرج ومرج ووالدي قد ثارت ثائرتهما وصديقي قد فج رأسه وحصاني قد مات عزمت ألا اعود ابدا الى المدرسة ولا الى دار والدي. وقررت ان ابقى في خدمة ضون ديبغو او بالاحرى في صحبته وذلك برضى والديه التام لما كانا يريانه من ولائي نحو الفتى. فكتبت الى والدي معلما اياهما باني لم اعد بحاجة الى الذهاب الى المدرسة لاني وان كنت لا احسن الكتابة فذلك لا يضيرني لان المطلوب في محاولة التخلق باخلاق الفرسان هو الا يحسنها المرء. ولذلك اتخلى عن المدرسة لكي لا احملهما نفقة وعن دارهما لاوفر عليهما المتاعب. واعلمتهما بمقري الجديد والشروط التي تعينت فيها وباني لن أراهما حتى اتلقى منهما اذنا بذلك.

الفصل الثالث

في ذهابي الى مدرسة داخلية بصفة خادم لضون دييغو كورونيل

وعندئذ عزم ضون ألونصو على ارسال ولده الى مدرسة تقبل طلابا داخليين ليبعده من جهة عن حياة الرفاهية وليوفر على نفسه مشقة القلق عليه من جهة اخرى وعلم ان في شقوبية كاهنا اسمه كبراء (1) منصرفا الى تربية أبناء النبلاء.

---

1) كابرا Cabra. ويظهر ان الكاهن الذي وصفه كيبيدو هنا قد وجد حقيقة. ويستدل على ذلك برسالة بعثها الى المؤلف صديقه خوان آدان دي لابارا وفيها يقول: بلغت شقوبية... وكم يطول بي القول عما ضحكته حين زرت الاب كابرينا. ولقد احدث تصويره الكمه لم بعد الان

فارسل اليه ابنه وارسلني معه لارافقه واخدمه. فسقطنا يوم الاحد الجديد (٢) بين يدي الجوع الحسم لان ذلك البؤس لا يقبل الزيادة وكان لاب كبيرا كالسطانه طويل القامة لا غير صغير الرأس اشقر الشعر ولا يحتاج الى زيادة في التعريف به من يعرف المثل القائل لاقط ولا كلب من ذلك اللون وكانت عيناه قريبتين من قفنه فيبدو كانه يطلع من وزاء مقطفين ومن شدة غورهما وسوادهما يصلح موضعهما ان يكون حانوتا لاحد التجار وقد اكلت انفه بثور انتجها الزكام وهي

متابقا للصورة التي رسمتها له لان المسكين قد ازدادت حالته سوءا واصبح على شفير الفناء بحيث تدعو الى الشفقة . وحين علم انه المعلم الذي صور في فصلك قال لي انه اولى بك ان تكون اكثر مروءة واقل عقوقا ولم يبق للمسكين تلامذة الان وليس بوسعه ان يقيم القداس وانما هو هيكل عظمي تعيش مما وفره في ايامه البيضاء.

(٢) هو الاحد الاول بعد عيد الفصح او القيامة

ان لم تكن ثمرة الرديلة فلان في ذلك نغقة. اما اللحية فقدفقدت لونهاخوفامن الفم المجاور الذي كان يبدو من الجوع المضنى كانـه يهددها بالافتـراس. والاسنان ينقصه معظمها واظـن انها نفيت من ذلك المكان لتكاسلها وتقاعدها عن العمـل (3) والعنق طويل كعنق النعامة مع جوزة ناتئة كانها تستعد لمغادرتها سعيا وراء غذائها بعد ان احدقت بها الفاقة والذراعان ناشفان واليدان كرزمة من الزرجون. واذا تطلعت الى نصفه الاسفل حلته شوكة او بركارا طويل الساقين هزيلهما بطيء السير. اذا غضب قليلا سمع لعظامه قرقعة كقرقعة الواح سان لازارو (4) وان تكلم صعد الكلام من

---

3) كان النفي من العقوبات المفروضة عندئذ على المتشردين الكسالى

4) الواح «سان لازارو» هي الواح ثلاثة تحمل مربوطة بخيط يمر في ثقبين وتمسك اللوحة الوسطى وتحرك فتحدث قرقعة وتستعمل لاستجداء الصدقات لمستشفيات سان لازارو

صدره كبير اللحية لم تمسها قط يد الحلاق تجنبا للانفاق. وكان يقول انه يفضل الموت على ان يرى يد الحلاق على وجهه لما تحدثه هذا الامر من كره في نفسه. اما شعر رأسه فيجزه له احد الطلاب. وفي الايام المشمسة يلبس قلنسوة العبة المقوب مزخرفة بالدسم خالية من شيء كان فيما مضى جوخا ومبتلية بالحزازة فكان البعض يقولون عند رؤيتها عارية من الشعر انها من جلود الضفادع والاخرون انها من نسيج الوهم. فتخبر عن قرب سوداء وعن بعد مائلة الى الزرقة. وكان يرتديها بدون زنار ولا قلبق ولا اردان فنوح بشعره الطويل وجبته القصيرة المتدلية كانه من خدام الموت. اما نعلاه فحدث عنهما كان كانيا لان يكون احدا لفلسطيني (1) واما عن مسكنه فماذا نقول؟ انه كان خاليا حتى من العنكبوت وكان يبعد الفيران عنه خوفا من ان تقرض له بعض الكسر التي يحتفظ بها

---

(1) كان يقال عن شخص انه فلسطيني اذا اريدت المبالغة في ضخامة جسمه

ومن الارض تتخذ سريرا مد فوقه الفراش فينام دائما على جانب واحد لئلا ينلف المقادم. وبالاختصار كان صاحبنا غاية في الفقر ومثالا للبؤس. فبين يدي هذا الرجل وقعت انا وضون دييغو وفي ليلة وصولنا دلنا على عرفنا والقى علينا عظة قصيرة لم يطلها لئلا يسرف في الوقت. واشار علينا بما يجب ان نعمله وشغلنا بهذا حتى ساعة الغداء وحينئذ ذهبنا الى قاعة الاكل وكانت العادة ان ياكل الاسياد اولا بينما نقوم نحن الخدام بخدمتهم. وكانت القاعة المذكورة عبارة عن غرفة ضيقة وقد تجمع حول مائدة واحدة خمسة اشخاص. واول ما بحثت عنه عيناي في تلك الغرفة هي القطط. ولما لم ارها سالت عنها خادما قديما نرى عليه لهزاله علامات الاقامة في ذلك المنزل فانسحق تلي عند سماعه هذا السؤال وقال كيف تسال عن القطط؟ فمن اخبرك ان القطط تحب الصوم والتقشف؟ اجل ان سمنك يدل على حداثة عهدك بهذا المكان فحين سمعت هذا القول بدأ الغم يدب الى نفسي وازددت خوفا حين رايت ان جميع من

سبقونا الى سكنى هذا المنوى كانوا تسالمخاصف كان وجوههم قد طليت بمراهم (الدياكيلون)(6) فجلس الاب كابرا والقى البركة ثم اكل الحاضرون اكلة ابدية لا ابتداء لها ولا نهاية فجيء اولا بمرق في قصاع من الخشب لو اكل نرسبسو (7) في واحدة منها لكان من صفاء ذلك المرق في خطر اشد من من خطر الغدير ولاحظت مغتما ان الاصابع الهزيلة كانت تسبح سعيا وراء حمصة يتيمة وحيدة كانت في قعر القصعة وبعد كل حسوة يقول

---

(6) الدياكيلون مرهم كان يستعمل في الجراحات لازالة الدمامل

(7) نرسيسو Narciso في الميثولوجية هو ابن النهر سفيسو Cefiso وعروس الماء لريوبيا Liriopea وكان غاية في الجمال لكنه لم يفتح قلبه لعواطف الهوى وتروي الاسطورة انه وقف ذات يوم جانب غدير صفا ماؤه كالبلور فابصر صورته معكوسة فيه وفتن بجمال ذاته ايما افتتان وغطس ذراعيه في الماء ليقبض تلك الصورة التي ظنها لشخص آخر

كـابرا الحق يقال انه لا شيء كـالقدر (٨) مهما تقول المتشدقون. وما عداها رذيلة ونهم وما كـاد يفرغ من ترداد هذه العبارة حتى جرع ما في القصعة دفعة واحدة قائلا: ،هذا كله عافية وذكاء فقلت في نفسي ،قاتلك الله (٩) حين رأيت غلاما هزيلا كـأنه جاء من عالم الارواح وبين يديه صحفة فيها لحم كانه قطعة من بدنه. وتقربه لفتة مغامـرة. فقال المعلم: ،ألفت لذلك؟ اجل، انه لا يطيب لي

---

٨) كلمة Olla في الاسبانية تعني في الاصـل القدر وهو الاناء المعروف لكنها اطلقت ايضا على اكله تتركب من لحم وشحم وخضر وحمص وبطاطا يضاف اليها شيء من المقانق توضع كلها في قدر وتغلى حتى تطيب. وهي الاكلة الوطنية الشعبية في اسبانيا الى يومنا هذا.

٩) اتى المؤلف تورية في كـلمة ingenio فاستعملها اولا بمعنى ذكاء وثانيا بمعنى حيلة فآثرنا تعريب الجملة الثانية بقولنـا ،قاتلك الله وهو المقصود.

حجل مثلها. كلوا فان صدري لينشرح حين أراكم تأكلون ثم وزع على كل واحد منهم قدرا ضئيلا من اللحم بحيث نفذ في ظني ما أصاب كل واحد بين ما التصق بأظافره وعلق بين اسنانه واثناء هذا كان كابرا يتطلع اليهم قائلا: كلوا فانكم لفتيان ويسرني ان ارى فيكم هذه الشاهية، فتأمل اصلحك الله ما احسنها من توابل لمن كانوا يتثاءبون جوعا.

واخيرا فرغوا من الاكل وبقيت فوق الخوان بعض الكسر وفي الصحفة بعض الاهب والعظام. فقال المعلم: فليبق هذا للخدم اذ من حقهم ان يأكلوا ايضا ولا نأكله نحن كله اما انا فكنت اقول في نفسي . بلاك الله وما اكلته بسوء ياشقي! فياله من تهديد رميت أمعائي به. ثم القى البركة وقال: فلنترك المكان للخدم واذهبوا حتى الساعة الثانية وروضوا اجسامكم لئلا يضركم ما أكلتموه، فلم اتمالك حينئذ من الضحك ملء شدقي وغضب المعلم غضبا شديدا وقال لي ان تعلم الحشمة وزرد

على مسامعي ثلاث او اربع حكم قديمة وذهب الى حال سبيله. فجلسنا نحن وحيث رأيت الصفقة خاسرة وامعائي تطلب الانصاف هجمت على الصحفة بصفتي اكبر الخدم واقواهم كما هجم الاخرون ولقمت من الثلاث كسر اثنتين والاهاب الوحيد الذي كان فيها فاخذ البقية يدمدمون متذمرين فدخل كابرا حين سمع الجلبة وقال «كلوا كالاخوة فان الله قد رزقكم ما تاكلونه متحابين ولا تنازعوا فان لديكم ما يكفي الجميع» ثم عاد يتشمس وتركنا وحدنا. هذا واني اؤكد لحضرتك انه كان بين الخدم واحد من بسكايا اسمه سري بلغ به نسيانه كيف يؤكل ومن اين انه رفع كسرة اصابته الى عينيه مرتين دون ان يصيب في توجيه يديه الى فمه. ثم طلبت ان اشرب حيث ان الباقين الذين كادوا يكونون صائمين لم يطلبوا ذلك. فاعطوني كأس ماء وما كاد الكأس يمس شفتي حتى كانت يد الغلام المستحيل روحا الذي تكلمت عنه سابقا تمتد اليه وتاخذه

مني كما لو كان ماء مقدسا فقمت والغم يملأ نفسي حين رأيت اني في دار يشرب فيها الفم نخب الامعاء فتعجز هذه عن مقابلته بالمثل (10)

وشعرت بحاجة الى التبرز وان لم اكن قد اكلت فسألت احد الاقدمين عن المرحاض فقال: لست ادري اذ ليس في هذه الدار من مرحاض وعلى كل حال ان برازا تبرزه مرة واحدة طيلة اقامتك هنا يمكنك ان تخرجه اينما كان، فهأناذا قد مر عني شهران في هذه الدار ولم احتج الى ذلك سوى مرة واحدة يوم دخولي كما تريد ان تفعل أنت الان وذلك مما تعشينه في داري عن الليلة السابقة. فكيف أصف ما استولى علي من الحزن والغم حين سمعت هذا القول اجل. لقد كان ذلك عظيما الى حد اني بعد ان تأملت في ضآلة ما دخل جسمي لم أجرأ بالرغم عن رغبتي بابراز شيء مما في داخله.

---

(10) اي ان ما يدخل الفم قليل بحيث لا يصل الى الامعاء فلهذا لا تقدر هذه ان تقابل من يشرب نخبها بالمثل

تسلينا حتى حلول الليل؛ وكان ضون ديغو يسألني اثناء ذلك عما عساه ان يفعل ليقنع معدته بأنها اكلت لانها لم تكن لتصدقه. وكانت تطوى الساعات خاوية في تلك الدار كما كانت نقضيها متخومة في دار اخرى. واخيرا اقبلت ساعة العشاء لان ساعة العصر مرت دون ان يأتي احد على ذكر العدوقة. فتعشينا اقل مما تغديناه بكثير ولم يكن في العشاء لحم عجل بل قليل مشوي من اسم المعلم (1) ونأمل رعاك الله اذا كان ابليس نفسه يقدر على ابتداع امر كهذا فقد كان المعلم يقول «في العشاء الخفيف صحة البدن لان المعدة تبقى عاطلة» ويتبع قوله هذا بلائحة لا نهاية لهـا من الاطبا الجنسيين ويكثر الثناء على الحمية قائلا انها تنفي عن المرء الاحلام المزعجة لعلمه ان من في داره لا يمكنهم ان يحلموا بشيء آخر سوى انهم يأكلون. فتعشوا وتعشينا جميعا ولم يتعش أحد.

---

(1) اي من لحم الماعز لان المعلم اسمه كابرا Cabra ومعناها ماعز

ثم سرنا لنرقد لكن مضى الليل ولم تغمض لنا عين لا لي ولا لضون دييغو. اذ كان هو يهي شكواه الى والده طالبا منه ان يخرجه من ذلك المكان وأنا انصحه ان يفعل ذلك وان كنت في الاخير قد قلت له «أتعلم يا سيدي علم اليقين ان كنا في عالم الاحيا؟ لاني أتصور اننا قتلنا في مناوشة البقالات وانما نحن الان انفس تتعذب في المطهر. وعليه ارى انه من العبث ان تقول لابيك ان يخرجنا من هنا اذا لم يقم احد بالصلاة من أجلنا بسبحة ذات حبات كبيرة ويخلصنا من العذاب بتقديمه قداسا يقام في مذبح مميز بغفران كامل»

وبين هذه السمرات والقليل الذي رقدناه حانت ساعة النهوض اذ دقت الساعة السادسة فنادانا كابرا الى الدرس. فذهبنا واصغينا اليه جميعا. اما انا فقد أصبح ظهري وخاصرتاي تسبح في داخل القميص والسراويل تتسع لسبع سيقان مثل ساقي وعلت الطرامة اسناني فبرزت صفراً مجلببة باليأس. وامرت بقراءة الفاصل الاول على

مسمع من بقية التلامذة. لكن جوعي كان كبيرا بحيث فطرت بنصف الكلمات ولن يتردد في تصديق ما أقوله من عرف ما حكاه لي غلام كابرا اذ قال لي انه رأى بأم عينه جوادين فريسيين (12) دخلا الى تلك الدار وخرجا بعد يومين ضامرين رشيقين يطيران في الجو سرعة. وانه رأى دراوس غليظة ادخلت اليها أيضا ثم خرجت بعد ثلاث ساعات وقد صارت سلوقية عداة. وانه في مدة الصوم رأى مرة اناسا كثيرين منهم من ادخل رجليه ومنهم يديه ومنهم جسمه كله في رواق الدار مستمرين على تلك الحالة برهة غير وجيزة وان اناسا كثيرين غيرهم كانوا يفدون من الخارج لهذه الغاية فحسب. وسألته مرة عن ذلك لان كابرا قد غضب لسؤالي اياه فقال لي ان منهم من هو مصاب بالجرب ومنهم من

---

(12) اي آتيين من فريسيا او بنمبان - اي ذلك النوع من الخيل التي تمتاز بقوة بقوائمها وعرضها.

به تورم من البرد وبوضعهما في تلك الدار يموتان جوعا بحيث لا يأكلان بعد ذلك اليوم (13) وقد اكد لي ان ذلك صحيح وانا الذى عرفت الدار أصدق ذلك القول. وأقول هذا لكي لا تعتبر كلامي من باب المبالغة

ولنعد الان الى الكلام عن الدرس. فقد ألقاه المعلم علينا ثم رددناه كلنا معا. وعلى هذا النمط الذى وصفته واصلت العيش. وانما اضاف كابرا شيئا من شحم الخنزير الى اكلة المرق بسبب شئ لم اطلع عليه قيل له خارجا عن

---

(13) الجرب والتورم الناشئ عن البرد Sabañones مرضان ينتشران في الجسم بسرعة كأنهما يأكلانه. وعن ذلك نشأ في الاسبانية مثل قديم فيقال «آكل من التورم الناشئ عن البرد وهذا ما سمح للمؤلف بالتلاعب في الكلام فشبه المرضين بشخصين اكولين اذا ادخلا دار كابرا هلكا جوعا ولا يأكلان فيما بعد جسم المريض

صفاً نسبه (14) وكان عنده صنيديق من الحديد كله ثقوب كالمصفاة. فيفتحه ويضع فيه قطعة من شحم الخنزير. ثم يشده ويدليه مربوطا بخيط داخل القدر ليتسرب اليها شيء من المرق من خلال الثقوب ويبقى الشحم لليوم التالي (15) ثم : ان

---

(14) كان اليهود المهتدون حديثا الى النصرانية يحتفظون بشيء من الكره نحو لحم الخنزير ولهذا كانت تنكر عليهم صفة القدم في الديانة المسيحية وفي ذلك تحقير كبير

(15) . وزعموا انهم (اهل خراسان) ربما ترافقوا وترامقوا تناهدوا وتلازموا في شراء اللحم. واذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ واخذ كل انسان منهم نصيبه فشكه بخوصة او بخيط ثم ارسله في خل القدر والتوابل. فاذا طبخوا تناول كل انسان خيطه وقد علمه بعلامة ثم اقتسموا المرق ثم لا يزال احدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ثم يجمعون خيوطهم فان اعادوا الملازقة اعادوا تلك الخيوط لانها قد

له فيما بعد ان في هذا تبذيرا كبيرا فاكتفى بان يجعل قطعة الشحم تطل على القدر اطلالا.

فعلى هذه الحالة كنا نقضي الايام كما يمكنك ان تتصور وقد بلغ الامر بي وبضون ديغو اننا حيث لم نجد سبيلا للاكل فتشنا عن طريقة تمكننا من ألا نقوم في الصباح فصممنا على التمارض لكننا لم ندع السخونة لانه اذا لم تكن انكشفت الخديعة بسهولة. وان ندع الما في الرأس او في الاضراس لم يعتبر هذا الالم عائقا كافيا لملازمة الفراش فقلنا اخيرا اننا مصابون بألم في الامعاء لاننا لم نبرز منذ ثلاثة أيام مؤملين ان المعلم لن يبحث لنا عن دواء حرصا على ألا يصرف فلسين لشرائه. لكن الشيطان دبر الامور بالعكس حيث انه كانت لديه وصفة ورثها من ابيه الذي كان صيدليا فحين عرف دائنا هيأ حقنة ودعا عمته وهي عجوز تبلغ السبعين من العمر وقال لها ان تضعها

تشربت الدسم». (الجاحظ كتاب البخلاء ص 24-25 طبعة ليدن سنة 1900)

لنا وبدأوا بضون ديغو فخجل المسكين وارتبك وبدلا من ان ترميها العجوز في الداخل رمتها بين القميص وفقار الظهر وبلغت قفاه وهكذا جاء زينة في الخارج ما كان معدا لان يكون بطانة فبقي الفتى بصيح وعندئذ جاء كابرا وحين رآه امر بان احقن بالباقي ثم تعاود الكرة مع ضون ديغو. وكنت أرتدي ثيابي اذاك. لكنه لم يجدني نفعا اذ امسكني كابرا واشخاص آخرون وحقنتني العجوز بالحقنة لكنني ارجعتها لها حالا فاصبتها في وجهها فغضب علي كابرا غضبا شديدا وقال انه سيطردني من داره اذ قد اتضح أن كل ما ندعيه انما هو خداع صرف لكن لم يشأ سوء طالعي أن يطردني فنفعنا ضون الونصو شكوانا لكن كابرا كان يحمله على الاعتقاد باننا انما نعمل ذلك تهربا من حضور الدرس. ولذلك لم تجدنا التوسلات نفعا ثم اتخذ المعلم تلك العجوز لتطبخ وتخدم التلامذة وصرف الخادم لانه رأى معه يوم الجمعة صباحا بعض فتات من الخبز. أما ما تحملناه من هذه

العجوز فلا يعلمه الا الله. اذ كانت صماء لا تسمع شيئا البتة. وتفهم بالاشارة، عمياء كثيرة، الصلاة الى حد ان سبحتها تفككت يوما فوق القدر فجاءتنا بيا صحبة 'نتى مرق 'كلته فاخذ البعض يقولون لعله حمص اسود. ولاشك انه جيء به من الحبشة. ويقول الاخرون أيكون حمصا في حالة الحداد؟ من ماتت له؟، واما سيدي فقد ابتلع احدى الخرزات فانكسرت واحدة من اسنانه وهو يمضغها. وكان من عادتها ان تقدم لنا يوم الجمعة بيضا مكسوا بقدر من الشعر المتساقط من رأسها يؤهله لممارسة المحاماة (16) اذ كان من الامور العادية اتخاذ الرفش الصغيرة المعدة لنقل الجمر بدل الغرفة وارسال جفنة من المرق مبلئة بالحصى. وقد عثرت الف مرة في القدر على هوام وعودان ومشاقة مما كانت تغزله فالتهمته كله ليدخل الامعاء ويزيد في حجم الداخل اليها.

---

16) كان من عادة المحامين في ذلك العهد ارخاء لحاهم

وهكذا قضينا حتى حلول الصوم وفي مطلعه سقط احد الرفاق مريضا وامتنع كابرا عن استدعاء الطبيب حرصا على المال حتى اصبح الفتى يطلب الاعتراف اكثر من كل شيء آخر. وحينئذ استدعي احد المعالجين وبعد ان جس نبضه قال ان الجوع سبقه الى قتل ذلك الرجل (17) ثم جاءوه بالقربان الاقدس وحين شاهده المسكين ـ وكان قد مر عليه يوم كامل دون ان ينبس ببنت شفة ـ قال يا سيدي يسوع المسيح! لقد كان دخولك الى هذه الدار لازما لاقتنع بانها ليست هي الجحيم، فانطبعت هذه الكلمات في قلبه. ثم لفظ الفتى المسكين النفس الاخير. فدفناه في جنازة حقيرة لانه كان غريبا. وبقينا كلنا مدهوشين. وانتشر الخبر الفظيع في المدينة كلها وبلغ مسامع ضون الونصو كورنيل. وبما انه لم يكن له سوى ابن واحد زال اغتراره اذاك بقساوة كابرا واخذ يعير اذنا صاغية الى كلام شبحين ـ اذ كنا قد بلغنا هذه الدرجة من

---

(17) تهكم قاس على اطباء ذلك العهد

الهزال فجاء ليحرجنا من تلك المدرسة وكان يسالنا عن انفسنا ونحن بين بديه وقد شاهد من حالتنا ما حمله على الاعلاظ في القول للمعلم (بيخيليا)(18) وأمر بنا فحملنا على كرسيين الى الدار وودعنا رفاقنا الدي كانوا ينبعوننا برعبانيهم واعيهم مصعدين التاوهات التي بصعدها الاسير الذي يبقى في الجزائر (19) حين يرى رفاقه يغادرون الاسر

---

(18) سماه هنا بيخبليا vigilia ومعناها في الاسبانية التنحس او الانقطاع عن اكل اللحوم والبيض والحليب مبالغة في وصفه بالشح اي انه جسم التنحس فيه.

(19) كان اسم الجزائر في ذلك الزمن مقرونا الى فظائع الاسر لانها كانت اعظم قاعدة للقرصان ومن جملة من وقعوا بين ايديهم في الربع الاخير من القرن السادس عشر امير الادب الاسباني ميغيل دى سرفانطيس وبقي في الاسر خمس سنوات.

الفصل الرابع

في تعافينا وذهابنا للدراسة في قلعة هناريس

دخلنا دار ضون الونصو فالقونا على سريرين بعناية كبيرة لئلا تتبدد عظامنا التي أضناها الجوع وجاؤوا بكنافة يفتشون عن اعيننا في الوجه كله اما انا وقد كان تعبي اكثر وجوعي اشد ـ اذ كنت على كل حال اعامل كخادم ـ فقد مضت برهة غير يسيرة قبل ان يعثروا على عيني. ثم جاءوا عاطباء فأمروا بان ننظف بمسافر من ريش كما تنظف الروافد (1) التي وراء المذابح. والحق يقال اننا كنا معذبين ولا عذاب الشهداء وأمروا

---

(1) أتى المؤلف هنا بتورية في كلمة retablo التي معناها «رافدة وراء المذبح» ومنها التعبير retablo de duelos أي رافدة الالام الذي معناه «معذب»

آيضا بان يعطى مرق الدجاج. اه! من لي بمخبر اول لعوق واول طائر بالشموع التي اوقدتها امعاؤنا فرحا اذ كل شيء كان عندها جديدا.

وأمر الاطباء ان لايرفع احد صوته في غرفتنا مدة تسعة ايام لان معدتينا كانتا خاويتين يسمع في داخلهما صدى كل كلمة تلفظ.

فبهذه العناية وغيرها بدأنا نسترجع الحياة. غير ان فكوكنا لم تكن تقوى على التحرك اذ كانت سوداء ثابتة، فاشير بان يعدلوها لنا كل يوم بواسطة يد الهاون. وبعد اربعة ايام بدأنا نخطو بعض الخطوات ولما نزل كأشباح رجال آخرين. وبنحولنا وهزالنا كنا كأننا من سلالة نساك الصحاري.

وكنا نقضي النهار في رفع تشكراتنا الى الله الذي فكنا من اسر كابرا الغشوم ونتوسل الى المولى عز وجل الا يسمح بوقوع واحد من النصارى بين يديه القاسيتين واذا حدث اثناء الاكل ان تذكرنا ما كنا نطعم في دار المعلم ازداد جوعنا

ازديادا تتضاعف معه نفقة ذلك اليوم. وكثيرا ما كنا نقص على ضون الونصو كيف كان يقبح لنا النهم حين يجلس امام الخوان مع انه لم يعرفه قط في حياته. وكثيرا ما يقهقه حين نخبره بانه كان يدخل ضمن الوصبة الالهية القائلة «لا تقتل» الحجال والديوك وكل ما لا يريد ان يعطينا اياه وكنتيجة لكل هذا، الجوع نفسه، اذ يظهر انه كان يعتبر من الخطايا لا قتل الجوع فحسب بل وتربينه حسبما يؤخذ من طعامه.

وهكذا انقضت ثلاثة اشهر واخيرا عزم ضون الونصو على ارسال ابنه الى قلعة هنارس ليتم دراسة النحو. فسألني عما اذا كنت اريد مرافقته ولم أكن لارغب الا في الرحيل عن ارض يسمع فيها اسم ذلك اللعين مضطهد الحشا. فعرضت عليه ان اكون خادما لابنه وعين له احد الخدمة قهرمانا يدبر شؤون الدار ويقدم له حسابا عما ينفق من المال الذى كان يرسله لنا بحوالات على رجل اسمه خوليان مرلونا. ووضعنا الامتعة في عجلة

رجل يدعى دييغو مونخي وكانت تتألف من سرير نصفي وسرير آخر من امراس في اسفلها دواليب لتوضع تحت السرير الاخر الذي كان لي وللقهرمان المسمى اراندا ومن خمسة فرش وثماني ملاحف وثماني مخدات واربع بسط وصندوق يحتوي على الملابس الداخلية والسمط وبقية عفاش الدار. وركبنا نحن في عربة عند الاصيل قبل الغروب بساعة ووصلنا عند نصف الليل الى خان «بيبيروس» (2) لا بارحته اللعنة وكان صاحب الفندق طرارا من الموريسكوس (3) فبالغ بالحفاوة

---

2) خان «بيبيروس» Venta de viveros. كان هذا الخان قائما على الطريق بين مدريد والقلعة فيحل فيه الطلاب في ذهابهم وايابهم. وقد اشتهر بما كانوا يقومون به فيه من مداعبات. وورد ذكره في عدة مؤلفات هزلية من ذلك العهد

3) الموريسكوس: الاسم الذي اطلق على بقايا المسلمين في الاندلس. ثم ظل مستعملا لمن اعتنق منهم النصرانية

بنا. وبما انه كان على اتفاق مع رجال العربة ـ الذين وصلوا بالامتعة قبلنا اذ كنا نسير على مهل ـ التصق بها ومد يده لمساعدتي على النزول منها وسألني اذا كنت ذاهبا للدراسة. فاجبته ان نعم، فقادني الى الداخل حيث كان سفيهان بصحبة بعض الفاسقات وكاهن بصلي، وتاجر شيخ شحيح يحاول ان يتناسى حاجته الى العشاء وطالبان من ذوي المعاطف القصيرة (4) يفتشان عن شيء يلتهمانه. فقال مولاي على صغره وحداثة عهده في الفندق: «يا صاحب المثوى! اعطني مما عندك لي ولخادمين» فأجاب فورا احد السفهاء: انما كلنا خدام لحضرتك ولا بد لنا من القيام بخدمتك! إي صاحب الفندق! فليكن ببالك ان هذا السيد يشكرك على كل ما نقوم به. فافرغ ما ادخرته وما كاد ينتهي من هذا الكلام حتى

---

(4) ذوي المعاطف القصيرة. كان الطلبة الفقراء الذين يرافقون طلبة اغنياء كخدم لهم يتميزون عنهم بأثوابهم

وصل واحد آخر ونزع المعطف عن ضون ديغو قائلا: «فلتسترح حضرتك يا سيدي» ووضع المعطف على مصطبة هناك اما انا فقد استولت علي عند رؤيتي كل هذا روح الكبرياء وصرت كأني رب الفندق، وحينذاك قالت احدى الفاجرات «ما أحسن سمته وانبله! ألمدراسة يذهب؟ او انت خادمه؟» فاجبت معتقدا بان الامر كما يقولون باننا انا والاخر خادماه، فسألوني عن اسمه وما كدت اتلفظ به حتى وصل احد الطالبين متباكيا وعانقه معانقة حارة ثم قال: «آه يا سيدي ضون ديغو. من كان ليقول لي منذ عشر سنين اني سأراك اليوم على هذه الحالة! تبا لي من مسكين. ان حالتي قد تغيرت الى حد انك لم تعد تعرفني» فدهش ضون ديغو ودهشت انا ايضا بحيث اقسمنا فيما بيننا اننا لم نره قط. واثناء ذلك كان الطالب الاخر يتفرس في ضون ديغو. ثم قال لصديقه أهذا هو ذلك السيد الذي طالما حدثتني عن أبيه؟ اجل لقد شاء حسن طالعنا ان نلتقي به ونتعرف عليه على

كبره، صانه الله! ثم أخذ يرسم على صـدره اشارة الصليب. وبعد هذا كله من لا يصدق انهما زيـا معنا؟ اما ضون دييغو فقد عرض عليه مساعدتـه وبينما كـان يسأله عن اسمه خرج صاحب الفندق وبسط السماط واذ شم رائحة الاحتيال قال: «دعوا هـذا فبعد العشاء تتحدثون اما الان فقـد يبـرد الطعام. ثم وصل احد السفهاء فوضع مقاعد للجميع وكرسيا لضون دييغو، وجاء الاخر بصحيفة وقـال الطالبان «فلنعش حضرتك الان واما نحن فسنقوم بخدمتك ريثما يهيئون لنا شيئا مما حضر. فصاح ضـون دييغو قائلا: «حاشا ان يكون ذلك. لا بل تجلسان وتخدمان». فأجاب السفهاء ـ مع ان كلام ضون دييغو لم يكن موجها اليهمـا ـ «لا يـا سيدي! فيما بعد. اذ لما يفرغ من اعداد كـل شيء». اما انا فحين رأيت البعض يدعون والاخرين يدعـون انفسهم استولى علي الغم وخفـت مـن وقوع ما وقع لان الطالبين تناولا السلطة التي كانت تملا قصعة لا بأس بها وتطلعا الى مـولاي

قائلين «ليس من اللائق ان تبقى هاتان السيدتان بلا أكل حيث يوجد سيد من قدرك فلتامر حضرتك بان نصيبهما لقمة فما كان منه الا ان دعاهما تأدبا فجلسنا امام الخوان وبأقل من اربع لقم اننا هما والغالبان على السلطة» فلم يتركوا منها سوى قلب خسة ازدرده ضون دييغو. وحين ناوله اباه ذلك الطالب الخبيث قال: كان احد اجدادك وهو عم والدي اذا رأى خسا اغمى عليه فرحا. أجل لقد كان رجلا كل الرجل. وما كاد يفرغ من كلامه هذا حتى تناول قريصا من الخبز وتناول رفيقه قريصا آخر حيث ان الفاجرتان كانتا قد انتزعتا رغيفا كاملا غير ان الذى فاق الجميع أكلا هو الكاهن ولكن بالنظر فقط. ثم جلس السفيهان امام نصف جدي مشوي وشريحتين من شحم الخنزير وفرخي حمام مطهيين وقالا: «يا حضرة الاب! علام انت هناك ؟ اقترب ومد يدك فان مولاى ضون دييغو يغمرنا جميعا بفضله» وما كادا يقولان هذا حتى كان الكاهن جالسا معهم.

وحين رأى سيدى ان الجميع قد تراكموا عليه بدأ يغتم. وتقاسموا كل شئ فيما بينهم. واعطوا ضوز دييغو بعض العظام والاجنحة اما البقية فقد التهمه الكاهن والاخرون. وكان السفيهان يقولان لا تنعش كثيرا ياسيدي فانه مضر، فيجيبهم الطالب الملعون وعلاوة عن ذلك من الواجب ان نعتاد على قلة الاكل للاقامة في القلعة، (٥) وكنا انا والخادم الاخر نتضرع الى الله ان ترق قلوبهم فيتركوا لنا شيئا. وبعد ان أكلوا كل شئ التفت احد السفيهين وقال وبحى من خاطي ! اننا لم نترك شيئا للخدم. الويل لكم! ياصاحب الفندق اعطهم ما توافر لديك وهاك هذا الدينار. فقاطعه فجأة نسيب مولاى الشرير – اعني الطالب الاخر – قائلا اسمح لي باحضرة الشريف ان اقول لك انك لا تعرف كثيرا من اصول المجاملة أتدري انك تعرف ابن عمي ؟ أجل! انه ليطعم خدمه وحتى خدمنا لو كان لدينا خدم كما أطعمنا نحن فرد

---

(٥) يعني قلعة هنا ريس

عليه الاول قائلا. «لا تغضب ياصاح» فاني لم أكن لاعرفه حق المعرفة، وحين رأيت انا هذا المكر الكبير اغدقت عليه من اللعنات ما كنت أعتقد أنه لا آخر له

ورفع الخوان واشار الجميع على ضون دييغو بالرقاد اما هو فاراد ان يدفع ثمن العشاء لكن الباقين اجابوه بان لديه متسعا من الوقت ليقوم بذلك في اليوم التالي. وامضوا شطرا من الوقت في السمر واستفسر ضون دييغو الطالب عن اسمه فاجاب قائلا انه يسمى ضون فلان كورنيل أحرقه الله بنار جحيمه أنى كان هذا الكذوب! ورأى الرجل الشحيح قد رقد فقال «أتريد حضرتك ان تضحك؟ فلنعد لعبة على هذا الشيخ الذى لم يأكل سوى اجاصة طول الطريق مع انه وافر الثروة، فقال السفيهان نعم ما راى الطالب؟ افعل ما بدا لك فانت في ذلك مصيب، فتقدم الطالب وسحب من تحت رجلى الشيخ النائم خرجا وفضه فاذا فيه صندوق فاقبل الجميع كمن يقبل على صوت النفير

يدعو الحرب. وفتحوه فاذا هو مملوء من الحلوى فاخرجها الطالب ووضع مكانها أحجارا واعوادا وغير ذلك مما وقعت يده عليه، ثم برز فوق ما وضعه ووضع فوق البراز نحو اثنتي عشرة آجرة قديمة ثم أغلق الصندوق وقال «ما هذا بكاف فان معه زقا». ثم اخرج الخمر من الزق واتى بمخدة من عربنا فجردها من غشائها وبعد ان صب في قعر الزق قليلا من الخمر ملأه صوفا ومشاقة ونده ثم ذهب الجميع ليرقدوا ساعة او نصف ساعة بقيت ووضع الطالب كل شيء في الخرج، وجعل حجرا كبيرا في قبعة الرداء واخيرا مضى ليرقد. وحين وافت ساعة الذهاب افاق الجميع سوى الشيخ فقد ظل نائما. فنادوه وحين نهض لم يقو على رفع قبع الرداء فتامل ما فيه واذا بصاحب الفندق يصيح به عن قصد «يالله! ألم نجد ايها الشيخ ما نذهب به سوى هذا الحجر؟ ما رأى حضراتكم لو انه مضى دون ان اراه؟ وأني لأفضل هذا الحجر

على مائة دكة (6) لانه يشفي وجع المعدة: وكان الشيخ يقسم ايمانا معلظة أنه لم يضع هـذا الحجر في القبعـة.

وحسب السفيهان ثمن العشاء فاذا به يبلـغ ستين بليونا. أجل: ان خوان دي لبعانـوس (7) ليعجز عن فهم هذا الحساب وكان الطالبان يقولان «بما اننا سنخدم حضرتك في القلعة فاننا مقابـل ذلك نعتبر انفسنا براء من النفقة» ثم فطرنا قليلا وتناول الشيخ خرجه وحل رباطه في الظلمة تحت الرداء لئلا نرى ما يخرجه ولا يتقاسمه مع أحـد. وامسك كسرة اجرة مدهونة والقاها في فمه وضغط عليه بضرس ونصف سن كانا باقيين لـه ولولا اليسير لاضاعهما فاخذ ببصق ويبدي امارات الاشمئزاز والالم فوصلنا كلنا اليـه والكاهن في المقدمـة مستفسرين اياه عما حصل له. وشـرع الرجـل

---

(6) دكة ducado نقد ذهبي اسباني قديم.

(7) Juan de Leganos يظهر انه شخص خيالـي تضرب به العامة المثل في الذكاء.

يستعيذ بابليس ورمى الخرج فوصل اليه الطالب قائلا -وراءك يا ابليس، ان الصليب فوقك، وفتح آخر كتاب صلاة الكاهن وحملوه على الاعتقاد بان به مسا حتى أقر اخيرا بحقيقة ما جرى وطلب منهم ان يتركوه يتمضمض بقليل من الخمر جاء به في الزق فتركوه واخرج الزق وفتحه ثم صب في كأس قليلا من الخمر فخرج من الزق خمر بري، اوبر، الحي، ممزوج بالصوف والمشاقة بحيث لا يمكن ان يشرب ولا ان يصفى وحينئذ عيل صبر الشيخ لكنه عند ما رأى القهقهات تتصاعد فضل السكوت وركوب العربة مع السفيهين والنساء. اما الكاهن والطالبان فامتطوا حمارا وجلسنا نحن في العربة وما كدنا نشرع بالسير حتى أخذ الجميع يهزؤون بناعلانية مبينين ان ما فعلوه بنا انما كان سخرة. وكان صاحب الفندق يقول ياحديث العهد تكفيك فاتحات قليلة كهذه لتشيب ويردد الكاهن قائلا: كاهن انا فتم تقام لك قداسات بدل هذا. ويصيح الطالب اللعين

قائلا: يا ابـن عمي! في المرة القادمة حك جلدك حين تعض لا بعد ذلك، اما نحن فتغاضينا عما كانوا يقولونه. والله يعلم كم كان خجلنا كبيرا.

وبين هذه وتلك وصلنا المدينة وحللنـا في احد الفنادق وامضينا النهار كله ـ اذ كنا قـد وصلنا الساعة التاسعة ـ في عد ثمن العشاء الفائت دون ان نتمكن من تقويم حساب ما انفق.

الفصل الخامس

في دخولنا قلعة هناريس ودفع ضريبة النامسنة وما لحقني من هزء لجدتي في المدرسة

وقبل ان بلغني الملل رده عادرنا الفندق الى الدار التي اكتريناها لنا وكانت واقعة حد ج ناب شنتياقب (1) مقام الطلاب حيث يسكن الكثير منهم في دار واحدة وان لم يكن في دارنا هذه سوى ثلاثة طلاب آخرين لا غير. وكان صاحبها من الذين يؤمنون بالله مجاملة فحسب او مكرا وخداعا وهؤلاء هم المعروفون بين العامة باسم الموريسكوس والمنتمون الى هذا الصنف كثيرون

---

(1) ناب شنتياقب ـ كان هذا الباب واقعا في شمالي المدينة قرب الكنيسة والشارع اللذين يحملان اليوم هذا الاسم

وكذلك ذوو الانوف الواسعة تشم كل رائحة ما
خلا رائحة سم الخنزير (!) اقول هذا مع اعترافي
بالنبل الذي يتصف به كبارهم وانهم لعدلون
وقد استقبلني صاحب الدار بوجه عابس ولا
استقباله العريان الاقدس وليس شيء أكان صنعه
هذا تجملا على احترامه أم من صنعه اذ ليس
من الشعوب [illegible] تكون رجل سوء من كان ذا
مال [illegible] فوضعنا [illegible] وتعدينا السرير وتفقه
[illegible] ونمنا [illegible] وحين اصبح الصباح اذا
مجمع [illegible] قد اقبلوا امام البوم يطالبون
[illegible] ضريبة [illegible] (؟) وقال هو يجهل
[illegible] فـ [illegible] يطالبون اما [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في ذلك العهد [illegible]

[illegible] من الطالب الجديد ضريبة

[illegible] ما طالبهم

[illegible]

فانسللت الى ذلك بين فراشين اتقاء لما قد يقع
ولم يبق خارجا سوى نصف رأسي كأني سلحفاة
وظلوا دقيقتين من الملابس فاعتلوا ما خلعوا
وبعد اخذوا يصيحون بأعلى اصواتهم صياح
[illegible] قائمين [illegible] الريق [illegible] في حصن
[illegible] المباريات الاقدمية [illegible]
[illegible] ناجر [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] بعض الفلسفة [illegible]
[illegible] اما انا [illegible]
[illegible]
[illegible] بما كانت [illegible]
[illegible] وبدأوا [illegible]
[illegible] كان [illegible]
في نفسي [illegible] ذلك لم [illegible]
او تسعة وبدأوا يضحكون فاحمرت وجنتاي! — !

سمح الله بذلك فيما بعد! ـ اذ امسك في الحين واحد منهم كان الى جانبي انفه بيديه وابتعد عني قائلا: من رائحة هذا العازار نرى انه يحتاج الى الى من يقيمه من الموت (1) فابتعد الجميع اذاك عني وسدوا انوفهم. فظننت حينئذ اني سانجو فسددت ايضا انفي بيدي، وقلت: ان حضراتكم لعلى حق: اجل، ان رائحته لنتنة فضحكوا كثيرا مما قلته وكانوا قد بلغوا حين ابتعدوا ما يقارب المائة وابتدأوا حينئذ يستجمعون ما في افواههم وحناجرهم ومحت من خلال السعال والاشداق تفتح وتغلق ان نفثات كثيرة تتهيأ للفتك بي. واثناء هذا تقدم طالب منتشاوى (2) مزكوم ورماني بنفثة كبيرة وقال متباهيا «اليك ما اصنع» اما انا فرأيت نفسي اذاك في مأزق حرج وقلت: والله اني س... ولكن غيثا من البصاق الغليظ سقط علي بشدة فحال بيني وبين تمام الجملة التي بدأتها.

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

(1) يريد بذلك انه نتن كالميت البالي

(2) اي اصله من مقاطعة المانتشا

وكان وجهي مغطى بالمعطف. وكنت في حالة من الياس بحيث كان الجميع يسددون سهام نفثاتهم نحوي وبالله كيف كانوا يصيبون المرمى. وهكذا اصبحت كالمغمور بالثلج من قمة رأسه الى اخمص قدميه. لكن احد الناكرين حين رآني منتصبا ورأى وجهي لم يحجب بشيء اسرع نحوي قائلا بغضب كبير: كلفي! لا تقبلوه. وبما أني كنت لا اعتقد من تصرفاتهم هذه بذنب قائلي لا محالة كشفت عن وجهي لاستطلع الخبر وإذا بذات الذي كان يصيح برميي بسبة بين عيني. فتأمل مبلغ غمي في هذه الحالة! ثم اخذت تلك الجماعة الجهنمية تصيح صباحا تقل علي. وقد استنتجت مما رددوه علي من معدتهم انهم ينتظرون قدوم طلاب جند لينشؤوا توفيرا لاجرة الاطباء وثمن الادوية. وبعد هذا كله ارادوا صفعي على قفاي. لكنهم لم يجدوا مجالا لوضع يديهم علي دون ان يذهبوا بنصف الزيت الذي على معطفي الاسود الذي ابيض بسبب ذنوبي وآثامي فتركوني وشاني وبقيت كصفحة

الشيخ مبللا بالبصاق فسرت الى داري وما اصبت في دخولها الا بعد جهد النفس. ومن حسن طالعي ان الوقت كان صباحا اذ لم اصطدم الا باثنين او ثلاثة من الغلمان الطيبي القلب دون شك لانهم اقتصروا على الهزء بي ثم مضوا في حال سبيلهم. فدخلت الدار وحين رآني الموريسكو اخذ يضحك ويأتي بحركات كمن يحاول البصق على فخفت من ان يفعله وقلت له: «بالله عليك ياصاح! لست انا بالمسيح المجلود (٤)» ويا ليتني لم افه بها لانه نفحني برطلين من الضربات على كتفي

---

6) Ecce-homo «هذا هو الرجل» هذه هي العبارة التي لفظها بيلاطوس البنطي امام اليهود بعد جلد المسيح. ويطلق الان هذا الاسم على صورة المسيح مجلودا وكذلك من نوع المجاز على رجل المخشم الوجه. وقد اخطأ المؤلف هنا استعمال هذا التعبير لان صاحب الفندق من اصل مسلم لا يهودي فلو كان يهوديا لكان من شان هذه الكلمة ان تثير غضبه

دالعبارات التي كانت بين يديه وبعد ان استلمت
هذا الخاوان صعدت الى الطابق الاعلى شبه كسيح
وقضيت برهة طويلة في البحث عن نقطة امسك
بها الجبه والمعطف واخيرا نزعته عني وعلقته على
المشجب وارتميت على الفراش وبعدئذ جاء سيدي
وبما انه وجدني نائما وكان يجهل الحادثة الكريهة
التي اصابتني فقد غضب واخذ يقفسني بسرعة الى
حد انه لو زاد على ذلك قفستين لاسنفقت اضلعي.
فقمت معربدا مسكبا فانتهرني سيدي وقد ازداد غضبه
قائلا: اهكذا تخدمني يا بابلوس؟ ام انها حياة
اخرى؟» اما انا فحين سمعت قوله «حياة اخرى»
ظننت انه الموت فقلت: اجل، ان حضرتك تشجعني
في عملي، انظر الى تلك الجبة وذلك المعطف اللذين
قاما مقام فوط لاكبر انوف سوهدت في مواكب
الاسبوع المقدس وما كدت اروي ... كلمات
حتى اخذ الدمع ينحدر من ... في ...
تحببي صدق قولي وبحث عن الجبة ...
... لي وقال: «افتح عينك يا بابلوس فان الامر

هنا الشديد وليس لك من بسهر عليك سوى نفسك، واخبرته بكل ما وقع لي فامرني بنزع ثيابي وبحملي الى مرقدي حيث كان يرقد اربعة خدام اخرين لمنزل الدار وهناك نمت. وعند الليل بعد أن تناولت غداء وعشاء طيبين وبفضل ما نمته شعرت بنفسي قويا كما لو انه لم يقع لي شيء البتة ولكن حين تبدأ النكبات بالسقوط على المرء يظهر انها لا نهاية لها فتسير متسلسلة بجر بعضها البعض فقد اقبل بقية الخدم ليرقدوا وبعد ان حيوني سألوني عن سبب ملازمتي الفراش وعما اذا كنت مريضا فقصصت عليهم قصتي. فأخذوا يرسمون على وجوههم اشارة الصليب كأن نفوسهم لا تضمر اي شر قائلين: ان شنيعة كهذه لا تقع حتى بين اللوثريين (7) انفسهم! آه كم من الشر في الناس! ويقول الآخر: ان عميد المدرسة هو المسؤول لانه لا يمنع حدا لهذه الامور، اتعرف الذين فعلوا هذه الفعلة؟ فاجبته ان لا وشكرتهم على

---

7) اتباع لوثر مؤسس البدعة البرتسطانطية

المعروف الذي كان يلوح انهم سيقومون به نحوي. وخلال هذه المسامرة فرغوا من نزع اثوابهم ورقدوا بعد ان اطفأوا الضوء ورقدت انا بدوري وقد خيل لي اني بين والدي واخوتي.

وحوالي الساعة الثامنة عشرة اذا باحدهم يقفز بصياحه قائلا: «آه انهم يقتلونني! اللصوص! اللصوص» وكانت تدوي على سريره اصوات وقع مقارع فرفعت رأسي وقلت: «ما هذا؟» وما لبث ان انكشف حتى كانت مقرعة غليظة ذات جدل تنهال على ظهري. فبدأت أشكي وحاولت النهوض وكان الآخر يشكي ايضا انما المقارع تنهال على وحدي. فرأيت اصيح قائلا: «بعدل الله» لكن المقارع كانت تنهال علي بسرعة الى حد انه لم يبق لي من وسيلة – اذ كنت رميت بالحف الى اسفل – سوى الاختباء تحت السرير. وهذا ما فعلته. وفي الحال اخذ الثلاثة الاخرون الذين كانوا نائمين يصيحون ايضا وبما ان المقارع كانت لم تزل تدوي ظننت ان واحدا غريبا عنا ضربنا جميعا. وبما ان هذا اللعين ظلت

الذي كان بجانبي الى سريري وبرز فوق الفراش ثم عضى البراز. وبعد ان عاد الى سريره انقطع دوى المقارع وقام الاربعة صائحين قائلين: «انها لخدعة كبيرة ويجب ان لا تمضي هكذا» اما انا فكنت لم ازل تحت السرير اشتكي ككلب شد الباب على ذنبه، منكمشا كالسلوقي الاشنج فتظاهر الاخرون بانهم يغلقون الباب وحينئذ خرجت من حيث كنت وصعدت الى سريري مستفسرا الباقين عما اذا كانوا قد اصيبوا باذى. فاذا بالجميع يشكون كمن اشرف على الموت.

فنمت وتغطيت ورقدت ثانية. وبما اني كنت انقلب في الفراش وانا نائم فقد وجدت نفسي حين استفقت وسخا من قدمي حتى وسط جسمي ونهض الجميع وبقيت انا نائما معتذرا عن اللباس بالمقارع التي نلناها ليلا. وما كنت لاتحرك من الجانب الذي ارقد عليه، وكان الخجل مستوليا علي بينما كنت افكر فيما اذا كنت ياترى قد اتيت بتلك الفعلة الشنيعة من جراء الخوف وسط

ذلك الاضطراب دون ان اشعر بالامر ام حيث كنت نائما. وملخص القول اني كنت بريئا متهما دون ان اعرف كيف ادفع التهمة عن نفسي.
ووصل الرفاق الى شاكين مداحين ليسألوني عن حالي فاجبتهم انها سيئة للغاية لانني تلقيت مقارع كثيرة وسألتهم عما يمكن ان يكون ذلك فقالوا:
لعمري انه لن يفلت من ايدينا لان الساحر سيعلمنا به. ولكن لندع هذا ونر هل احسست بجراح فانك تكثر الشكوى ومذ كادوا يقولون هذا حتى تقدموا لرفع اللحاف رغبة في فضحي. واثناء هذا دخل سيدي قائلا: امن الممكن يابلوس ان اعجز عن حملك على اطاعتي؟ انها الساعة الثامنة وانت لم تزل في الفراش قم قبح الله وجهك، فقص عليه البقية القصة كلها مدافعة عني وطلبوا منه ان يتركني انام. وكان احدهم يقول: واذا كنت حضرتك لا تصدقه فلنقم ونمسك باللحاف لنرفعه لكي كنت عاضا عليه بسناني لئلا يروا البراز. وحين رأوا ان لا نتيجة من انتهاج ذلك

السبيل صاح احدهم قائلا: يالله! يالها من رائحة كريهة ورد ضون ديغو الكلام نفسه لان ذلك كان حقا ثم اخذ الجميع يفتشون لعل في الغرفة ميتة ويقولون انه لا يمكن البقاء هنالك. وقال احدهم: ان هذا لحسن جدا لمن اراد الدرس وفتشوا الاسرة ورفعوا الفرش ليروا تحتها ثم قالوا «لا شك ان تحت سرير بابلوس شيئا ما. فلننقله الى احد اسرتنا ولنفتش تحته اما انا وقد شاهدت ان الصفقة خاسرة وانهم لا محالة مكتشفون امري، فتظاهرت بالصرع وقبضت على عيدان السرير مقلبا وجهي وحيث كانوا واقفين على الحقيقة بالغوا في نكايتي قائلين: يا للمسكين، فامسكني ضون ديغو باصبعي الوسطى واخيرا تمكن الخمسة معا من رفعي. وحين رفعوا الملحفة كادت الدار تميد من قهقهاتهم اذ وقعت ابصارهم على شيء جديد لم يكن فرخا فحسب بل حمامة كبيرة (8)

(8 Palomin فرخ حمام. وتطلق مجازا على لطخة من البراز في اسفل القميص وبهذا المعنى

وكان الماكرون يتظاهرون بالتأسف على قائلين: يا له مسكين. اما انا فتظاهرت بالغما، فاشاروا على مولاي بان يكثر من جذب اصبعي الوسطى ومن كثرة ما جذب معتقدا انه ينفعني بذلك فك لي تلك الاصبع. وحاول البقية ان ينيلوني بعض المقارع على فخذي ويقولون: لا شك ان المسكين قد شعر الآن حين اصابه الصرع والله يعلم ما كان يجول اذاك في نفسي مما لحقني من حجز ومن فك اصبعي ورؤيتي ذاتي على وشك ان اضرب بالسوط. واخيرا تظاهرت بالعودة الى داتي خوفا من ان اضرب اذ كانت الامراس قد وضعت فوق فخذي. وبما انهم كانوا يتصرفون عن خبث فبالرغم عن اسراعي في التظاهر بالعودة الى ذاتي تركوا لي في كل فخذ علامة قدر اصبعين، ثم تركوني قائلين: بالله يا لك من هزيل. وكنت أبكي من غضب فيقولون متعمدين: لا داعي للبكاء

استعملها المؤلف وقابلها بكلمة حمامة Paloma دلالة على كثرة اللطخات وكبرها

لان ما نفعله انما هو من اجل صحتك لا عقوبة على تبرزك ثم وضعوني في السرير بعد ان غسلوني وذهبوا.

وحين خلوت بنفسي ما برحت أفكر في كيف ان ما وقع لي في القلعة خلال يوم واحد يربو على كل ما وقع لي عند كابرا. وعند الظهر ارتديت ملابسي ونظفت الجبة قدر طاقتي - اذ غسلتها كما تغسل الخرق - وانتظرت سيدي الذي ما كاد يصل حتى استفسرني عن حالي. واكل جميع من في الدار واكلت انا ايضا وان يكن بلا شهية، ثم اجتمعنا لنتحدث في الرواق وبعد ان تهكم الخدم الاخرون علي افصحوا اخيرا عن الحيلة التي دبروها لي ليلا. فضحك الجميع وازددت انا خجلا وقلت في نفسي «حذار حذار يا بابلوس» وعزمت اذاك على انتهاج حياة جديدة ومذاك تصاحبنا وعشنا كل من كنا نسكن تلك الدار كالاخوة. ولم يزعجنى احد بعد ذلك اليوم لا في المدرسة ولا في صحون الديار.

الفصل السادس

في فظائع الوصيفة وما اتيت به من كياسة

يقول المثل السائد وهو في القول مصيب «افعل حسبما ترى» ولشدة ما تاملت في هذا المثل عزمت على ان اكون ماكرا مع الماكرين وان اكون امكرهم اذا امكن الامر. ولا ادري اذا كنت حققت رغبتي لكني اؤكد لحضرتك اني بذلت جهدي في ذلك

واول ما فعلته اني حكمت بالاعدام على كل الخنازير التي تدخل دارنا وعلى جميع ديوك ربة الدار التي تجتاز من حوشها الى غرفتي فحدث ذات يوم ان دخل خنزيران من ازهى ما شاهدت في حياتي وكنت اذاك مع بقية الخدم وسمعتهما ينخران فقلت لاحدهم «امض وانظر من ينخر في دارنا» فعاد قائلا انهما خنوصان فما سمعت هذا

حتى استولى علي الغضب وبادرت اليهما قائلا ان المجيء لدار الغير لمنتهى المكر والقحة واعقبت كلامي بطعنة خنجر في صدر كل منهما بينما اوصدنا الباب، ثم اجهزنا عليهما فقعوا. ولئلا تسمع الضجة التي كانا يحدثانها جعلنا نرفع اصواتنا بالصياح كما لو كنا نغني. وهكذا قضينا نحبهما بين ايدينا ثم ادرجنا الكرشين وجمعنا الدم وشيئا اخر فيلا فوق شيء من العش في الحظيرة. بحيث انه حين قال استاذنا كان كل شيء منهيا وان لم يكن على عادة ما يرام. ما عدا الكرشين فاننا لم نفرغ من تحويلهما عصيدا وما ذلك لعدم الاسراع لدينا والحق يقال قد تركنا فيهما دفعا للباخس نصف ما كان في داخلهما

ثم اطلع ضون ديغو والقهرمان على الامر وحنقا علي حنقا شديدا اجبر فيه النازلين في الدار الذين كانوا لا يتمالكون من الضحك ان يتصدوا للدفاع عني. وكان ضون ديغو يسائلني عما اقوله فيما اذا اتهمت وقبضت علي يد العدالة. فاجبته

بانى اسنتجد بالجوع الذي هو حرم الطلاب وأن لم بجدني ذلك نفعا اقل: بما انهما دخلا الدار دون ان يقرعا الباب كمن يدخل داره ظننت انهما لنا فضحك الجميع من الاعتذار وقال ضون ديغو .بالله عليك يابابلوس! كيف انك تحسن التخلق بثوب من حولك· فقد كان مما يستلفت النظر مشاهدة مولاي على غاية ما من الهدوء والتدين ومشاهدتي انا على غاية من الشطارة اد كنا على طرفي نقيض احدنا يبالغ في الفضيلة والاخر في الرذيلة.

اما الوصيفة فكانت لاتتمالك من الفرح لاني كنت وإياها يدا واحدة فائتمرنا ببت المؤونة وكنت انا وكيل الخرج يهوذا (1) ومنذئذ ورثت في هذه المهنة شغفا بالسل مما اشتريه. فاللحم لم يكن يتبع بين يدي الوصيفة الترتيب المياني لانه كان يسير دائما من اكثر الى اقل· ومتى امكنها ان

---

(1) اشارة الى يهوذا الاسخريوطي الذي باع السيد المسيح

نستبدل بالضان لحم ماعز او نعجة لم تحجم عن ذلك واذا وضعت في المرق عظاما لم يدخله شيء من الهبر وهكذا كانت تعد قدرا من الطعام كانها مسلولة من شدة الهزال. ومرقة لو جمدت لامكن ان نصنع منها سموط من خرز. وتمييزا للعيدين كانت تضيف الى القدر لتسنها بعض اطراف من شحم الغنم، وكانت تقول لمولاي بمحضري: «الحق يقال انه لا مثيل لبابلوس في الخدمة لو لم يكن شاطرا» فلتحتفظ به حضرتك اذ يمكن غض الطرف عن شطارته مقابل امانته فانه ياتي بخير ما في السوق فاثني على ذلك مثلما قالت عني. وهكذا كانت الدار واقعة في احابيل خديعتنا. فاذا اشترينا زيتا او صابونا او شحم خنزير بالجملة خبأنا النصف، وحين يظهر لنا الامر مناسبا نقول انا او الوصيفة: «رويدا! رويدا في النفقة. فوالحق ان واظبتم على الاسراف فان خزينة الملك لا تكفيكم، وها قد نفد الصابون او الزيت. احال! لقد نفد سريعا. ولكن فلتامر حضرتك

بشراء كمية جديدة وانا الكفيلة بانها ستدوم اكثر بكثير من السابقة' اعطوا مالا لبابلوس، فيعطوني المال ونبيع حينئذ النصف الذي كان مخبئا ونصف ما نشتريه. وهكذا في كل شيء. واذا حصل اني اشتريت مرة شيئا من السوق بثمنه الحقيقي فكنا نتنازع عن قصد انا والوصيفة فتقول هي غاضبة:

'لا تقل لي يا بابلوس ان هذه السلطة تساوي درهمين، فاتباكى واصيح واذهب الى مولاي لاقدم له شكواي ملحا عليه في ان يرسل القهرمان الى السوق ليتأكد من الامر كي تسكت الوصيفة التي كانت تصر على رأيها عن عمد. فيذهب القهرمان ويسأل عن الثمن ويعرفه. وبعد' نضمن ان استسلم رب البيت والقهرمان اللذين كانا يثنيان على تصرفاتي من جهة وعلى غيرة الوصيفة من جهة اخرى. فيقول لها ضون دييغو مغتبطا بي: 'لو ان بابلوس يجري في ميدان الفضيلة كما يجري في ميدان الامانة! هذا هو الاخلاص بعينه فما تقولين فيه؟'

وهكذا ظللنا نمصها كالعلق. واني اراهن على ان فرانصك نرتعد من عظم ما نلغت في آخر السنة كمية المال المنفق ولاشك انه كان كثيرا. لكنه لم يكن ثمة موجب للارجاع لان الوصيفة كانت نعترف وتتناول كل ثمانية ايام ومع هذا لم ار منها قط رغبة في ارجاع شيء ولا توبة على ما نفعله بالرغم عن قداسها كما اخبرت اذ كانت تحمل في عنقها سحة في منتهى الكبر بحيث ان حمل حزمة من الحطب كان ارخص من حملها. وكانت تتدلى منها رزم من الصور والصلبان والخرزات الكبيرة وتقول انها تصلي بجميعها من اجل المحسنين اليها وتعد نيفا ومائة قديس شفعاء لها. وفي الحقيقة كانت بحاجة الى كل هذه المساعدات لتعوض عما ترتكبه من الخطايا. وكانت ترقد في غرفة فوق غرفة سيدي وتردد من الصلوات اكثر مما يردده الاعمى. فتبدأ بصلاة «القاضي العادل» وتنتهي بعلبك السلام اينها الملكة» وتردد هذه الصلوات باللغة اللاتينية عن قصد متظاهرة بالبراءة مما

يحملنا جميعا على ان نستلقي على ظهورنا من شدة الضحك وكانت بارعة في امور اخرى فتستهوي الارادات وتستميل الاذواق وذلك يوازي ان يقال عنها انها قوادة لكنها كانت تعتذر امامي قائلة ان هذا الفن جاءها عن سبيل الوراثة كما تلقى ملك فرنسا نعمة شفاء داء الخنازير (2)

وقد تظن حضرتك اننا كنا دائما على اتفاق تام ولكن من يجهل انه اذا كان صديقان جشعان يعيشان معا لا بد ان يحاول كل منهما غش الاخر؟ فحدث ان الوصيفة كانت تربي دجاجا في حوش الدار وكانت لي رغبة كبيرة في اكل واحدة منها وكان عندها نحو اثني عشر او ثلاثة عشر ديكا كبيرا وذات يوم بينما كانت تطعمها اخذت تناديها مرارا بيو بيو (3) فما كدت اسمعها

---

(2) كان من جملة الاساطير الرائجة اذ ذاك ان ملوك فرنسا يتمتعون بنعمة شفاء داء غدد العنق المسماة بالخنازير.

(3) لفظة تستعمل لمناداة الدجاج في اسبانيا

تنادي بهذه الكلمات حتى اخذت اصيح قائلا: يالله 'بتها الوصيفة! يا لبتك قتلت شخصا او سرقت خزانة الملك ـ وكلاهما مما اقدر على السكوت عنه ـ ولا فعلت ما فعلته وهو مما لا يجوز لى ان اسكت عنه؟ يا لتعسي وتعسك!» وحين رأتني أستعيذ واستلبذ اضطربت بعض الشيء وقالت: «... فعلت يا بانلوس؟ ان كنت تسحر بي فالله ... لا ترد تتمنى»

ـ كيف اسحر؟ اف لهذا الامر! اذ لا يمكنني ... ان اتلم بالقضية محكمة التفتيش و... حرمت

فصاحت قائلة: «محكمة التفتيش؟» واخذت ترتجف واضافت بقولها: «هل خالفت الايمان بشيء؟» فقلت: «هذا شر ما في القضية اياك والهزء بقضاة التفتيش بل اعترفي بجهلك وقولي انك ترجعين عما فهت به ولكن لا تنكري اللعنة والعصبة» ومن شدة خوفها قالت لي: «واذا رجعت يابانلوس عما فهت به اعاقبوني؟» قلت «لا! وانما يصفحون عنك» فقالت: «اني ارجع عما قلته ولكن قل لي

انت الآن عن اي شيء لاني، ورحمة موتاي، لا اعرف اني قلت شيئا. قلت: «امن الممكن الا تشعري باي شيء؟ فوالله لا ادري كيف اقوله لك لان المعصية جسيمة الى حد انها تملأ قلبي جبنا الا تذكرين انك ناديت الارواح بقولك «بيو! بيو» مع ان «بيو» اسم للباباوات نواب الله ورؤساء الكنيسة؟ فابلغي الآن هذه المعصية»

فحدثت كلمتي فيها فالتفت ... يا بامو ... قد ... الكر ... ... كانت تلك الكلمات قد صدرت عن مكر ... ية! اني ارجع عنها وبالله عليك هلا ... ... طريق تعذرك عن السعادة ... لاني ان رأيت نفسي امام محكمة التفتيش مت هلعا قلت: «ان اقسمت امام مذبح مقدس انك لم تضمري مكرا حين لفظت تلك الكلمات فانه يمكنني اذ ذاك ان احلي عن السكانه ولكنه من اللازم ان تعطيني هذين الذئبكين اللذين ... حين ناديهما باسم الاحبار المقدس لاذهب بهما الى احد ضباط محكمة التفتيش

فيحرقهما لانهما اصبحا محكومين بالهلاك. وبعد كنه عليك ان تتسمى ان لا تعوتي قط الى ارتكاب هذه المعصيه»

فقالت وقد تمالكها الفرح: اليكهما الان يا بابلوس وعدا اقسم اليمين» فقلت لازيدها اطمئنانا -ان شرا ما في الامر يا سمرباديا ـ حيث كان هذا اسمها ـ اني اعرض نفسي للخطر. اذ سيقول لي ضابط محكمة التفتيش اني انا المخطيء وقد يلحقني منه جور بسبب ذلك. فاذهبي بهما انت لانى وحقى خائف على نفسي» وحين سمعت مني هذا الجواب قالت: «بالله عليك يابابلوس: هلا اشفقت علي وذهبت بهما اذ لن يصيبك ادنى ضرر» فتركتها تكثر لي من التوسل واخيرا ـ وهذا ما كنت اريده ـ صممت النية وحملت الديكين واخبأتهما في غرفتي. ثم تظاهرت بالخروج وبعد ذلك عدت قائلا: لقد تم كل شيء على احسن مما كنت اعتقد، فالضابط كان يريد ان يتبعني ليرى المرأة لكني خدعته واقنعته، فاخذت تضمني

الى صدرها مكثرة من معانقتي واعطتني ديكا آخر فذهبت به الى حيث تركت رفيقيه ثم حملت الثلاثة الى صانع المعجنات فطبخها لنا واكلتها مع بقية الخدم. وبلغ خبر الحبلة مسامع الوصيفة وضون دييغو. وهلل لها جميع من في الدار تهليلا كبيرا واخذ الحزن من الوصيفة كل مأخذ فكادت ان يقضي عليها. ومن شدة حنقها كانت من افشائي سنى في الشياء على قاب قوسين ولو لم تكن مجبرة هي ايضا على السكوت لافشت بالامر.

• • •

حين رأيت العلاقات قد ساءت بيني وبين الوصيفة بحثت عن وسائل جديدة للانبساط. فوقعت على ما كان الطلاب يسمونه غزوا او احتلاسا. وفي هذا المضمار وقعت لي امور مضحكة.

ففي احدى الليالي بينما كنت سائرا حوالى الساعة التاسعة ـ وفي تلك الساعة يقل التجول ـ في الشارع الاكبر اذا بي اشاهد دكانا لبيع الحلوى وفي داخله محمل من الزبيب فوق منضدة فاسرعت في السير وتقدمت وامسكته ثم عدوت

فعدا ورائي بائع الحلوى وبعض الخدام والجيران'
وبما اني كنت احمل القفة تيقنت انهم سيلحقون
بي رغما عن اني كنت اتقدمهم اذاك. فحين درت
حول احدى الزوايا جلست فوقها ولففت رجلي
بالمعطف سريعا واخذت اقول ورجلي في يدي:
«آه غفر الله له. لقد داسني» فسمعوا مني هذا
القول: وحين وصلوا الي اخذت اقول: «استحلفكم
بهذه السيدة الرفيعة، واضيف اليها العبارات المألوفة
الآتية: «في ساعة نحس وبسبب هوا? فاسد (14)» اما
هم فاقبلوا بزعقون وقالوا لي: «هل مر من
هنا رجل ما ايها الاخ؟» فقلت: «نعم لقد تقدمكم
وقد داسني هنا حين مر. والحمد لله»
فما كادوا يسمعون جوابي حتى استأنفوا
العدو وابتعدوا وبقيت وحدي فحملت القفة الى

---

14 هذه عبارات كان المتسولون برددونها
في ذلك العهد وفحواها انهم اصيبوا بما اصيبوا
به من الكوارث في ساعة نحس وبسبب هوى
فاسد.

الدار وقصصت اللعبة التى لعبتها ولم يريدوا تصديقي مما حملنى على دعوتهم الى الليلة التالية ليروني استلب الصناديق، فجاءوا وحين ابصروا ان الصناديق داخل الحانوت وانى لا اقوى على اخذها بيدي اعتبروا استيلائى عليها من رابع المستحيلات وخصوصا ان بائع الحلوى - بعد ان جرى امس ما جرى لصاحب الزبيب - كان يقظا فجئت وحين اصبحت على اثنتي عشرة خطوة من الدكان قبضت السيف الذي كان عبارة عن حبل عنق وسميت في رأسي ولا شعوري له وجربت أعدو فدخلت الدكان قائلا: دمت وهززت السيف امام بائع الحلوى. فارتمى طالبا الاعتراف بينما كنت اغرز السيف في احد الصناديق فاخترقه وبواسطته اخرجته وذهبت به. فتعجبوا كثيرا حين شاهدوا الحيلة وقهقهوا طويلا من ان بائع الحلوى كان يحسب اني مقصود قائلا انه دون شك قد حسب ان فاعل هذه الفعلة رجل وقع له معه خصام من قبل. لكنه حين التفت - وكانت الصناديق التي

حول الصندوق الذي ذهبت به قد تبعثرت حين اخرجته ـ ادرك الحيلة فاخذ يرسم اشارة الصليب ويكرر رسمها مرارا ومرارا. واعترف اني لم التذ قط بشيء كهذا. وكان الرفاق يقولون اني اقدر وحلي على تمويز البيت من جني غزواتي وهذا في لغة الشطار (5) مرادف للسرقة.

وحيث كنت فتيا ورأيتهم يثنون على مهارتي في النجاة من هذه المكايد دفعني ذلك على مواصلتها ففي كل يوم كنت ارد وحول ازري بعض جرار استلبتها من الراهبات طالبا منهن ان يسقينني وقد حملهن ذلك على ان لا يعطين شيئا دون ضمانة سابقة. ووعدت ضون دييغو وجميع الرفاق بان اسلب الحراس الليليين انفسهم سيوفهم ذات ليلة. فعينت الليلة وذهبنا معا وانا في الطليعة.

فحين لحنا عن بعد رئيس الشرطة اسرعت

---

5) كان الشطار يضعون اسماء خاصة لجميع الاشياء مختلفة عن اسمائها المعروفة، فتألفت لديهم لغة خاصة يتفاهمون ويتعارفون بها.

اليه مضطربا بصحبة واحد من خدام الدار وصحت قائلا: «ارجال العدالة؟» فاجابوا بقولهم: «نعم» قلت: «اهو صاحب الشرطة؟» قالوا «نعم» فركعت على ركبتي وقلت: «يامولاي: بين يديك دوائي وانتقامي وخير كبير للرعية. واذا كنت راغبا في القبض على مجرم كبير فاسمح لي بان اسمعك كلمتين على حدة» فمال الى ناحية بينما كان الجلاوزة يجردون سيوفهم والمأمورون يضعون ايديهم على العصي. وقلت له: «يا سيدي: لقد جئت من اشبيلية متعقبا ستة رجال من كبار المجرمين كلهم لصوص وقتلة وبينهم واحد قتل امي واخي ليسرقهما وهذه الجريمة ثابتة عليه، وهؤلاء اللصوص قدموا مرافقين حسبما سمعته يقول، جاسوسة فرنسية، ومما سمعته منهم يلوح لي انها جاءت ـ وهنا خفضت صوتي ـ من جانب انطونيو بيريث (6) فعند ما سمع صاحب

---

6) كان هذا كاتم اسرار الملك فيليب الثاني ثم غضب عليه فالتجأ الى فرنسا سنة 1593 وفيها توفي سنة 1611

الشرطة اسم انطونيو بيريث قفز قفزة في الهواء
وقال: «واين هم الان؟» قلت: «في الفندق. واني
ارجو حضرتك ان لا تتأخر» وارواح امي واخوتي
ستكافئك بصلواتها، والملك سيكافئك ايضا» قال:
الى الامام ولا نتاخر، اتبعوني كلكم! اعطوني ترسا
قلت بعد ان ملت به ناحية من جديد: «ياسيدي
ان عملت هذا فاتت هناك لامحالة، وانما المناسب
هو ان يدخل الجميع واحدا واحدا بلا سيوف لان
اللصوص في الغرف ومعهم مسدسات صغيرة، فاذا
رأوا اناسا يدخلون حاملين سيوفا، وهم يعرفون
انه لا يحملها سوى رجال العدالة اطلقوا مسدساتهم
فالاوفق حمل الخناجر ومبادرتهم من الوراء والقاء
القبض عليهم لانا كثيرون فانطلت الحيلة على
صاحب الشرطة بسبب طمعه في القاء القبض عليهم
واثناء هذا بلغنا الى مقربة من الفندق. فنبهت
صاحب الشرطة فامر بنزع السيوف واخفائها تحت
الاعشاب في حقل يكاد يكون محاذيا للدار فوضعوها
وساروا في طريقهم. وكنت انا قد اشرت على

الخادم الذي رافقني بان يستولي على السيوف حالا حين يتركونها ويذهب بها الى الدار. ففعل حسبما اشرت عليه وحين دخل الجميع الفندق بقيت في المؤخرة وبما انهم دخلوا ممتزجين باناس آخرين كانوا داخلين ايضا تسللت الى زاوية الشارع وانصببت منها في زقاق ينتهي بالقرب من «لابيطوريا» عاديا كالغزال.

اما هم فدخلوا ولما يجدوا احدا اذ لم يكن هنالك سوى طلاب وشطار - وكلاهما واحد - اخذوا يبحثون عني ولم يعثروا علي فداخلهم الريب من أمري وذهبوا الى حيث تركوا سيوفهم فلم يجدوها. ومن ذا الذي يقص ما قام به صاحب الشرطة تلك الليلة من المراجعات لدى العميد؟ فقد دخلا جميع المنازل وكشفا عن الاسرة وبلغا دارنا اما انا فلكي لا يعرفونني كنت مرتميا على السرير وقد لففت منديلا حول رأسي وحملت شمعة باحدى يدي وصليبا بالاخرى ووقف الى جانبي احد الرفاق متزييا بزي كاهن يساعدني

لاتقبل الموت بينما كان الاخرون يصلون مرددين الطلبات. فوصل العميد وصاحب الشرطة. وما ان رأوا ذلك المشهد حتى غادروا الغرفة دون ان يخطر ببالهم انه من الممكن ان تكون اسلحة الحراس فيها. ولم ينقبوا البتة. وانما اقتصر العميد على تقدمة صلاة قصيرة من التي تقدم عن الموتى لراحة نفسي، وسأل الحاضرين عما اذا كنت قد انقطعت عن الكلام. فأجابوه بالايجاب، وخرجا يتلمظان غيظا لعدم وقوعهما على اي اثر والعميد يقسم ان يسلم المذنب متى عثر عليه الى يد العدالة، وصاحب الشرطة يغلظ الايمان بانه سيعلقه على اعواد المشنقة ولو كان من ابناء الاشراف.

وبعد ذلك قمت من الفراش. وما زال الناس في القبعة يتذكرون هذه الحيلة حتى اليوم (7)

ولئلا اطيل الكلام اضرب صفحا عن وصف

---

7) يقولو مؤلفو «محكمة الانتقام العادل» (ص 62) «من المحتمل ان تكون هذه الحادثة قد جرت حقيقة وان يكون كيبيدو نفسه بطلها»

كيف اني انخذت سوق البلدة جبلا فكنت اغذي مدخنة الدار طيلة السنة من صناديق الجزاريـن والصاغة ومناضد البقالات ـ اذ لم انس قط مـا اصبت به من اهانة يوم انتخبت ملك الديوك،(8)ـ كما اني اتجاوز عن الضريبة التى كنت اتقاضاها من مزارع الفول والـكروم والبساتيـن المجـاورة فبهذه الامور وغيرها اخذ نجمي يعلو نجوم العقبة في سماء الشطارة والحيلة. وكان الاسياد يحمونني ويشطونني وقلما يتركوني في خدمة ضون دبيغو الذى لم احد قط عن احترامه لما كان يكنه لي من الحب الشديد.

---

8) انظر الفصل الثاني

الفصل السابع

في رحلة ضون ديغو واستخباري بوفاة والدي وما عزمت عليه في شؤوني للمستقبل

وفي هذه المدة تلقى ضون دييغو من والده رسالة طيها رسالة اخرى بعث بها الي احد اقاربي واسمه الونصو رامبلون. وهو رجل متصف بكل فضل ومعروف في شقوبية لعلاقته بالعدالة، اذ ان جميع الاحكام التى نفذت هنالك منذ اربع سنوات كان هو منفذها. اجل! لقد كان جلادا ولكنه كان نسرا في هذه المهنة، وان رؤيته وهو يقوم بها كان لما يدفع المرء الى تمني الموت شنقا وهذا نص الرسالة التى بعث بها الي من شقوبية الى القلعة:

رسالة

«ولدي بابلوس ـ اذ كان يدعوني ولده

لشدة حبه لي ـ ان المشاغل الكبيرة في هذه المدينة حيث استعملني صاحب الجلالة حالت دون قيامي بهذا الامر لانه ان كان في خدمة الملك من شر فهو كثرة العمل وان كان لنا عوض عن ذلك في التشرف بخدمته. وانه ليؤلمني ان اوافيك باخبار غير سارة، فوالدك توفي منذ ثمانية ايام وقد ابدى عند وفاته من الشجاعة ما لم يبده حتى اليوم رجل آخر عند ملاقاة الحمام، اقول هذا بلسان من رفعه على الاعواد. فقد امتطى الاتان دون ان يدخل رجله في الركاب وارتدى قميص الاعدام فكانت كانها فصلت له. ولم يكن كل من رآه على هذه الهيئة مسبوقا بالصلبان الا ليعتقد بانه سائر الى المشنقة. وكان يتقدم بلا تصنع، ملتفتا الى النوافذ محييا بأدب جميع من اهملوا اشغالهم ليشاهدوه. واصلح شاربيه مرتين، وكان يامر المرشدين بان ياخذوا قسطا من الراحة بينما يغدق الثناء على ما يفوهون به من كلام حسن وجميل. واخيرا بلغ المشنقة، ووطأت احدى رجليه درجها. ولم يصعده

زاحفا ولا متماهلا. واذ رأى احدى المراقي منلفة التفت نحو مامور العدالة وقال له ان من الواجب اصلاح تلك المرقاة لشخص آخر لان الجميع لا يملكون رباطة جأشه. وان قلمي لعاجز عن وصف الاستحسان الذي قوبلت به هذه الملاحظة من جانب الجميع. ثم جلس فوق وازاح الى الوراء تجعدات الملابس وتناول حبل المشنقة واداره حول عنقه وحين رأى الراهب يحاول ان يعظه التفت اليه قائلا: ايها الاب! اني اعتبر العظة قد القيت فهات شيئا من فعل الايمان ولنكمل سريعا لاني لا اود ان يقال اني مسهب وهكذا كان. واوصاني ان اضع له الكمة من جانب وان امسح لعابه. وهكذا فعلت. فسقط دون ان تنقبض رجله او باتي بحركة وبقي محفوفا بوقار لا يرجى وراءه وقار. فقطعته اربعا (1) وجعلت الطرق له لحدا والله يعلم كم

---

(1) كان من جملة العادات القديمة ان تقطع جثة المجرم بعد قتله اربع قطع وتعرض كل منها في احدى الامكنة العمومية.

يعز علي ان اراه غنيمة باردة تنتهشها الغربان لكن في ظني ان صانعى المعجنات في هذه الدنيا سيعزوننا بايوائهم اياه في المعجنات التي تباع باربعة دراهم الواحدة (2)

اما من حيث والدتك فانها وان تكن ما زالت قيد الحياة فالكلام عنها قد يكاد يكون شبيها بما سبق: وذلك انه مودعة في سجن محكمة المفتش في طليطلة لانها كانت تنبش الموتى دون ان تكون نمامة. ويقال انها كانت تقبل كل ليلة فحمة في العين الفاقدة انسانها. ووجد في دارها من السيقان والاذرع والرؤوس ما لا يوجد في كنيسة عجائبية واقل ما كانت تقوم به رتق

---

2) اشارة الى اشاعة رائجة اذاك مفادها ان بعض صانعي المعجنات كانوا ينبشون لحوم الموتى ويدخلونها في مصنوعاتهم وقد وردت هذه الاشاعة في عدة مؤلفات من ذلك العهد لكن البحث التاريخي اثبت انها لا تستند على شيء من الصحة

البكارة واعادة العفاف الى العذارى. ويقال انها اشتركت في الطواف الذي اقيم يوم عيد الثالوث الاقدس لاربعمائة من المحكوم عليهم بالموت واني أتالم لما يلحقنا بسبب ذلك من العار جميعا وانا بنوع خاص لاني بعد كل شيء من موظفي الملك وهذه القربى لما يشينني.

يا بني! ان والديك قد خلفا هنا مالا مخبأ قد يقارب الاربعمائة دكة. وانما انا خالك وكل ما لي سائر الى يدك حتما فبوسعك اذاً ان تاتي الي وبما تعرفه من اللغة اللاتينية والخطابة يمكنك ان تصبح بارعا في فن الجلادة اجنبي حالا حفظك الله الخ...

ليس بوسعي ان انكر اني اسفت جدا لهذا العار الجديد لكني فرحت نوعا ما. اذ ان من مفاعيل عيوب الاباء انها تسلي الابناء في مصائبهم مهما عظمت. فاسرعت راكضا صوب ضون ديغو وكان يقرأ رسالة ابيه وفيها يامره بالرجوع وبالا يستصحبني معه!! كان قد بلغه من حالى وتصرفاتي

فاطلعني على ما امره به والده وقال لي انه يؤلمه ان يتركني وان كان يؤلمني في الواقع اكثر منه واضاف قائلا انه يدبر لي البقاء في خدمة صديق له من النبلاء فضحكت من كلامه وقلت: يا سيدي لقد اصبحت شخصا آخر كما ان افكاري قد تبدلت ايضا. وها انذا صرت اتطلع الى العلى ويهمني ان ازداد سطوة ومقدرة. لانني ان كنت املك حتى الساعة حجرا في الحلقة (3) ككل واحد عن هي فيها الان واندي. الخ

واخبرته كيف فارق الحياة ابيا شريفا، وكيف

---

(3) كانت العادة ان يجتمع الناس للحديث فيؤلفون (حلقة) يجلس فيها كل على حجر. وكان لكل واحد من ذوي المكانة حجر خاص لا يجلس عليه احد فاصبح القول عن واحد ان له حجرا خاصا في الحلقة مرادفاً للقول بانه ذو مكانة واعتبار.

(4) انى المؤلف هنا يتلاعب في كلمة حلقة، فالمقصود بها ثانيا المشنقة

قطعوه رباعا وكيف كتب لي خالي الجلاد عن هذا وعن حبس والدتي. وقد امكنني ان اكشف عن نفسي امامه دون حياء لانه يعرفني حق المعرفة. فتاسف كثيرا وسألني عما افكر ان اصنع فاعلمته بما عزمت عليه. وفي اليوم الثاني توجه ضون دييغو الى شقوبية والالم يحز نفسه وبقيت انا في الدار مخفيا مصيبتي. واحرقت الرسالة لئلا تضيع فتقع بين ايدي شخص آخر ويطلع على ما فيها. واخذت اعد العدة للسفر الى شقوبية بقصد الاستيلاء على اموالي والتعرف على اقاربي كي ابتعد عنهم.

الفصل الثامن

في الكلام عن الطريق بين القلعة وشقوبية وما جرى لي فيه حتى ربخاس (1) حيث بت تلك الليلة

وجاء يوم انفصالي عن خير حياة ارى نفسي فصبتها. والله تعليم كم آلمني ترك هذا العدد الوافر من الاصدقاء والمعجبين بي. فبعت سرا للسفر كل ما كنت املكه ومن ثمنه وبفضل بعض الاكاذيب جمعت ما يقرب من ستمائة بلبون. ثم اكتريت بغلة وغادرت المثوى الذي لم يكن لي ان احرج منه سوى ظلي. من لي بمخبر عن غم الاسكاف تدينه عني وتاوهات الوصيفة على اجرتها وصياح رب الدار على الكراء؟ فالواحد كان يقول: ...

---

(1) ربخاس Rejas قرية من مقاطعة صوريا

كانت نفسي تحدثني بهذا دائما. ويقول الاخر:
«اجل! عن حق كانوا يقولون لي انه مخادع»
وبالاختصار خرجت محفوفا بعطف البلدة واحترامها
الى حد اني تركت بغيابي نصف اهلها يبكون
والنصف الاخر يضحكون ممن يبكون.
وبينما كنت اقطع الطريق متاملا في هذه
الامور اذا بي التقي بعد مجاوزتي طوروتي (2)
برجل يمتطي حصانا يخاطب نفسه ويمشي مسرعا
وهو غارق في بحر احلامه بحيث لم يرني مع انى
كنت قد وصلت الى جانبه فبادلته التحية وسالته
الى اين. وبعد ان اجبنا كل على سؤال الاخر
اخذنا نبحث فيما اذا كان الترك مزمعين على
الزحف وفي قوات الملك واخذ يشرح لي كيف
يمكن احتلال الاراضي المقدسة وكيف ان الجزائر
واقعة بين ايدينا لا محالة. ففهمت من خلال حديثه

---

(2) طوروتي Torote جدول ينبع في مقاطعة
وادي الحجارة ويصب في نهر هارس بين القلعة
وطوربخون

انه مصاب بوسواس الاصلاح العمومي والحكومي(3)

وواصلنا هذا الحديث المالوف بين الشطار متنقلين من موضوع الى آخر حتى انتهى بنا الى الكلام عن فلاندبس، وهنا شرع صديقي بتنهد ويقول: ان هذه الولايات تكلفني اكثر مما تكشف الملك حيث قد مرت علي اربع عشرة سنة وانا اطوف بمشروع من شانه لو لم يكن مستحيلا ان يضع حدا فاصلا لكل هذه المشاكل، فقلت: واي امر هو عندك فيه ما تذكر من نفع كبير لكنه مستحيل وغير ممكن التحقيق؟. فرد علي بقوله. من قال لك انه غير ممكن التحقيق؟ اجل انه يمكن تحقيقه. اما كونه مستحيلا فذاك امر آخر ولولا رغبتي في ان لا اؤملك لاخبرتك به، غير انه

---

3) كانت الفوضى في الشؤون العمومية آنذاك سببا لظهور عدد كبير من المؤلفات التي يرمي واضعوها الى اهداء الملك الى سبل الاصلاح فكثرت من جهة اخرى التلميحات الهجائية الى هؤلاء المصلحين.

سيعرف فيما بعد لانى مصمم الان على طبعه مع جملة مشاريع اخرى بينها واحد اطلع فيه الملك على وسيلة لاحتلال مدينة اوسطند (4) من طريقين، فرجوته ان يخبرني بهما. فاخرج من جيبه رقعة رسم عليها حصن الاعداء وحصننا وقال: انك ترى ان الصعوبة كلها ليست الا في هذه القطعة من البحر، فانا آمر بامتصاص ما فيها من الماء بالاسفنج فيزول ذلك الفاصل فما سمعت هذا الهذيان حتى بدرت منى قهقهة عالية فنفرس في قائلا: «لم ادل بهذا الامر لاحد الا ضحك كما ضحكت انت لانه يبعث في الجميع فرحا كبيرا، قلت: «لا شك انى لم اسمع قط امرا اكثر جدة وامتن اساسا من هذا. ولكن فات حضرتك انه متى امتصت المياه

---

(4) دامت محاصرة الجيوش الاسبانية تحت قيادة المركيس دي سبنولا لهده المدينة من شهر يوليو (تموز) سنة 1601 الى ستمبر (ايلول) من 1604 وهذه الاشارة تسمح بتعيين تاريخ وضع هذا الكتاب.

الموجودة حيئذ عاد البحر فدفع الى مكانها مياها اخرى» فقال: «لن يصنع البحر هذا لانى استدركت هذه القضية ايضا» وفضلا عن ذلك لدى اختراع لاغرق في البحر اثننى عشرة ولاية من تلك الناحية

فلم اتجرأ على رد كلامه خوفا من ان يقول لي ان لديه مشروعا لاسقاط السماء اذ اني لم ارقط في حياتي حمقا يعادله. وقال لي ان ما فعله خوانيلو (5) ليس شيئا وانما يحاول هو الان رفع كل مياه نهر تاجه الى طليطلة بطريقة اخرى اكثر سهولة ولما سالته عن هذه الطريقة قال انما هي من باب السحر والتعزيم. فتامل رعاك الله اذا كان احد في العالم قد سمع شيئا آخر كهذا. واخيرا قال لي: واني لا افكر في تنفيذ هذا المشروع اذا لم يعطني الملك اولا رمة دراد وذلك

---

(5) خوانيلو Juanelo خوانيلو طوريانو - اصله من كريمونا وقد تمكن من رفع مياه نهر تاجه الى اعلى نقطة في طليطلة باسلوب استنبطه وظل قائما نحو ثلث قرن على عهد فيليب الثاني

من حقي الصريح لان لدي حكماً قديماً يثبت انتمائي الى طبقة الاشراف . وبين هذه المحادثات والمماحكات بلغنا بلدة طورخون (6) حيث بقي رفيقي اذ اقبل اليها لمشاهدة احد اقاربه..

اما انا فواصلت السير وقد كدت اموت ضحكا من المشاريع الخيالية التي كان رفيقي يقضي فيها وقته. واذا بي لحسن الحظ اشاهد عن بعد بغلة طليقة والى جانبها رجل واقف ينظر في كتاب ثم يرسم خطوطا يقيسها ببركار ثم يدور ويقفز من جهة الى اخرى وبين فترة وفترة يضع اصبعا فوق الاخر ويعود الى القفز آتيا بحركات لا تعد ولا تحصى. فحسبته لاول وهلة ساحرا ـ اذ وقفت بعيدا انامله ـ وكدت لا اجرأ على التقدم واخيرا عزمت على ذلك وحين وصلت اليه احس

---

(6) طورخون Torrejón اسم بلدة من مقاطعة مدريد والاسم نفسه مستعمل لعدة قرى اسبانية لكنها تتميز بعضها عن بعض باسم آخر تضاف اليه هذه اللفظة التي معناها «البرج الصغير»

دي فاتلق الكتاب وحين وضع رجله في الركاب زلت به فسقط. فرفعته وقال لي ،لم احسن احتساب الحد الاوسط لاصنع الدائرة عند الركوب فلم افهم ما قاله لي. ثم خفت مما كان لان النساء لم يلدن مولودا اكثر حمقا منه. وسالني اذا كنت اسلك في اتجاهي الى مدريد خطا مستقيما او منكسرا فاجبته ان منكسرا دون ان افهم كلامه. ثم سألني عن السيف الذي كنت احمله مدلى فوق جنبي فقلت انه لي. وبعد ان تامله قال. من الواجب ان يكون جانبا المقبض اطول مما هما عليه الان لاتقاء الجراح التي يحدثها في الوسط تكرار الطعنات. واخذ يرسل القول مل شدقيه حتى اضطرني الى استفساره عن اية حرفة يحترفها فقال انه فارس حقيقي وان فروسيته تثبت في اي مكان كان، قلت وقد هزني الضحك: «الحق يقال اني ظننتك لاول وهلة ساحرا حين رأيتك في هذه البرية ترسم تلك الدوائر» قال: انما خطرت لي جولة في الدائرة الرابعة مع الانتقال من نقطة الى

اخرى لعقل سيف الخصم وقتله دون ان ينبث ببنت شفة وكنت اقوم حينئذ بنقل هذا الخاطر الى عبارات حسابية.، فقلت: وهل في هذا حساب،؟ قال: ، لا حساب فحسب بل لاهوت وفلسفة وموسيقى وطب ايضا قلت. ، أما الاخير لا اشك فيه لان هذا الفن انما يعنى بالقتل فقال: ،تهزأ فانك ستعلم الان كيف تستعمل الفرجون ضد السيف لتوسيع الضربات الى حد انها تضم الدورات الحلزونية التي يرسلها السيف قلت: اني لا افهم شيئا البتة من كل ما تقوله لي.، قال: ،ان هذه الامور قد وردت كلها في الكتاب المسمى نجاد السيف وهو كتاب حسن جمع من الاعاجيب الشيء الكثير ولتصدق قولي ساريك حين نصل الى بلدة ريخاس حيث نبيت هذه الليلة ما افعله من الغرائب بواسطة سفودين، ولا يكن في نفسك ريب في ان كل من قرأ هذا الكتاب يمكنه ان يقتل كل من اراد، قلت: ، أما ان يكون هذا الكتاب يعلم الناس شر وسائل الفساد او ان

يكون مؤلفه احد الدكاترة، فقال: كيف نقول احد الدكاترة فحسب؟ اجل ان مؤلفه عالم كبير واكاد اقول انه اكثر من ذلك. (7)

وفي هذا الحديث وصلنا الى بلدة رنخاس وجلسنا في احد الفنادق وحين نزلنا نبهني بصوت مرتفع ان اؤلف بساقي زاوية منفرجة ثم اقف مستقيما على الارض بعد ضمهما ليصبحا متوازيين فابصرني صاحب الفندق ضاحكا فضحك بدوره وسألني اذا كان ذلك القائد هنديا (8) لما سمعه من كلامه، فظننت عندئذ اني فقدت رشدي

---

7) كل هذا المقطع تهكم لاذع على الكاتب ضون لويس بانشيكو دي ناربايث مؤلف كتاب عظمة السيف وقد اشرنا مفصلا في كتابنا كيبدو امير الظرافة الى الخصومة بينه وبين كبيدو وما جرت اليه.

8) لعلها اشارة الى باتشيكو نارباييث لسكناه مدة طويلة في الجزائر الخالدات، وكان سكانها الاصليون يطلق عليهم كسكان اميركا اسم الهنود.

ثم وصل الى صاحب الفندق وقـال له : «اعطني ايها السيد سفودين لزاويتيـن او ثلاث وانـي مرجعهما لك بعد هنيهة» فصاح الفندقي متعجبـا يا يسوع! أعطنى هـذه الزوايا فان زوجتـى تشويها وان كـانت طيورا لم اسمع اسمهـا قط.» فقال: « انها ليست طيورا » واضاف بقوله ملتفتا الي: «تامل رعاك الله ما هو عدم المعرفة» ثم عاد الى الفندقي وقال : «اعطني السفودين فانما احتاجهما للمسايفة ولربما كان ما تراني اصنعه اليـوم خيرا لك من كل ما ربحته طول عمرك ». ولكن السفافيد كـانت مشغولة فاستعضنا عنها بمغرفتين وكـان مشهد لم تر في العـالم مدعاة الى الضحك مثيله وكـان صاحبنا يقفز قفزة ويقول: «بهـذا الدور ابلغ درجات الوجه. الان اغتنم هذه الحركة التي ندرت عن تـوان لاسدد الضربة القـاضية» هذه يجب ان تكون طعنة وتلك ضربة». وكـان يدور حولي بمغرفته تفصلني عنه مسافة واسعة وبما اني لم اكـن لاثبت فـى مكان واحـد كـانت

مسايفته اشبه ما تكون بمطاردة قدر تفور فوق النار. وقال لي: وفي النهاية هذا هو الصالح لاتلك السكرات التي يعلمها هؤلاء الماكرون من اساتذة المسايفة الذين لا يحبون سوى تعاطي المداد.

وما كاد يفرغ من كلامه هذا حتى خرج من احدى الغرف خلاسي مكشرا عن انيابه يرتدي قبعة ادخلت في مظلة وسربالا من جلد الجاموس تحت كساء قصير واسع ذات كمين وقد ملئ شرطاء معوج الساقين كالنسر الامبراطوري معقوف اللحية، ذو شاربين عريضين يقيان الوجه، وقد تخصر بخنجر اكثر ثقوبا من شبكة (9) ثم قال وهو يحدق في الارض: اني قد امتحنت وبيدي الاجازة فبالشمس التي تسخن الخبز ابي لقطع ارباكل من حدثته نفسه بامتهان من يحترف

(9) يظهر انها اشارة الى فرنسيسكو هرناندث المولاتو (اي الخلاسي) الذي كان من ابرع من نقل السيف في عصره وقد انتقده بانشيكو دي ناربايث في احد كتبه.

الفروسية» اما انا وقد رأيت الموقف حرجا فتوسطت بينهما قائلا للخلاسي انه لم يوجه الحديث اليه. ولذا ليس له من سبيل الى الغضب. فتابع قائلا. «جرد حسامك ان كنت تحمله ولنرى اية هي الفروسية الحقة. ودعك من المغارف اما رفيقي المسكين ففتح الكتاب وقال بصوت مرتفع: «هذا الكتاب يقوله. وهو مطبوع برخصة من الملك. وانا اؤيد صحة ما يقوله بمعرفة او بدون معرفة» هنا وفي اي مكان آخر. والا فلنقس ذلك». واخرج الفرجار واخذ يقول: «هذه الزاوية منفرجة» وحينئذ جرد الاخر خنجره وقال: انا لا ادري من هو انغولو ومن هو «اوبتوسو(10)» ولم اسمع قط هذين الاسمين ولكني بهذا الذي في يدي ساقطعك اربا» وهجم على ذلك المسكين الذي بدأ يفر من امامه قافزا داخل الدار وهو يقول: لست تقدر على جرحي لاني بلغت درجات وجهك فاصلحنا بينهما انا والفندقي

---

(10) «انغولو» معناها: الزاوية. و «اوبتوسو» منفرجة.

واشخاص اخرون كانوا هنالك وان كنت اكاد لا اقوى على التحرك من شدة الضحك.

ثم ادخلوا الرجل الى غرفته وانا معه. فتعشينا ورقد جميع من كان في الدار وعلى الساعة الثامنة صباحا نهض بلباس النوم واخذ يدور في الغرفة تحت جنح الظلام ويقفز ويردد الف حماقة بلغة حسابية ثم ايقظني انا ولم يكتف بهذا بل هبط الى حيث الفندقي نائم وطلب منه مشعلا قائلا له انه قد اكتشف محلا ثابتا للطعنة المسددة مستقيمة نحو القوس من وسط وتره اما الفندقي فاخذ يستعيذ بالشيطان لايقاظه اياه في تلك الساعة ولشدة ما بالغ في ازعاجه رماه بالحمق. فاذاك تركه وصعد الى غرفتنا وقال لي ان احببت ان تنهض فانك ترى الحيلة التي اكتشفتها لصد الاتراك وخناجرهم العريضة (11) واضاف قائلا انه سيعرض اكتشافه هذا على الملك لانه في صالح النصارى. وهنا

---

(11) في كتاب باتشيكو دي ناربايث درس في الدفاع ضد الاتراك وخناجرهم العريضة

اصبح الصباح فارتدينا ملابسنا جميعا ودفعنا اجرة الفندق. ثم وفقوا بين صاحبي والخلاسي الذي ابتعد بعدئذ وهو يقول ان ما يدعيه رفيقي حسن ولكنه ينتج مجانين اكثر منه فرسانا لان الاكثرية على الاقل لا يفهمونه.

الفصل التاسع

في ما وقع لي مع شاعر حتى وصولي الى مدريد

سلكت طريق مدريد اما صاحبي فودعني ليسلك طريقا آخر وبعد ان كان قد ابتعد عاد على اعقابه مسرعا واخذ يناديني بصوت عال اذ كنا في البرية حيث لايسمعنا احد وقال لي وفمه في اذني: بحياتك الا بحت بشيء من هذه الاسرار الخطيرة التى اطلعتك عليها في علم الفروسية بل احتفظ بها لنفسك فانك لبيب كيس. فوعدته بذلك ثم غادرني من جديد وشرعت اضحك من السر الظريف.

وهكذا قطعت ما يربو على فرسخ دون ان اصادف احدا وكنت اسير مفكرا في عظم ما يعترض سبيلي الى التخلق بالشرف والفضيلة من عقبات كثيرة اذ لا بد لي من سد ما تركه والدي من نقص

في هذا الميدان ثم الحصول على مقدار كبير بحيث تستحيل معرفتي من خلال ذلك النقص. واذ بدت لي هذه الافكار شريفة اخذت اشكر نفسي عليها واقول في باطني: «لابد ان اشكر انا الذي ليس لي من آخذ الفضيلة عنه اكثر ممن ورثها عن اجداده وبينما كنت غارقا في بحر هذه التاملات التقيت بشماس عجوز راكب بغلة في طريقه الى مدريد. فدار بيننا الحديث ثم سألني عن البلدة التي قدمت منها فقلت انها القلعة قال: لعنة الله على هؤلاء الاشرار اذ ليس بينهم رجل عاقل، فسألته كيف ولماذا يقول هذا القول عن بلدة كالقلعة حوت ما حوته من كبار العلماء فاجابني وهو يحترق غيظا: «واي علماء؟ اعلم رعاك الله انـي بالرغم عن مرور اربعة عشر عاما علي وانا انظم في قرية «ماخالاهوندا» (1) ـ حيث كنت وافها ـ الاناشيد لخميس الجسد وعيد الميلاد. ولم ير هؤلاء

---

(1) ماخالاهوندا Majalabonda ـ قرية من مقاطعة مدريد وتسمى اليوم ماخاداهوندا

الذين تسميهم علماء ان يمنحوني جائزة على بعض اناشيد قدمتها للمباراة وها انذ سائلوها على مسمعك لنرى اجحافهم بحقي في حكمهم. وبدأ يقرأ ما يأتي.

ايها الرعاة! اليس من النكت اللطيفة ان يكون اليوم عيد قديس جسد المسيح؟

الا انه يوم حبور يتواضع فيه الحمل الطاهر الى حد انه يزور بطوننا وفي وسط هذه الافراح يدخل الافواه البشرية

الا فانفخوا في الابواق الملونة لان سعادته ايها الرعاة

اليس من النكت اللطيفة الخ ..»

ثم قال لي: ما عساه ان يقول افضل من هذا مبتدع النكت نفسه؟ تامل ما تتضمنه من المعاني كلمة «الرعاة» فقد كلفتني اكثر من شهر درسا فلم انمالك من الضحك الذي كان يتفجر من عيني وانفي وقهقهت قائلا: انه لشيء عجيب! وانما لي عليك اعتراض وهو انك تقول عيد قديس «جسد المسيح» بينما ان ما يسمى

«جسد المسيح» ليس قديسا من جملة القديسين
بل اسم اليوم الذى انشئ فيه «سر القربان المقدس»
فاجابني هازئا: «ما شاء الله! اني اريكه في التقويم
حيث تجده مطوبا في عداد القديسين. واني
اراهنك على صحة ما اقول. فلم اقو على محاجته
لاني كنت اكاد اهلك ضحكا لما رايته من جهله
الفاضح. بل قلت ان ابياته جديرة بكل مكافأة
واني لم اقرأ قط شيئا الطف واعذب منها» فقال:
«كيف لا؟ فاسمع اذا لاقرأ عليك جزءا من
كتيب وضعته اكراما للاحدى عشر الف عذراء
حيث اخص كل واحدة منهن بخمسن منظومة
من ذوات الثمانية ابيات وانك لترى عجبا
فرحونه تجنبا لاستماع هذا القدر من ملايين
الثمانيات الا يردد على مسامعي شيئا من الالهيات
وهكذا اخذ يتلو علي مهزلة اكثر مراحل من
طريق القدس. وكان يقول لي: لقد وضعتها
في يومين وانما هذه هي المسودة» وكان ما بين
يديه يربو على خمس ملازم اما عنوانها فهو «سفينة

نوح ، وتدور حوادثها بين الديوك والفيران والخيل والثعالب والخنزير الوحشية كما في حكايات جحى. فاثنيت على حق ابتكارها ونظمها فاجابني قائلا: «ان ذلك من ابتكاري ولم يسبقني اليه احد وانما الجدة فوق كل شيء. وان تمكنت من حملها الى المسرح فستلهج الالسنة كلها بذكر هذا الحدث ، قلت: امن الممكن تمثيلها ما دام انه لابد من مشاركة الحيوانات فيها وهذه لا تنطق؟ قال: اجل، انما هذه هي العقبة الكأداء ولولاها لما كان لهذه الرواية من مثيل ولكني فكرت بحملها الى المسرح مستعملا فيها الببغاوات والشحارير والعقاعقة التي تنطق. وفي المشاهد الهزلية التي تمثل في الفترات المتخللة بين فصل وآخر استعمل القردة»

قلت: «لقد صدقت فهي منظومة رفيعة جدا»

قال: «انما نظمت ما هو ارفع منها اكراما لامرأة احبها فها هي تسعمائة منظومة ومنظومة من الرباعيات ـ فكان كأنه يحصي الدراهم دنانير ـ

نظمتها متغزلا بساقي مولاتي، فسألته هل رآها فاجاب ان لا لارتباطه بحرمة الكهنوت ولكن الافكار التي ابتدعها قد احيلت نبوءات وانا اعترف حقا اني بالرغم عن طربي باستماعه خفت من مقدار كهذا من الشعر الردئ فحولت الحديث الى محار اخرى وكنت اذا قلت له انني ارى ارانب قال: سأبدأ اذا بقصيدة اشبههما فيها بهذا الحيوان، واخذ يتلوها. فاقول لالهيه: هل ترى تلك النجمة التي تشاهد نهارا» فيقول: «حين افرغ من هذه ساقرأ عليك القصيدة الثلاثين حيث اسميها نجمة فكأنك تعرف مرامي في هذه القصائد» وحين رأيت اني لا اقدر ان اسمي حاجة لم ينظم حولها جهالة ما حزنت الى حد اني احسست بغبطة واسعة حين اطللنا على مدريد مؤملا ان يسكت حياء وخجلا. وانما جرى الامر بالعكس اذ اخذ يرفع صوته حين دخلنا الشارع ليظهر عن نفسه. فرجوته ان يعدل عن ذلك مبينا له انه اذا اشتم الصغار منه رائحة الشعراء فلن تبقى واحدة من بقايا

البقول الا زمينا بها لرمي الشعراء بالحمق في مرسوم وضعه لهم واحد كان من جملتهم ثم عاد الى الصراط القويم. فسألني جزعا ان اقرأه له ان كان لدي منه نسخة. فوعدته بان اقوم بذلك في النزل. وقصدنا نزلا كان من عادته ان يحط رحاله فيه فوجدنا على الباب اكثر من اثنى عشر اعمى. فبعضهم عرفه من رائحته والبعض الاخر من صوته وهللوا مرحبين به فعانقهم جميعا ثم اخذ فريق منهم يسأله صلاة للقاضي العادل شعرية حكمية تحمل على التقطيب وسأله فريق آخر صلاة من النوع ذاته من اجل نفوس الموتى واخذوا يسهبون في الكلام حول هذا الموضوع وتناول فيقي ثمانية بلايين عربونا من كل واحد منهم. وصرفهم ثم قال لي:

لا بد ان يدر على هؤلاء العميان اكثر من ثلاثمائة بليون فاسمح لي الان ان اختلي قليلا لانظم بعضها. وحين نفرغ من تناول الغذاء نسمع قراءة المرسوم.

ياللحياة البائسة! اذ ليس ما يعادل بؤسا حياة المجانين الذين يكسبون قوتهم بجنونهم.

الفصل العاشر

في ما فعلته في مدريد وما جرى لي حتى وصلت الى ثرثديا (1) حيث بت ليلتي

اختلى المؤلف قليلا ليعد للعميان خرافات وترهات وخلال هذا حانت ساعة الغداء فتغدينا ثم طلبوا ان تقرأ البراءة، وحيث لم يكن لدى شغل آخر اخرجتها وقرأتها. وها اني انقلها هنا لما فيها من قارص الكلام وصالحه لما اريد التأنيب عليه فيها وهذا نصها:

براءة بشأن الشعراء الخالين من كل معنى وفائدة وجوهر.

---

1) ثرثديا Cercedilla بلدة من مقاطعة مدريد تقع على مقربة من الاسكوريال وهي من اماكن الاصطياف.

وما كدت اقرأ هذه الترجمة حتى صعد المؤلف قهقهة كبيرة وقال: علام لم تصرح سابقا؟ فوالله لقد ظننتك في بادئ الامر تعنيني بكلامك واذا به موجه الى الشعراء الخالين من فائدة وجوهر فحسب، فاعجبني قوله هذا كما لو انه من الشعراء المجيدين الذين لاتحصى لهم فلتة. وتركت المقدمة وشرعت بقراءة الفصل الاول وقد جاء فيه ما يأتي:

«حيث ان افراد هذا النوع من الهوام المعروفة بالشعراء هم اقاربنا ويجمعنا واياهم النصرانية وان كانوا فيها من الواهنين: وحيث انهم يقضون طيلة سنتهم في عبادة الحواجب والاسنان والشرط الحريرية والاخفاف وارتكاب معاصي اغلظ واكبر - نامر ان يجمع الشعراء العموميون والفاجرون خلال اسبوع الالام كما نجمع النساء الباغيات ويرشدوا للرجوع عن غوايتهم وان يسعى لردهم الى حظيرة الايمان. واننا نعين لهذه الغاية دورا لايواء التائبين.

وايضا وبالنظر الى القيظ الشديد السائد على

ما ينتجه شعراء شمس من منظومات حارة لا نرى الليل ابدا ـ وهى كالزبيب ذبولا لكثرة ما يستعملونه فيها من شموس وكواكب ـ نفرض عليهم الصمت المطلق في شؤون السماء(2) ونعين اشهر محرمة على ربات الشعر كما توجد اشهر محرمة للصيد والقنص لكى لا تنفد من جراء هذه السرعة التى ينفقونها بها.

وايضا حيث ان هذه الطائفة الجينمية من الرجال المحكوم عليهم بالتصور الدائم(3) الذين جعلوا ديدنهم تشظية الالفاظ وقلب المعاني قد اعدوا النساء من مرضهم هذا نعلن اننا نعتبر انفسنا مثأورين بهذه الصفقة من الشر الذي حملننا اياه في بدء العالم واننا حبا بالفقراء المحتاجين نامر بان تحرق قصائد الشعراء كما تحرق الاهداب

---

2) يقصد بها الكواكب

3) التصور ـ الشعراء التصوريون هم الذين غالوا في اتباع مدرسة غونغورا وكان كيبيدو من الد اعدائهم

القديمة ليستخرج منها الذهب والفضة والدرر. لانهم في معظم اشعارهم يجعلون محبوباتهم من كل انواع المعادن».

وهنا لم يقو الوافه على تحمل هذا القول فانتصب واقفا وقال: لا! بل الاولى ان نجرد من «موالنا» كفاك قراءة فاني عازم على رفع دعوى بهذا الشأن لا بالالف والخمسمائة (4). بل الى قاضي انا لئلا امس ثوبي الاكليريكي وكرامتي بضرر. وسانفق كل ما لدي في ملاحقة هذه الدعوى. والا اليس من الحيف ان اتحمل انا هذه الاهانة لاني اكليريكي؟ واني سأثبت ان قصائد الشاعر الاكليريكي لا تخضع لهذه البراءة واريد بعد ذلك ان ابين الامر امام القضاء وعند ما سمعت منه

---

4) «الالف والخمسمائة» استئناف نهائي كان النظر فيه لاحدى غرف مجلس قشتالة. فالدعاوي التي لم تنجح في بقية درجات المحاكم كانت تستانف اليها نهائيا. بعد ان يودع المستانف (1500 دوبلا) ومن هنا بقي هذا الاسم.

هذا القول ساورتني الرغبة في الضحك ولكني منعا للتوقف ـ اذ كان الوقت قد فات ـ قلت له: «يا مولاي! ان هذه البراءة انما قد وضعت من قبيل الداعبة ولا جبر فيها ولا إرغام لانها خالية من كل سلطة» فقال وهو يضطرب «يا لي من خاطيء! ولقد كان الاجدر بك ان تنبهني الى ذلك اولا فتوفر علي اكبر هم. اتعرف اي وقع لكلام كهذا في نفس من لديه ثمانمائة الف منظومة نقدا؟ تابع القراءة والله يسامحك على ما احدثته في قلبي من ذعر وهلع» فتابعت قائلا:

«وايضا حيث انهم بعد ان تخلوا عن اسلاميتهم ـ وان كانوا ما برحوا يحتفظون ببعض الآثار ـ احترفوا حرفة الرعاة فترى الماشية هزيلة لشربها دموعهم وتشيطها بنفوسهم الملتهبة كما ان موسيقاهم تسحر البابها فلا تكلأ» ـ نامر ان يتركوا هذه الحرفة وان تعين مناسك يلتجيء اليها محبو العزلة منهم. اما الاخرون منهم فلينصرفوا الى سياسة الخيل

لانها حرفة تتيح لمحترفها الفرح والفرصة لصب قوارص لسانه.

فصاح الوافه قائلا: لا بد ان يكون واضع هذه البراءة يهوديا متخنثا لواطا ذا قرون. ولو علمت من هو لهجوته هجاء مرا يرنح نحته الى الابد وما قولكم في ان فتى أمرد مثلي يجب عليه ان ينعزل في منسك او ان رجلا وافها يجب ان ينصرف الى سياسة البغال؟ مهلا أيها "السيد" ان هذه الاهانات لا تطاق فقلت: «لقد قلت لك سابقا انها مداعبات وكمداعبات يجب ان تؤخذ ثم واصلت القراءة:

وأيضا منعا للسرقات الكبرى نأمر ان لا تنقل قصائد من اراغون الى قشتالة ولا من ايطاليا الى اسبانيا. ويعاقب الشاعر الذي يرتكب هذه المخالفة باجباره على تحسين زيه وان تكررت المخالفة يجبر على ان يكون نظيفا طيلة ساعة فوقعت هذه النكتة من نفسه موقعا حسنا لانه كان يرتدي جبة خلقا وعليها من الوحل ما يكفي لدفنه

بفركها فوقه اما الشملة فكانت وحدها كافية لتسميد فدانين من الارض

وهكذا بين هزل وجد قلت له ان البراءة تامر ايضا ،بان تدرج بين اليائسين الذين يشنقون نفوسهم او يرتمون من عل النساء اللواتي يعشقن رجالا ليسوا سوى شعراء. وان يحرمن مثلهم من الدفن الديني. واننا بالنظر الى وفرة الغلة التي حصلت من رباعيات واغاني وقصائد من ذوات الاربعة عشر بيتا خلال هذه السنوات الخصبة نامر بان تحال الملفات التي تنجو من ايدي التبالين الى المراحيض دون مراجعة، وختاما وصلت للفصل الاخير وقد جاء فيه ما يلي:

،ولكن بعد الاطلاع بعين الرحمة على ان في المجتمع البشرى ثلاثة انواع من الناس هم من البؤس بحيث لا يمكنهم ان يعيشوا بدون هؤلاء الشعراء نعنى بهم الممثلين الهزليين والعميان والوافهين، فنأمر بان يسمح بوجود بعض المتدرجين في هذا الفن على ان ينالوا اجازة من شيوخ

الشعراء الذين في جهاتهم. وبأن يحرم على ناظمي المهازل انهاء الفصول المضحكة بقرع العصي وظهور الشياطين، والروايات الهزلية بالزواج. وعلى العميان بايقاع الحوادث في تطوان وباقصاء كلمات «اخوى» و«شرف» (5) ونامرهم بألا يقولوا «هوى» حين يقصدون قول «هذا المؤلف» (6) ونامر الشعراء من الوافهين ان لا يستعملوا في اناشيدهم الميلادية

---

(5) انما المقصود اقصاء كلمتي «اخوى و شرف» على الشكل الذى استعملنا به هكذا hermanal للاولى و pundonores للثانية وهو استعمال خطيء.

(6) تلاعب في الكلام لا يمكن تعريبه لانه قائم على تقارب في نطق الكلمتين بالاسبانية ومن المألوف ارتكاب العامة اخطاء من هذا النوع عند الكلام لعدم معرفتهم بنطق بعض الكلمات على الوجه الصحيح فكان بعض الشعراء الجهلة يقولون zozobrar «ثوثوبرار» ومعناها «هوى» بدلا من قولهم la presente obra «لابرسنتي اوبرا» ومعناها «هذا المؤلف»

قوافي تختم بكلمة «خيـل» او «باسكـوال» وألا يتلاعبوا بالالفاظ او يأتوا بافكار لولبية تتكرر في الاعياد كلها دون ان يتغير منها سوى اسمها.

واخيرا نأمر جميع الشعراء ان يبعدوا المشتري وأبولون والزهرة وغيرهم من الالهة والا كانوا لهم شفعاء في ساعة الوفاة»

ولقد اعجب بما في البراءة كل مـن سمعوا قراءتها وطلبوا مني نسخة منها. ما عـدا الاويفـه فانه شرع يقسم بصلاة العصر وغيرها من الصلوات بان تلك البراءة انما هى هجاء له لما جاء فيها عن العميان وانه لاعلم بما يجب عليه ان يفعله. واخيرا قال. «اني لرجل جالس لينيان (7) في احدى المثاوي وقد آكلت «اسبينال» (8) اكثر من مرتين. وقال

---

7) بدرو لينيان دي رياثا Pedro Liñan de Riaza شاعر معاصر للوبي دي بيغا.

8) اسبينال Espinel هو الشاعر الكـاتـب ثينطي مارتينيث اسبينال Vicente Martinez Espinel ولد سنة 1550 في مدينة رندة وتوفي سنـة 1624

أيضا انه وجد مرة في مدريد على مقربة من لوبي دي فيغا بقدر ما هو على مقربة مني الآن وانه شاهد ضون الونصو دي ارثيا (9) اكثر من الف مرة وان عنده رسما للشاعر الالهي «فيغيروا» (10) وانه اشترى السروال الذي نزعه الشاعر باديا (11)

ترك عدة مجموعات شعرية بالاسبانية واللاتينية لما أهم مؤلفاته هي قصة «ماركوس دي اوبريغون» التي تنتمي الى فن القصص النشار).

(9) الونصو دي ارثيا Alonso de Ercilla ولد سنة 1533 وتقلب في عدة وظائف واشترك بافتتاح تشيلي في أميركا الجنوبية ثم ألف ملحمة شعرية تدور حول هذا الفتح دعاها «لا اراوكانا La Araucana» وتوفي سنة 1594

(10) فيغيروا - فرنسيسكو دي فيغيروا Francisco de Figueroa (1536 - 1620؟) شاعر اسباني لقب بالالهي ولم يسلم من شعره الا القليل.

(11) باديا - بدرو دي باديا Pedro de Padilla شاعر اسباني من القرن السادس عشر - ولد في

حين ترهب وها هو اليوم يلبسه وان يكن في حالة مزرية. وما كان منه الا ان ارانا اياه مما اثار قهقهة الحاضر اجمعين الى حد ان واحدا منهم لم يرد مغادرة المثوى.

واخيرا حلت الساعة الثانية وبما انه لم يكن بد من السير غادرنا مدريد فودعت آسفا ووجهت خطاي شطر المرفأ. فشاءت الارادة الالهية دفعا لكل فكرة سوء قد تجول في خاطري ان التقي بجندي، فما عتمنا ان بدأنا نتبادل اطراف الحديث فسألني عما اذا كنت قادما من العاصمة فاجبته اني عرجت عليها مارا فحسب، فاعقب جوابي بقوله: «والحق يقال انها لا تصلح لاكثر من هذا فهي بلدة لسكنى الاناس السافلين. وقسما بالمسيح اني لافضل الف مرة ان اقيم في مكان تغمرني فيه الثلوج الى جسمي مرتجفا كالساعة مقتاتا من الخشب على تحمل المظالم التي يصاب بها اهل الصلاح

ليناريس وتعلم في غرناطة. انخرط في رهبنة الكرمليين سنة 1585

فيها فاعترضت بقولي ان في العاصمة من جميع الاصناف وانهم يقدرون كثيرا ذا الطالع السعيد فانتفض غاضبا وقال «كيف يقدرون؟ فقد قضيت ستة اشهر ألتمس قيادة فصيلة من الجيش بعد ان امضيت عشرين سنة في الخدمة وأرقت دمي في سبيل الملك كما تشهد بذلك هذه الجراح وأراني في احدى كاذتيه طعنة تبلغ شبرا أوضح من الشمس ان سببها احدى الماوشات. ثم أراني في عرقوبيه علامتين أخريين قال انهما أثر رصاصتين لكني استنجت من علامتين كانتا في رجلي أنهما تقشر وورم من البرد. ورفع قبعته وأراني وجهه فاذا فيه ستة عشر رتقا من جراء طعنة شقت منخاره، وكانت في وجهه ثلاث ندبات أخرى جعلته أشبه بالخريطة من كثرة الخطوط فقال لي مشيرا اليها «هذه أصبت بها في باريس في خدمة الله والملك الذى أرى وجهى مقطعا في سبيله. ولم ألق مقابل ذلك الا كلمات جميلة تقوم اليوم مقام الاعمال القبيحة. اقرأ هذه الاوراق وحياتك أنت

الذي لم تشترك بمعركة قط. وحق المسيح ان رجلا مثلي ليشار اليه بالبنان»(12)

وكان صادقا في قوله لما فيه من اثار ولكن من مجرد الضربات التي تلقاها وأخذ يخرج مدافع من التنك ويريني أوراقا لا بد انها كانت لشخص آخر اتخذ هو اسمه، فقرأتها واغرقت عليه الف ثنا، قائلا انه لا السيد (13) ولا برناردو (14) قاما بما قام به فانتفض قائلا:

---

12) أتى المؤلف بتورية في كلمة señalar فاستعملها اولا بالمعنى المجازى (اشار اليه بالبنان) وثانيا بمعناها الحقيقي وهو (ترك أثرا)

13) السيد El Cid لقب البطل الاسباني رودريغو دياث دي بيار الذي عاش من سنة 1040 حتى 1099 ومن جملة مآثره الحربية استيلاؤه على مدينة بلنسية من أيدي المسلمين.

14) برناردو Bernardo بطل اسباني من ابطال الاساطير واسمه الكامل هو برناردو دل كاربيو Bernardo del Carpio ويضاف الى القرن التاسع.

ومن اين لهما مالي؟ لا والله ولا غرسيا دي باريديس (15) ولا خوليان روميرو (16) ولا غيرهما من كبار المحاربين. لعن الله الشيطان! في ذلك العهد لم تكن مدفعية. ووالله ان برناردو ما كان يناضل ساعة في عهدنا هذا. واسال زعاك الله في فلاندس مآثر «المياذو» تر ما يقولون لك عنه فسألته قائلا: هل انت هو؟ فقال: «ومن غيري يكون اياه

والمؤرخون غير متفقين على مسالة وجوده حقيقة ام لا.

15) ديغو غارسيا دي باريديس 1466-1530 Diego Garcia de Paredes اصله من بلدة تروخيو كان فارسا مغوارا واشترك في حرب ايطاليا الى جانب ملك اسبانيا ضون فرناندو الملقب بالكاثوليكي وقد وضع ترجمته سنة 1621 الكاتب ضون توماس تماير دي بارغاس

16) خوليان روميرو Julian Romero من قادة الجيش الاسباني في حرب فلانديس حين كان القائد الاعلى لويس دي ريكيسينس

اذا؟ أما ترى الثغرة التي في اسناني (17)؟ ولكن فلندع الحديث حول هذا الموضوع لان من العيب ان يمدح المرء نفسه

وبينما نحن في هذا الحديث اذا بنا نلتقي بناسك راكب اتانا يكاد يكنس الارض بلحيته هزيل البدن. عليه جبة من الجوخ شهباء اللون فحييناه بالتحية المعهودة «الحمد لله» واخذ هو يثني على حقول القمح ومعها على رحمة المولى فقاطعه الجندي قائلا: آه أيها الاب لقد رأيت الحراب حولي اكثف من هذا الزرع ووالله لقد عملت جهدي في نهب مدينة أمبريس (18) أجل والله!» وكان

---

17) كلمة ميادو ـ mellado معناها أهتم اي من في اسنانه ثغرة. وهي في الوقت نفسه لقب لاحد الفرسان الذين امتازوا باقدامهم في حرب فلاندس

18) نهبت مدينة امبريس عاصمة البلجيك خلال حرب فلاندس في 18 نوفمبر سنة 1576 حينما كان ضون خوان دي اوستريا قائدا للقوات الاسبانية

الناسك يوبخه على اكثاره الايمانات فاجاب الجندي قائلا: انه لمن الواضح ايها الاب انك لم تكن يوما جنديا فانك توبخني على معاطاتي ما هو من شؤون حرفتي، فاستولى على الضحك من رؤيته يجعله قوام الجندية وهمت انه محنال لانه لا شيء اكرد على عظماء الجنود ان لم نقل كلهم من هذه العادة ثم بلغنا لحف المرفأ بينما كان الناسك يصلي المسبحة في حزمة من الحطب جعلت كرات من الخشب بحيث كان يسمع عند نهاية كل سلاه عنيك بامريم قرقعة كقرقعة الكرة في لعبة الحلق(1) والجندي يقابل بين الصخور والقلاع التي شاهدها ناظرا الى اي الاماكن هي المنيعة وفي ايها نجب

وقد دخل الجنود الاسبان المدينة ونهبوها لكن القيادة العليا تصدت للقضية حالا واصدرت امرا باعدام كل من ينهب شيئا

(1) لعبة تقوم برمي كرات من خشب لتمرق داخل حلقة من الحديد ممسوكة بقضيب مغروز في الارض

ن نفاه ندفعية. وكنت انا انظلع اليهما خائفا من مسحة الناسك وحرتها الكبيرة بقدر خوفي من كذب الجندي. وكان هذا يقول: آه لو كان الامر بيدي لسقت قسما كبيرا من هذا المرفأ فاحسن بذلك الى المسافرين حسنا كبيرا .

وبينما نحن في هذه الاحاديث وغيرها وصلنا الى برندا فدخلنا الثلاثة فندقا وقد حن النيل. وامرنا فاعدلنا العشاء. وكان يوم الجمعة. فقال الناسك اذن فسنسر حسنا لان البطاقة ام الوردتين ولكن نعمد على تلاوة السلام عليك يا مريم مرارا وخرج ورق اللعب من كمه. فاخذ مني الضحك كل ماخذ حين رأيت ذلك وتعجبت واقفا امام حركات المسحة. فقال الجندي: الا نلعب كاصحاب على شيء من المال لا يتجاوز مئة بليون وهي الحصة التي احسنها فقلت وقد داخلني الطمع في اللعب على مئة اخرى. وقبل الناسك بذلك محاولة لنا وقال انه يحمل ثمن زيت مصباح الكنيسة وهي تبلغ نحو مئتي بليون. واني لاعترف باني

فكرت في ان اكون لصه فامتصه. وانما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. وذلك اننا شرعنا بلعبة الخط (٤٢) والانكى ان الناسك ادعى في بادئ الامر جهله تلك اللعبة وسالنا ان نعلمه اياها ثم تركنا نربح مرتين. وبعد ذلك فتك بنا فتكة تركتنا صفر اليدين. فورثنا ونحن قيد الحياة. اذ كان اللص يجمع تركتنا من على المائدة بكلتا يديه تاركًا في نفوسنا اسفا واسى. فبخسر اللعبة التي نكون المتداول فيها قليلا لنربح اثنتي عشرة لعبة نكون فيها كسرا. وكان الجندي عند كل لعبة يرشق اثني عشرة ايمانا وقدرها من اللعنات المبطنة بالايمانات. اما انا فكنت اعض اصابعي بينما كانت اصابع الراهب مشحونة بجمع مالي. ولم يبرك قدسه دون ان يستنفده وانتهى به الامر الى ان فرشا

---

(٤٢) نوع من العاب الورق تدفع فيه ورقة للمصرف واخرى للنقاط وتكون الرابحة الورقة التي تلتقي اولا بشبيهتها من الاوراق التي تسحب من المجموع

خذني الوفض. فسالناه ان يلاعبنا على البسة ولكنه
بعد ان ربح مني ستمائة بليون كانت كل ما
احمله ومن الجندي المئة بليون التي كانت معه،
قال ان ذلك انما هو من قبيل التسلية فقط وان
شلا مسا قربه ولذلك يجب عليه ان لا يفكر
بملاعبتنا من غير ذلك القبيل واضاف بقوله: «لا
تجمعوا فيما ستعذني الخ لاتكل على الله، وما
انه لم يكن عاشر بالمقامرة التي حواها فيما بين
اصابعه ومعصمه صدقنا قوله واقسم الجندي ان لا
يلعب فيما بعد. واقسمت ذلك ايضا وكان الملازم
المستبر اذ انه اعلمني حينئذ برتبته العسكرية
يلعن ويقول: لقد وقعت فيما قبل بين لودرنيسن
ومسلمين لكني لم اجرد مثلما جردت هذه المرة
ما ترامب فكان ضحك من كل هذا. ثم عاد
فاخرج سبحته ليستانف الصلاة. فسالته وكنت قد
تسحت سفر اليدين ان يعطيني ما انعشي به وان
يدفع عنا نحن الاثنين اجرة المثوى حتى نصل الى
شقوبية لاننا صرنا لا نملك فلسا. فوعد بان يقوم

بذلك ثم ازدرد ستين بيضة. وايم الحق اني لم ار قط مثل ذلك ثم قال انه ذاهب ليرقد ونمنا كلنا في غرفة واحدة مع اناس كانوا هنالك لان الغرف كانت مكراة لاشخاص آخرين. ورقدت انا والحزن العميق مستول على نفسي اما الجندي فدعا صاحب النزل واودعه اوراقه مع صناديق التنك التي حوتها وصرة من القمصان المهلهلة ورقدنا بعد ان رسم الرعب على صدره شارة الصليب ورسمناها نحن بعد مستعيذين منه. ثم انعس ونمت مستيقظا افكر كيف انزع المال منه. وكان الجندي يهذي في نومه متكلما عن المئة ريال كما لو انها لم تعد له بعلاج

وحانت ساعة القيام فطلب الجندي ان يؤتي بسراج موقد فاتوه به واذاه الجندي باحضرة كيس الاوراق فاخذ الملازم المسكين يصيح صباحا انه يجب له الدار طالما ان ترد اليه خدمته (21) فاضطرب

---

(21) استعمل المؤلف هنا كلمة Servicio سرفيسيو ولها معنيان: مونة وخدمة. وفي المعنى

الفندقي وإذ كما نلح عليه بان يأتيه بها ذهب مسرعا وجاء بثلاث مناول قائلا. هاكم واحدة لكل واحد. أتريدون مناول أخرى؟ وذلك انه ظن أننا مصابون بداء الزنطارية. وعندئذ قام الجندي وسيفه بيده وجرى وراء الفندقي مقسما انه سيقتله لانه يهزأ به ـ هو الذي شهد معركة تيبانطو، و «سان كنطين» ومعارك اخرى غيرها ـ مقدما له مناول بدلا من الاوراق التي أعطاه اياها فخرجنا كلنا وراءه لنصده وكدنا نعجز عن ذلك. وكان الفندقي يقول: ايها السيد! لقد طلبت مناول «سرفيسيو» وليس علي ان اعرف ان هذه الكلمة يعني بها في لغة الجندية الاوراق التي سجلت فيها مآثر كل

- - - - - - - - - -

الاخير تستعمل في الجمع ايضا للدلالة على سنوات الخدمة التي قضاها الموظف او العسكري وهذا ما قصده الملازم ففهمها الفندقي على المعنى الاخر وقد صح فيهما قول الشاعر «كل يغني على ليلاه» وهذا المشهد كله قائم على اختلاف القصد بين الملازم والفندق في كلمة «سرفيسيو»

واحد، ثم هدأناهما وعدنا الى الغرفة، اما الناسك فبقى في الفراش احترازا مدعيا ان الهلع قد اضر به، ثم دفع عنا كراء الفندق وغادرنا البلدة شطر المرفأ حانقين على تصرف الناسك ومن رؤيتنا اننا لم نتمكن من تجريده من المال

فالتقينا بجنوي (22) - اعنى بهذا الاسم هؤلاء الذين يطاردون المال في اسبانيا مطاردة الامسحة الدحالين للمؤمنين - يصعد نحو المرفأ وورائه خادم وبيده مظلة شأن المتمولين، فانحناد بالحديث لكنه كان يوجهه كله الى الكلام عن الدراهم فكأنهم قوم ولدوا للمال ثم شرع يسمـــى بيزانصـــون ويسألنا اذا كان من الموافق ام لا اعطاؤها مالا، وردد الكلام في هذا الموضوع الى ان سألناه انا والجندى عمن يكون هذا السيد، فاجابنا ضاحكا: انما هى بلدة من ايطاليا يجتمع فيهـا رجالات المال الذين نسميهم هنالك بالمحانين المريشين (23)

---

22) نسبة الى مدينة جنوة الايطالية

23) لعله يريد بذلك الاشارة الى علو مكانتهم

ليضعوا الاسعار ومن ثم سيطروا على المال وقد استخلصنا من ذلك انه في بيرانصون تدار دوقة مرابين. وسلانا عبلة الطريق قاصا علينا انه مشرف على الدمار بسبب افلاس مصرف له فيه ما يربو على ستين الف اسكودو وكان يقسم بكل امر بذمه وان كنت اعتقد ان الذمة عند التجار كالبكارة عند المرأة لعذر د ب ع مما ليس له وجود. ويكاد ان لا يكون لاحد ممن يتعاطون هذه الخدمة ذمة لانهم سمعوا بانها اذا نمت قليلا عضت ولذلك اتفقوا على تركها في المهد.

وبينما نحن نتجاذب اطراف هذه الاحاديث اذا بنا نبصر اسوار مدينة شغوبية فشع نارق من النعمة في نفسي بالرغم عن نعمدي ذكرى ما جرى لنا مع المعلم كبرا لهذه الغمة فبلغت المدينة وعند مدخلها رأيت ابي على قارعة الطريق منتظرا فرقت نفسي لذلك المشهد ودخلت وقد تغيرت

ا كان ذوو المكانة الرفيعة يضعون ريشة في قبعاتهم.

شيئا عما كنت عليه حين غادرتها اذ وصلت اليها الآن ملتحيا حسن الملبس وتركت رفقتي وجعلت ابحث عمن يعرف خالي حق المعرفة في المدينة فلم اجد احدا يبرد غليلي. وهكذا سألت كثيرا من الناس عن الونصو رامبلون فلم يدلني عليه واحد منهم بل كان جوابهم انهم لا يعرفونه ففرحت كثيرا لرؤيتي هذا القدر الوافر من اهل الصلاح في بلدي. وبينما انا في هذا اذا بي اسمع منادي يصيح معجبا بصوته وخالي يقرع بمقرعته ودنت ن خالي كان يسوق جماعة من العراة المكشوفي الرؤوس في طوافهم ويعزف بمقرعته على ضلع خمسة اعواد تحمل بدل الاوتار حبالا موسيقى احدى الاغاني الشعبية التي تغنى في الشوارع. وكنت ارقب هذا المشهد برفقة رجل قلت له حين سألته عن خالي اني من عائلة عينة. واذا بي ازى خالي وزآني بدوره لمروره بجانبي فارتمى علي يعانقني ويدعوني بابن اخته. فكدت اموت خجلا وابتعدت دون ان اودع الرجل الذي كنت

حادثه. وذهبت مع خالي فقال لي: «بمكنك ان ترافقني ريثما افرغ من هؤلاء القوم» فها نحن الان عائدون من الطواف ولا بد لك اليوم ان تؤاكلني اما انا وقد رأيت نفسي على متن حصان واني بين تلك الجماعة اكاد اظهر كواحد من المجلودين وحينه رأى نظره هنالك وهكذا انفصلت عنه وقد اخذ مني الحجر كل مأخذ الى حد اني لو لم يكن استلام تركني موقفا عليه لما كلمه في حياتي ولما ظهرت بين الناس.

وفرغ من قرع اكتافهم ثم عاد وذهب بي الى داره حيث حانت واكلنا

الفصل الحادي عشر

في ضيافة خالي وزائريه وقبض تركني وعودتي الى العاصمة

- -- -

كان مسكن خالي بالقرب من المجزر في دار سفلى فدخلناه وقال لي: ليست هذه الدار بقصر ولكن صدقني يا بن اختي بانها مناسبة لتصريف شؤوني، وصعدنا درجا انتظرت ان ابلغ اعلاه لارى اذا كان يتميز عن المشنقة بشيء ثم دخلنا غرفة منخفضة السقف اضطررنا ان نتحرك فيها مطأطئي الرؤوس كمن يتلقى البركة، وعلق خالي المقرعة في مسمار كان هناك الى جانب مسامير اخرى تتدلى منها حبال وتناتيط وحناجر وخطاطيف وغيرها من ادوات حرفته. فسألني لاي سبب لا انزع عني شملتي واجلس فاجبته ان ذلك ليس من عادتي. والله يعلم على اي حال

كنت حين شاهدت دناءة خالي وقال لي ان جظي
كان كبيرا لالتقائي به في فرصة حسنة كهذه اذ
اني سالقي غداً شيئا وانه قد دعا بعض اصحابه
واذاك دخل في الباب واحد من الذين يطلبون
صدقات لاسعاف انفس الموتى مرتديا جبة بنفسجية
اللون تغطي حتى اخمص قدميه وقال وهو يقرع
الصندوق الذي يجمع فيه الصدقات لقد كان
متغاضي اليوم من انفس الموتى بقدر انتفاعك من
المخلودين. فهات يدك ووضع كل منهما اصابع
يده الخمس على وجه الاخر دلالة على الموافقة
والاتحاد ثم شمر جامع الصدقات جبته عن ساقين
معوجين وسروال من نسيج الكتان واخذ يرقص
سائلا هل جاء كلم عني. فقال ان لا ولكنه ما
كاد يلفظ كلمته حتى اطل علينا في ساعة سعد
«زمار بلوطه» اعني به راعي خنازير ملتفا بقبعته
محتذيا قبقابا. فعرفته ـ حاشاكم ـ من القرن
الذي كان يحمله بيده. ولم يكن ينقصه ليسير

على ما هو مألوف الا ان يحمله على رأسه (1)
فحيانا على طريقته . ودخل وراءه خلاسي اعسر
أزور يحس قبعة يزيد اطارها على لحف جبل
ورأسها على رأس شجرة جوز ويرتدي سروالا
من جلد الجاموس وعلى جنبه سيف مقبضه اكثر
رؤوسا من مصيدة الملك صقورا (2) اما وجهه فهو
عبارة عن نسيج مسرد لانه كثير الندب كأنه
مشرح. فدخل وجلس وبعد ان حيا اهل الدار
التفت الى خالي قائلا وحقك يا الونصو: لقد
احسن الدفع لجلاد كل من التروموو العارسو
فتصدى ذو الانفس قائلا: انما اعطيت انا فلتشيا
جلاد اوكانيا اربع دكات ليهمز الحمار ولا ياخذ
المقرعة ذات الثلاث ضفائر حين جلدت فقال

---

(1) يكنى في الاسبانية بذي قرون من تخدعه زوجته

(2) اتى بتورية في كلمة gavilan فاستعملها اولا بمعنى الحدائد الناتئة التي تحمي مقبض السيف ، وثانيا بمعنى صقر

الجلوار «والله لقد كافأت لودرنو في مرسية احسن مكافأة فقد كان الحمار يسير كأنه يقلد السلحفاة ببطئه لكن ذلك الماكر انالنى المقارع خفيفة تحت لم تحدث لى سوى بعض الانتفاخات في الجلد وذلك فاطعه راعي الخنازير مسححا بقوله: «ان حسبي ما زال تحت الحكر» فقال المسؤول باسم النفوس لنقشعه. ما من خنزير الا ياتي عليه يوم سان مارتين (١) وقال خالي نصالح: «بوسعي ان اعثر على كل من يحملون المقارع ان من وصى به اعامله كما يجب. فمجلودو اليوم دفعوا في سبيل ابيونا وقالوا مني مقابل ذلك مقارع صديق بالمقرعة الوحيدة الصغيرة»

---

(١) يقع عيد القديس مارتين في 12 نوفمبر التشرين الثاني) وفي هذا اليوم كان يبدأ ذبح الخنازير المعلوفة لتقدد لحومها لفصل الشتاء. فبقى مثلا قولهم ما من خنزير الا ياتيه يوم سان مارتين اي ان كل واحد لا بد ان تأتيه مصيبة ما عاجلا او آجلا.

اما انا وقد رآيت ما هم عليه من النبال احمدقاء حالي فاعترف بان ماء الحياء ورد وجنتي بحيث لم استطع ان اكتم خجلي ولاحظ ذلك علي الحلوان فقال «والدك هو الذي جلد منذ ناده» فقلت ان والدي ليس ممن يعاقبون منهم وحينئذ تصدى حاتي للكلام فقال: «انه ابن اخي وهو استاذ في القلعة وذو مقام رفيع هنالك فاعتذروا الي وعرضوا علي كل عطف ومساعدة وكنت في باطني احرق على ان آكل واقص درسي وابعد عن حالي.

ثم مدوا الخوان واصعدوا الطعام من مطعم زرى قائم وراء الدار بربتاء لف حول قصعة كما تصعد الصدقات الى المساجين في نقانا قصاع واباريق ودنان لعبت بها ايدي القدم وأبى لاحد ان يصف غمي وعاري! ثم جلسوا حول الخوان وتصدر المسول واحتل الاخرون مقاعدهم دون ترتيب ولا ريد ان ادلي بما اكلناه وانما اقول ان ذلك مسي كان مما نشرب، فجرع الجلوان ثلاث كؤوس

من النبيذ الاسود. اما راعي الخنازير فحين رآني على تلك الحالة اخذت بده تناول الابريق من يدي على الطائر وتجرع من الكؤوس اكثر مما تفوه به سفاهنا من الكلمات ولم تخطر اثماً على ذهن احد ولم يكن لاحد رغبة فيه

ثم ... فوق الخوان خمسة اقراص من الحلوى من ذوات الاربعة دراهم. فتناول احدهم مرسة ما المقدس وبعد ان ازالوا من الاقراص العجين المصفح تلوا صلاة قصيرة ختموها بالدعاء وتمنى ... الآلهة بنفس الثبت الذي اخذ من جسمه لحم الاقراص (1). وقال حولي: لا شك انك تتذكر ... حتى ما كتبت اليك بشأن ولذلك فعاودتني ذكرى ما في تلك الرسالة. واكل البقية اما انا فاقتصرت على تناول اسفل الاقراص وبقيت تلك العادة عالقة بي ولهذا ما زلت حتى اليوم حين آكل

---

(1) راجع ما قلناه سابقا في الفصل السابع عن استعمال لحم الموتى

اقراصا من الحلوى اتلو «السلام عليك يا مريم من اجل نفس من احذ لحم الاقراص من جسمه.
وامتدت الايدي مرة تلو مرة الى اناءين من الخمر وتلع بالجلوار والسائل ما حرعاه ان قال احدهما وقد حضرت صحفة من النقانق المشبعة بالاصابع السوداء انه ماذا تؤتى نابحيرة مطبوخة وكانت حال حالي حيث انه مد يده وقبض عن واحده منها فتلا - وقد خانطب المحه صوته وترن احدى شبيه بيما كانت اخرى تعوم في تسرف - ... احسى: بحق هذا الخمر الذي خلعه رب على صورته ومثاله لم آكل قط لحما مطبوخا الذ من هذا ... فحين نصرت الخارج ... وتناول الصحفة قائلا ... من هذا ... الخنازير ... في فمه فقال ... ما احسبه ... احدث ضحك من جهة والملتف ... من جهة اخرى وانى ... فتناول السوال صحيفة من ... قائلا: ان الله قد بارك النطاقة، وبدلا من ان

بجذعها على نفسه ليحنسيها وضعها على خده ثم قلبها وإذا به يشوى بذلك المرق. واصبح كله من اعلى رأسه إلى اخمص قدميه على هيئة مزرية وحين شاهد نفسه على هذه الحالة حاول ان يقف ولكنه احسن بثقل في رأسه فسقط على المائدة ـ وكانت من الموائد التي صرت بسيولة ـ فقسمها ولطخ الاخرين. وبعد هذا كله ادعى ان راعي الخنازير دفعه. وإذ رأى هذا ان الاخر ساخط عليه ولاحالة قام بدوره ورفع القرن وضربه به ضربة ثم تماسكا بالايدي. وعض المتسول راعي الخنازير في خده، وحيث كانا متلاصقين اذا بهذا من جراء المهارش والسقوط بقيء في وجه المتسول كل ما كان قد اكله.

اما خالي وكان اكثرهم تمالكا لنفسه فصار يسأل عمن جاء الى داره بكل هؤلاء الاكليريكيين، وحين رأيت انهم صاروا يضربون في الجمع (5) اعدت السلم

---

(5) كناية للدلالة على انهم في حالة سكر لا يعون ما يقولون فكأنهم في عملية الجمع يضربون الارقام بدلا من ان يجمعوها

الى نصابه ثانية . وفلت كلبهما من يد الآخر وزمعت الجلواز الذي كان منطرحا على الارض يبكي بحزن عميق . ودفعت بخالي الى الفراش فما كان منه الى ان ارتمى على مائدة ذات قائمة واحدة ظنا منه انه احد الضيوف ونزعت البوق من يد راعي الخنازير الذي لم اكن لاقوى على اسكاته بعد ان رقد الآخرون اذ كان يصبح مطالبا ببوقه قائلا انه لا احد يعرف ان يصيح به خلافا لمن لا يعرفه هو وانه يريد ان يعرف الارض واخيرا لم افارقهم الا بعد ان رأيتهم نائمين وخرجت من الدار وقضيت ما بقى من النهار في الاطلاع على اراضي . وعرجت على دار المعلم كاتر فقيل لي انه توفي ولم احتج الى السؤال عن سبب وفاته لعلمي انه لم يبق في الدنيا شيء يسمى جوعا

عدت الى الدار ليلا بعد ان قضيت خارجها اربع ساعات فوجدت احدهم مستيقظا يدب على يديه ورجليه في الغرفة باحثا عن الباب وهو

بقول انه قد ضاع الدار فانهضه وتركت الاخرين
نائمين حتى الحادية عشرة ليلا واذاك استفاقوا
وسأل احدهم وهو دهش : كم الساعة؟ فاجابه
[illegible] خمر [illegible] ـ [illegible] السكر [illegible] ـ [illegible]
[illegible] في [illegible] القيلولة [illegible] الحر [illegible]
وطلب المسؤول [illegible]
[illegible] الشمس [illegible] وبدأ من
ان يقصد الشباك [illegible] النجوم
واخذ يصيح مناديا الآخرين قائلا ان النجوم طالعة
في رابعة النهار وان الشمس قد كسفت كسوف
[illegible] حسبه علامة [illegible] الارض
اما انا فعند ما انصرفت [illegible] المسؤول خامرني الأسى
وعزمت على الاحتراز من امثال هؤلاء القوم وكنت
كلما شاهدت هذه المنكرات و [illegible] ازددت
في الرغبة بان ارى نفسي بين قوم اشراف ونبلاء
فصرفتهم واحدا واحدا كما ساعدني الجد وارقدت
خالي الذي لم يكن ليزايله الفكر وان زايله السكر

وتمددت انا فوق ملابسي وبعض الملابس الاخرى التي اراد الله ان نكون هنالك

وعلى هذه الحالة قضينا الليل وفي الغد حاولت مع خالي ان اتعرف على تركة والدي واستلمها حالا مدعيا انني مضى ولا اعرف السبب. فسطا رحنه ثم نهض ونحادثنا في شؤوني وقد اعساني الامر لان خالي رجل كسر السذاجة والاتمان عن معاقرة الخمر والخمر فعمه بان علمي بمصمم فيه من دروس – وان لم تكن كلها – وهكذا علمي بثلاثمائة دكة رجعها المرحوم والدي بيديه و ودعها عند امرأة خيرة كان تسرق تحت كنفيه في ما امند حولها من هذه الكورة على بعد عشرة فرسخ

وحلاصه القول ولئلا نعب حضرتك بالاسباب اسلمت مالي ولم يكن خالي قد سرته ولا انفقه فكان قدرا وافرا لو قبس بعلة عقله لانه كان تؤمن ان استعمله للدرس والحصول على شهادات عالية وان ابلغ بذلك رتبة كردينال، لاعتقاده

بسهولة بلوغها اذ كان هو بنيلها بمقارعه دون جهد (6) وحين رأى المال بين يدي قال: يا بني ان لم تصلح نفسك وتسلك جادة الخير والصلاح فعلك سمعة كبيرة لان لك من نقتفي اثره. وبين يديك مال وافر لك في كل حين وكل ما عندي و... فما هو لك فشكرته شكرا جزيلا على هذ السخاء وقضينا الدهر في حاديث لا طائل ورائها وفي رد الزيارة للاشخاص المذكورين سابقا وامضي خالي العشية في لعبة عظم العرقوب (7) مع راعي الخنازير والمتسول وكان هذا يراهن على

---

(6) استعمل المؤلف هنا جناسا لا يمكن ترجمته بكلمة كردينال، اذ لها معنيان في الاسبانية: الرتبة الدينية المعروفة وهو المقصود اولا، والكدور التي تسببها في البدن الضربة الشديدة وهو المقصود ثانيا

(7) لعبة تقوم برمي عظم العرقوب في الهواء فاذا سقط على الارض وثبت على جانبه الضيق ربح اللاعب.

القداسات (٩) حسن يراهن على اي شيء آخر وكان مشهدهم وهم يتداولون العظم مما يستحق ان يرى: اذ يتناوله رامية من الهواء وبعد ان يهزه في قبضة يده يدفعه الى الآخر وكانت لعبة العظم تغنيهم بديلا عن لعب الورق ومنها يستخرجون م يقابلون به معمل العطش لأنه كان يتخلل المراهنة دائما ابريق من الخمر.

حل الليل فذهب الآخران ورقدنا نا وحتى ك في سريره اذ كان قد جهز لي فراشا وحين اصبح الصباح نهضت من قبل ان يستيقظ وذهبت الى فندق دون ان يشعر بي ثم عدت واغلقت الباب وشددته من الخارج ورميت المفتاح الى الداخل من ثقب صغير تمر منه العقدة

ولما فتت سابقا ذهبت الى فندق لاحسي وانتظر فرصة مناسبة لانتقل الى العاصمة. وتركت في الفندق رسالة مختومة اخبره فيها بذهابي وسببه واوصيه بالا يبحث عني لانني لن أرده فيما بعد.

---

(٩) اي على جعل القداسات

الفصل الثاني عشر

في فراري وما حصل لي خلاله حتى بلغت العاصمة

في ذلك الصباح كان يسافر المكاري سوى حمار بقصد حمولة الى العاصمة. وكان معه حمار فاكتريته منه وخرجت انتظره امام الباب وما ان خرج حتى امتطيت الجحش وبدأنا نقطع تلك المرحلة. وبينما نحن سائرون كنت اردد في باطني قائلا: ألا فابق هنالك ايها الجبال، يا عارا على الصالحين وفارسا على الرقاب.

وكنت افكر في انني ذاهب الى العاصمة حيث لا احد يعرفني — وذلك خير تعزية لي — وانه لا بد لي ان اتكل على حذاقتي وحدها. وعزمت على ان انزع عني هنالك ملابس الطلاب الطويلة واستبدل بها اثوابا قصيرة على زي العاصمة

ولكن فلنرجع الان الى ما عمله خالي بعد ان
ابلغه الاهانة التي تتضمنها الرسالة التي بعثها
حسين خالي.

رسالة

حضرة السيد الونصو زماوين: بعد ان انعم
الله علي بنعم عشاه كبلبه من امام عيني والدي
كرمه وابداعه والدني في خلطتة ـ من حيث
على الاقل اعرف انه ليس حرج بيا ـ ـه حق
ليـ ـ ـ ـ من بعده سوى ان بفعل ذلك به بعد
دنعيرـ وعلم اني اريد ان اكون وحيد سلالتي
ـ ـد من المستحيل ان بكون منها اثنان ـ ما ليه افع
بين بديك ونقطعي كما عهدت بالاخرين فلا
تسأل عني لاني منكر ما بين من قرابة واحدة
لك والله

ولا حاجة الى الكلام عما قد يكون حصى
ـه من قرص القول ورميي به من سب وشنيعة
ولنرجع الى ما وقع لي في طريقي: فقد كنت

'سير ممتطيا حماري المنشاوي (1) متمنيا الا التقي
ناحد وإذ بي ارى من بعيد نبيلا يقبل رهوا وقد
لغي عليه معطفا ونقلد .يفا ولبس سروالا يبلغ
الركبة واحتذى حذا بغطي الى ما فوق ساقيه.
فير حسن الهندام. وكان طوقه مفتوحا وقبعته
منحنية الى احد جانبي رأسه. فظننت انه من
ندر وانه نزح عرضه الى الورا فادركته وسلمت
عليه فنصر الي وقال. انك يا حضرة الاستاد
تسير على متن هذا الحمار اكثر اطمئنانا وراحة
مني على هذا الجهاز. فاجبته وقد فهمت من قوله
انه يعني بذلك العربة والخدم الذين تركهم الى
الوراء: حقا اني اعتبره اهدأ من ركوب العربة
التي - وان كان جنابك قادما بكل رفاهة في
العربة التي تركها وراءه - اجد ضيقا كبيرا في
تمايلها من جنب الى جنب فقال مضطربا -ايه

---

(1) نسبة الى "المانشا" وهي مقاطعة اسبانية.
والنبها ينسب دون كيخوطي بطل قصة سرفانطيس
الشهيرة

عربة نعني؟ وإذ التفت إلى الوراء بعنف سقط سرواله لأن التكة انقطعت ولم يكن لديه سوى واحدة. فكدت أموت ضحكا من ذلك وحينئذ سألني أن أعيره تكة، أما أنا وقد أبصرت أنه لا نرى من القميص إلا كفتها فقلت: بالله عليك يا سيدي! إن لم تحضر حدك فلن أقوى على مساعدتك لأنه ليس لدي سوى تكة واحدة فأجاب وهو يشد يده على سرواله الذي قد عبر مفصل على قامته وإن كنت تمزح فلا حرج لأنني لا أفهم ما تعني ناشزتك في الخدم وأفصح لي عن حالته - في باب الافتقار - إلى حد أننا ما كدنا نقطع نصف فرسخ حتى اعترف لي بأنني إن لم أسمح له بركوب الحمار فلن يكون له سبيل إلى بلوغ العاصمة لإعانته من السير ساداً بقبضة يده على سرواله. فداخلت نفسي الرأفة ونزلت عن الحمار وحيث أنه لم يكن بوسعه أن يفلت السروال فقد حضرت الذرعة وأركبته وقد هالني ما أدركته من مسكنته: وذلك أن اللطف لم يكن له من

طاقة في ما عطله من العجز سوى الله نفسيها
فقال وقد احس بشيء رأى منه ذلك بما حضره
لست ادرى من كان ساع لذهب وما ملك الك حين
ضرب طوفي مفتوحا وحسن هندمي حسب اني
من اسياد الكوندي دي لرلوس (2) قاه الى هند

(2) الكوندي دي ارلوس - هو ...
... وقد وصفت قصة ... حول ...
... له ذهب ... نبيل ... الذي
... عند ... له ذا ...
... يوم ... رجع من ... منها ...
... حتى ... فبعد مرور خمسة عشر عاما
على ... احاره عند ... سلسوس ...
... الكوندي ...
بالكوندسا زوجته مستعدة ... زواجا ولكن
الكوندي دي ... رجع بعد ان قام بمغامرات
خطيرة ... ولكن
الامبراطور والاشراف تدخلوا في الامر واصلحوا
... وعملوا على استرجاع الكوندي

العجمي الفصيح معنى السر فيما ذكرناه في هذه
[illegible] وقوله مؤكداً [illegible]
[illegible] وما رأيته حتى الآن [illegible]
هذا كله [illegible] حتى الآن [illegible]
[illegible] في [illegible] مما في معنى فيها [illegible]
في سرعة حاصلها من [illegible] في [illegible]
معنى كما [illegible] لشرف لما كان [illegible]
[illegible] حصره لا [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible] على الناس [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

وليس بوسع من لاسيّ عنده ان يكون من طبقة
الاشراف (١٥) وقد ادركت فيه صعلوك اسرة
حين رقص ذات يوم وقصته طاوا صاحب مطعم
ددى ن برسه معاني سرجس من الحم مدعما
ب س مه ح وف مدهبه ولكن ان يكون
مدغ في خمد حرمه في الحروف وكسر
هذه ومع هذ كمه ف الحروف قد قليله وبعد
عن حى خنى سى له سوى م قع عنده
(١٦) في بروده وليس عورسو رود بعس

---

(١٥) ... قطع عنده
... مكن ... هذا ...
... في ... وفي ... الاطال
(١٦) ليس ...
... على ... وعاد اسس العربي لا
... بروى ... وقد عمر المؤلف حماسا
حد واحد اسل بمعه الجمعي لا انجاري فكانت
...ه ايه حاجه ذلك المرتبه الى المجد لانه
ان يكون ... ما يكون فوقه

ىالنحو عوعسى ـى اموىرو ـ اذا كان حمل
كل هذه لسم ـ قد فقدت كلها في كفاءة قدمه
ولم سو ي ما سعه سوى عن صوت ولكن
سو حالي لا حد مر حدح اله لا مر ىس
حياه قد ه اسمه حمله و حامه نس هو الحال
في ارمدون و اسدون، و بودون و ـ ادون
و بورثون وعيرها (7)

ا كلمه اصوت معه ا ـ وكـ ـ في
و ـ ه ـ عىر خـملي سعـ ـ ـ و ـ ـوى
دعـ ـ رقعه ـ ـ مع سعماىها في حد اوحى
معمول الهب حي عسرة مـ ـد عهد لـوت
كـ تولكس وفي عد' سر مؤمـ سوه ه
محد حد حده ـ ه لى وع اس ـاحده حعر
مع محدوه وقد سوى سهـ ـه ر ه ـ
حمله كىعص امام ـ ه حمده في حسده وـ ـ
حاً ىعده مسه ومعىها اما اى ارمدون ى
مرقه ا ـ دو ـ ا ى حلاً ـ سودون ا ى ا ـدـ
لكن ـ ـ ـ ا ى ـ ـ ـ ب ـ و دو ا ى هكار

واني لاعرف بان لانا هذا السال وان
مروده الاصاحك قد لدي وسرحت خاطري
فسا ء عن ٥ وق ر هو ذاهب ولذا فعا
ب حمر كل اسه سه وهي عسون حور ـو
يود عسى ـ سحو عومس ى موبرو ى حوردان
وحو شا ٥ ـ ر قص سه اكمر عسا ئه
.. صوب وسبي لدى للدوى خرس

وحري عد ست .. هب ي عاصمة
ي ستك محمد حاد ـسه في درد صغيره مد
سه محده مسا على عد يومين وهو لا عي
حدث معه ـ يهو سه ـ مسـ ذهب ي وحي
مسيرت حب سبع نحد محيح وحب بعين

-

م عمر اصوا فسعمل يوم بدوى تخلفه
نوبضه ي وعه ووضع قر اسم مسوقا كلمه
اسمو ا

هما ون مسرف و ا عدا لاتعاب فاس
حب مه مه من ذمه وعاله ث و الصعصه
مسيرـه

نسرنده نحد مو ـد مسوته كل فاء و صاف
عوله ما دخلها فيه وحلف حربي من ماسه
ـموں و حرمـ فرانا سرحوفه او مثده امد
ـى حب اومن سعه ـه هو محرم لان محاره و
نعصه ه كذا لسر حوزكان ما ممسه دهما اما
انا فرأيت اعرج حي كلمه وحوله سحه من
ـ ـ دوي محرـ ـ عض علي الله ومع
من عسق و العاصه من هم على ساكنه ... كون
سما ان الامر على ـ حصري تسـ ـ و شعد
ـ ـ عصرون على ـ هو هم وـ لمسون
ـا عو لعمر فقال ـمر هذا الحصف ـاصحـ كمـ ون
وادلك من اصحب الحر وعوا الغو معسح
محب شيخه كـ ـنوـ و مد عده الكه
وى ارث ال لا علو علمت كلمي فاسمع ى
حوادي وحسى فلمر من كـ ست

الفصل الثالث عشر

وفيه نوضح أشرف البشر وما وعد به

من فضل حياته وعاداته

— —

[illegible] يعرف [illegible] في [illegible]

[illegible] وعليهم [illegible] وفقرهم [illegible] فيها

[illegible] الأمور [illegible] وهذا [illegible] الأسرار وحقي

[illegible] فهذا [illegible] من الناس على ما كلي

[illegible] يعرف [illegible] مثل [illegible]

آخر [illegible] وإنما [illegible] فيها [illegible]

[illegible] والبعض

[illegible] وكلس

والحلة [illegible] يكون [illegible] المطاوى

لأن [illegible] العظمى

[illegible] المطاعم وصوف بالعسل

وحين قوم بأكل الأكل وظهر أنه ذلك مسمى

فدخل وحد درب مزور فتجد مس كسا ملاى
عشاء العصاير والصور وقسور العوكيه والات
مسدوه بيس لخرتو وحلودها وان هذ حجعه
من سد الا يعتصر ه نهار وحس بلحب
الصعف سارع وسد سسا فعول احدنا امن الممكن
ان لا تكون ى سلطه كافيه لاخر هذه العماه
على الكنايه فحسه لاح عفو بسطى فال
بعض الصحب . صو ه . وهو الخدم الخ
ومن لا عرفنا حق معرفه معانى شده لحسه
وعمه ن امر لنا مسه وتعدو ما انفسه ومه

ما على احساسا على اخر فى حوب و .
محدث و . حرج . سا لا كاد سكه يح محى
عمق عرد ن عند ا دره فقصده . ما ش مشه
لكن . حو عرف ـه على مده . فه ن
ن عد وه حلس فصدق وان ... عر كا
ف اثو ـه عدّه حسب ن . ومى شعه .
سعر لعود امه لان هد لنصار حر عسب
العا صسس مرا شدده واذ كانو مد دآو

..

'جنا ان بلى. وان كان رب البيت يجيد قد
الخبز او الخمر او اللحم او اى شى' كان فاننا
نقول بجادا لعرصة نردد فيها لقمة ما: ،والان
فلنسمح حضرتك اد يبدا، قوم نمر مدنك بمهمة
حادم الخون معد كان من عادة ــ وهنا ندكر
سه وحـ مر الاسرف لموفن ،وكي او كوندي ــ
سكده نه نجه ان سعه روني فطع كمر مسه
ـالكر، وما نفرغ من هده الكلمات حتى نساول
لسكين ونقطع نعص اللقم، وبعد قليل نقول: ما
حسن رائحته! حال: ان لم اذقه هنت الضياحة.
ما ـرع ندها ونرفق القول نالعمل وهكذا بدهب
نالتجربة نصف لصحفة اللحت لانه لحت والشحم
لانه سحم وكل شي' لانه هو
ومتى فقنا هذا الامر فاذا نجد قصعة مرور
من احد الاديرة لكنما لا نتناوله جهارا بل حفية
حمسين الرهبان على الاعتقاد بان دلك من جانبنا
نقشف كثر منه حاجة
وما احمل ان برى احدنا في احـدى دور

التعب وما يبذله من عناية في الخدمة فرادى بقرب الشموع وبعي بالشاول ويبسط الاوراق ويدبزنف الى الراتب. وكل هذا للحصول على بلدون حلو ا.

ويحفظ عن ظاهر قلبنا س بصبب كثر وجد ما من مجموعة البسننا القديمة. وكما ان في مكنة اخرى ساعة معينة للصلاة لنا ساعتنا للرقى وما عرب ما نقوم به حينئذ: وحيث ان الشمس عدونا اللدود لانها تفضح مرقعاتنا وعوراتنا وحرقه فاننا نقف صباحا مفتوحي السفار تحت شمس على الارض متدرسه من كل الخرق والجيوب متدلاة من المرقع المضافه الى السروال في ما بين الساقين. فناني يمقص على الجبه. ويما ان هذه الرقع دسك ... فتلك ... من ... من التحسينة التو ... ثبة تضيفها الى القسم الامامي. وبذلك من عادتنا ان نكون بالكفار تحميه نقاشة تحت ... وليس عليه الا عساوة رقيقة من الصوف والعرق عن الالتعطف وتحرز من الانام الرحة وعن صعود الادراج المسببرة ومن ركوب الخيل. وندرس وضعه

تحرسنا من الضوء ففي الايام النيرة نسير والساقان متقاربتان. وحين ننحني للسلام لا نحرك الا الكعاب لانه لو انفتحت ركابنا لشوهدت من سراويلنا نوافذها العديدة. ولا شيء على اجسامنا الا وقد كان من ذي قبل شيئا آخر وله قصته مثلا كنت ترى هذا اللباس القصير ذات الكمين فقد كان سقفا سروالا ومن قبل معطفا وفي نادي المراقبة. وهو ينتظر الآن ان ينقلب باطن جورب وعدة اشياء اخرى غيرها (1) اما الخفاف

---

(1) واشتريت ملاءة مذارية فلبستها ما شاء الله رداء وملحفة ثم احتجت الى طيلسان فقطعتها ولبسته ما شاء الله ثم احتجت الى جبة فجعلته ظهارة جبة محشوة فلبستها ما شاء الله ثم اخرجت ما كان فيها من الصحيح فجعلته مخادا وجعلت قطنه للقنادبل ثم جعلت ما دون خرق المخاد للقلانس وجعلت السقاطات وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف صماما لرؤوس القوارير.
الجاحظ - كتاب البخلاء ص112 طبعة ليدن 1900

فتكون قبل مناديل مقلوبة عن مناشف كانت سابقا
اقمصة بنات ملاحف وبعد هذا كله نستعملها
كورق وعلى الورق نكتب ثم نحوله سحيقا نحيي
به الاحذية، فقد رأيت هذا الدواء يشفي احذية
لم تكن يرجى لها حياة. وما اقول في فرارنا من
النور ليلا لئلا ترى معاطفنا الصلعاء وارديتنا الجرداء
اذ ليس فيها من الشعر اكثر مما في الحصاة. ولا
ادري ما هي حكمة الباري في منحنا الشعر في
اللحى ونزعه من المعاطف. ولكي لا نساحر
حجامين اتفقنا على ان نصبر دائما الى ان يطول
شعر واحد آخر منا واخذنا نتبادل الاثنان نزعه
عملا بما جاء في الانجيل وتعاونوا كالاخوة البررة
ونحترس من ان يشأ لواحد منا ممازل الاخرين
حين نعلم ان واحدا يتعامل مع نفس القوم الذين
يتعامل معهم واحد آخر وما ادراك بالغيرة بين
البطون!.

من واجبنا ان نجول في الشوارع ممتطين
جوادا مرة في الشهر وان نكري جحشا وان نركب

سرد [illegible] السه [illegible] نكى في مؤخرها وذكر

[illegible] في [illegible] مره وما [illegible] بعد

[illegible] وسير [illegible] ناد [illegible]

[illegible] ل [illegible] اصحاب

[illegible] اخرى

[illegible]

و [illegible] محمد [illegible]

[illegible] رؤوس [illegible]

[illegible] في [illegible] في [illegible]

[illegible] مكان [illegible]

[illegible] وحكه

[illegible]

[illegible] في [illegible] اعاده

[illegible] العدس في

[illegible]

[illegible] في [illegible]

ونحلت

[illegible] فدوس

ومن [illegible] عن [illegible]؟ قال [illegible]

[illegible] وحد [illegible] عن [illegible]

[illegible]

[illegible] و[illegible] [illegible]

[illegible] أساده أما [illegible]

ما [illegible]

وبما [illegible]

[illegible]

[illegible] عن من [illegible]

[illegible] معالم [illegible]

[illegible] و[illegible] [illegible] الاسب [illegible]

[illegible] الذي [illegible] عن [illegible]

[illegible]

[illegible] أصحاب [illegible]

ومن [illegible]

[illegible]

[illegible] ومن [illegible]

[illegible]

الاسناد ان الشريف يمكن ان تنقصه هذه الامور
كلها اما الطوق المنشى فلا، وذلك لان الطوق
مفتوحا رتبة لمر؟ وافرة ولانه وهو منشى يصلح
فوبا من ان دس على جهمه، اد بسلى المرء
و [illegible] اد سراتة واعلم حاما با حضرة
[illegible] الشريف، حب ان تجاوز عددحاجاته
مهر الشديد لحلى في الشهر التاسع من الحضر (3)
وي عند كبه بعد في العاصمة سوا [illegible] الان
و [illegible] ام في المستشفى ولكن
و [illegible] ومن حسن التصرف فهو
ملك مهما عن ما [illegible].

ان السبل العجيبة التي دسلكها ذلك الشريف
العسر اخذت دمجامع لبي وسحرتنى الى حد اني
وصلت وانا اليوم راجلا الى لاس روثاس (4) حيث

(3) دستعمل المؤلف هنا حناسا في كلمة faltas
فمعناها الاول العوز او الحاجة والثاني امتناع الحيض.
(4) لاس روثاس Las Rozas اسم بلدةمن مقاطعة
مدريد على مقربة من الاسكوريال

قضينا تلك الليلة ونعشى الشريف نمعيتى اذ لم يكن لديه فلس واحد وكنت من ناحيتي مدينا له بنصائحه لي لانه فتح عيني بها الى امور كثيرة ومالت نفسي الى المحال فاعترفت له عن رغبتي قبل ان نفترق . فعانقني مبتهجا قائلا انه كان يؤمل ان نفعل ذلك لانه فعلها في رجل عاقل مثلي وعرض على ان يعرفني في العاصمة بعدة اخوان المحال واقاربه كلهم في البلد التي يسكنونه فقبلت عرضه ووعدته بالدخول التي كان احبتها ثم اقتصرت على كلامه بالثقة درهم فحسب وقد كانت هذه الكلمة مع ما قلته واقلده من همم كافة لكسب مودته.

فاشتريت له من رب المثوى ثلاث دجاجات فرحت بسروره بها ونمنا تلك الليلة ثم تحركنا فلعنا مدريد باكرا.



الكتاب الثاني

من حياة الشاطر

الفصل الاول

في ما وقع لي في العاصمة منذ وصولي حتى المدل

على الساعة العاشرة صباحا بلغنا العاصمة وحسب الاتفاق قصدنا دار اصحاب خوجا طوبيس منزلها وحين وصلنا الى الباب قرعه ففتحته عجوز هرمة سمته الملس. فسالها رفيقى عن الاصحاب واجابته بانهم ذهبوا يتنزهون. فبقينا وحدنا حتى الثانية عشرة وقضينا تلك الفترة من حياة اساي على احتراق حرفة الشعر الرخص واقبالي على كل ما يقوله لي وعلى الساعة الثانية عشرة والنصف دخل الباب طفل يرتدي جبة من الصوف الذي تبلغ قدميه وقد فاقت جبابه رثاثة. فتحدث لاخوانه عن الخوجة واخبر حديثهم عن معاملته لي وعرضه خدماته علي ثم تكلمنا قليلا وخرج قافزا مع ستة عشرة تلميذا وسالة جميعها ذوا اعضائها قائلا

انها برداة للاستجداء من اجل احد الفقراء. فافرغ القفاز واخرج واحدا آخر ثم طواهما على عادة الاطباء. فسألته لماذا لا يلبسهما فاجاب لان الاثنين ليد واحدة. وانما حمله اياهما حيلة ليتال ان لديه زوجا من القفافيز. واثناء هذا كله لاحظت انه لم يزل ملتفا بمعطفه فسألته - كمستدي يريد الاطلاع - عن سبب اشتماله لدائما داخل معطفه فقال:

يا بني. في ظهري ثقب واسع تحجبه رقعة من الصوف ورقعة من الزيت. وهذا اللثام يغطيها كلها وهكذا أقوى على التجول، ثم فتح المعطف ورأيت ان تحت الجبة شيئا ذا حجم كبير. فظننت انه سروال اذ كان مظهره شبيها به لكنه حين شمر ليدخل فيتفلى اذا بي ارى انهما دارقان من الكرتون ربطهما بنطاقه واحكمهما على ساقيه تحت كسوة الحداد بحيث تخدعان الناظر لان صاحبنا لم يكن يلبس لا قميصا ولا سروالا ولذلك كاد ان لا يكون له حاجة الى التفلي

اذ كان على مقربة من العرش. ودخل المتولي (1) وقلب لوحة كتب فوقها «في الداخل متفل» فلا يدخل واحد آخر. فحمدت الله حمدا وافرا على تعويضه الخلق بالشطارة مما يمنعه عنهم من الغنى وقال صاحبي بدوره لقد افلت وانا مصاب بداء السراويل (2) وعليه فلا بد لي من الانصراف الى الترقيع، وسأل عما اذا كانت هنالك بعض الرقاع فاجابته العجوز - وكانت تمضي يومين من كل اسبوع في جمع الخرق من الشوارع كما تجمع غيرها الورق لاحياء ما لا يرجى له شفاء من امور الفرسان - ان لا وان ضون لورنثو دبيعيث دل بدروسو اضطر الى ملازمة الفراش خمسة عشر يوما لاصابته بداء الاقمصة (3) وفقد الخرق

وبينما نحن في هذا الحديث اذا برجل يدخل علينا محتذيا حذاء السفر ومرتديا كسوة شهباء

---

(1) موضع التخلية
(2) اي ان سرواله مقطع
(3) اي لا قميص عنده

اللون وعلى رأسه قبعة شد اطارها من الجانبين الى عل. وحين علم من الاخرين بقدومي اقبل علي وكلمني بعطف كبير. ثم نزع عنه المعطف واذا بثوبه ـ وتأمل رعاك الله ان كان هذا يخطر على بال احد ـ نصفه الامامي من الجوخ الاشهب والنصف الوراثي من الكتان الابيض وقد تبلل باطنه من العرق. فلم املك نفسي من الضحك فقال الرجل مخفيا غضبه: احمل السلاح (4) ولن تضحك. واني أراهن على انك لا تعرف لاي سبب جئت بهذه القبعة مشدودة الاطار الى عل. فقلت انه يفعله تظرفا ولفت الانظار اليه قال: «لا! بل لحجب الانظار واعلم اني اعمل ذلك لان القبعة لا شريط يحيط بقعرها. وهكذا لا يرى ذاك النقص وبعد ان فرغ من حديثه اخرج نيفا وعشرين رسالة ومثلها من البلابين قائلا انه لم يتمكن من ابلاغ تلك وكان مع كل واحدة من هذه الرسائل بلبون اجرة حملها وكان صاحبنا يكتبها بيده ويضع في

---

4) مثل اسباني يراد به ان «اعمل ما اعمله»

اسفلها امضاء من احب. وكان يكتب رسائل جديدة يختلقها الى اشخاص محترمين ويسلمهم اياها وهو بذلك الثوب ويقبض اجرة ايصالها. وهذا ما كان يفعله كل شهر فهالني ما رأيته من جديد في شؤون الحياة (٥)

---

(٥) وقد وقع كبيدو نفسه مرة في حبال هذه الحيلة التي نصبها له احد الرهبان اذ وصلته نسخة من كتابه رسائل فارس الكلابة . وهذا نص الرسالة: لقد ضاعت الرسائل التي الفتها عن فارس الكلابة والاساليب الكثيرة والوسائل المختلفة التي تقترحها ليتخلص الرجال من هجمات النساء لكني لم اجد وسيلة واحدة نتخلص بها حضرتك من دفع درهمين اجرة ايصال هذه الرسالة فتلك العبرة وخذ علاجا آخر اي افارسك والالتفات كلامه قصيرة حفظ الله لك روح المزاح والصحة خلال سنوات عديدة هنيئة واراني اياه . "الامضاء: الدكتور فراي بنيطو برناردو دي موراليس، على

ثم دخل اثنان آخران احدهما يرتدي قباء من الجوخ يغطي حتى وسط سرواله ومعطفا من الجوخ ايضا وقد رفع الطوق لئلا يرى الخيش الذي كان ممزقا اما السروال فكان من اللباد. ولكن لم يكن من اللبد سوى ما يرى اما البقية فمن البقايا الاخرى. وقد دخل صاحبنا هذا وهو يزعق مع واحد آخر يلبس رتيقة بدلا من الطوق ويحمل بعض العقاقير لانه لا معطف له ويتكىء على عكاز وقد لف احدى ساقيه باسمال وجلود لانه لم يكن له سوى نصف سروال يغطي ساقا واحدة. وكان يتظاهر بالجندية وفي الواقع كان جنديا ولكن من اسوأ الجنود وفي امكنة هادئة وكان يتحدث بخدمات غريبة أداها. وبصفته جنديا يدخل اي مكان شاء. واذ قلما كان ذو القباء والسروال يقول: تمنيت ان تعطيني النصف او على الاقل قسما وافرا فوالله ان لم تعطني... فيجيبه الاخر بقوله:

الهامش «سان برناردو» سنتياغو دي غاليسيا في 17 يناير سنة 1619»

«لا تحلف باسم الله. واعلم اني حين اصل الى الدار يزايلني العرج فاذيقك طعم هذا العكاز» وبين اخذ ورد وما اعتادوه من تكذيب واحدهم الاخر هجم احدهم على الثاني وتماسكا. وعند المشادة الاولى خرج كل منهما باسمال الاخر في يده. فوقفنا بينهما وسألناهما عن سبب الخلاف. فقال الجندي: أمزاح علي؟ انك لن تنال قدر حبة خردل منها. ولتعلم حضرتكم اننا بينما كنا في «سان سلبادور» وصل صبي الى هذا الفقير وسأله عما اذا كنت انا هو الملازم خوان دي لورثافا. فقال نعم لانه رأى في يده شيئا جاء به. فقاده نحوي وقال ملقبا اياي بملازم: «فلنر حضرتك ما يبتغي هذا الصبي وحيث فهمت مراده قلت اني انا هو فتلقيت الابلاغ ومعه اثنتى عشرة فوطة واعطيته الجواب لامه التى ارسلتها الى واحد يحمل ذلك الاسم. وها هو الان يطالبني بالنصف واني لاقطع نفسي اربا قبل ان انزل عند طلبه. ولا بد ان يتلفها كلها انفي فحكموا له في القضية وانما

خالفوه في مسألة تمخطه بها وأمروه بان يسلمها الى العجوز لتنتفع بها الجماعة فتعمل منها اطراف اكمام بارزة فتلوح كانها قمصان لان التمخط ممنوع

ثم جن الليل ونمنا متلاصقين كأننا ادوات رصت في غلاف. اما العشاء فلم يخطر على بال احد ومعظمهم لم ينزعوا ثيابهم لانهم ينومهم مرتدين ما يلبسونه نهارا يفون بواجب النوم عراة.

الفصل الثانى

وفيه يتابع الموضوع المبدوء به وعيره من الحوادث الغريبة

— —

اصبح الصباح فتأهبنا جميعا وكنت قد امتزجت بهم كما لو اننا كلنا اخوة · وذلك ان في الشر دائما هذه السهولة والعذوبة الخارجية. وما اغرب ما كان من مشهد ترى فيه احدهم يلبس القميص اثنتى عشرة دفعة لانها تتركب من اثنتي عشرة خرقة. وترى الاخر وقد ضلت رجله في ازقة السروال واذا به يجدهامطلة حيث لا يرغب في ان يراها وترى الثالث يستعين بدليل ليرتدي صدرته· فتنقضي نصف ساعة قبل ان يهتدى اليها.

وما انتهى هذا المشهد ولم يكن بالشيء القليل

قبض كل منهم ابرة وخيطا ليباشروا رتق الخروق فكنت ترى احدهم مادا ذراعه ليرفأ بدون احكام ما تحت ابطه فكأنه انقلب لاماً (1) وترى الآخر جاثيا على ركبتيه محاكيا رقم الخمسة (2) وذلك انه يمد بمساعدة جواربه وترى الثالث وقد ادخل رأسه بين فخذيه ليحكم طي ما يتصل بهما من السروال قد انقلب كبة، واشهد ان بوسكو (3) لم

---

(1) اي ان الواحد منهم حين يمد ذراعه يصبح شبيها بحرف اللام الذي يكتب في الاسبانية هكذا L

(2) اي رقم خمسة في كتابة الارقام العربية هكذا: ٥ وهو يشبه الرجل جاثيا ومحنيا رأسه.

(3) بوسكو ـ لقب المصور الهولندي خيرونيمو فان أكين (1450 ـ 1516) وقد ولد في بلدة بوالي دوك Bois le Duc واليها ينسب فلذا لقب المصور ببوسكو. وقد بقي كثير من لوحاته في اسبانيا في دير الاسكوريال ومتحف البرادو

ويمتاز فن بوسكو بمزجه الجد بالهزل فيرى

يصور مشهدا اغرب من هذا الذي رأيته، لانهم بينما كانوا يخيطون كانت العجوز تمدهم بالمواد من رقع وخرق بالية من مختلف الالوان كانوا قد اتوا بها نهار السبت. وانتهت ساعة الترقيع ـ اذ كانوا يطلقون عليها هذا الاسم ـ واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض ليروا من منهم لم يوفق في عمله، ثم قرروا الذهاب خارجا فقلت لهم اني اريد ان تعملوا لي ثوبا حيث كنت ارغب في صرف مئة درهم في شراء واحد لانزع عني الجبة.

في لوحاته خليط لم يعهد له مثيل سابق. لكن إخراج هذا الخليط محكم الاتقان وهو ما قاده فسته الكبيرة، وكأن المصور اراد ان يصور باطن الانسان وما فيه من تضارب وخلبط، مما حمل المؤرخ الاب يوسف دي سيغوانسا على القول في مؤلفه تاريخ رهبنة سان خيرونيمو الجزء الثالث ص 636 طبعة سنة 1605 ان غيره من المصورين سعوا لتصوروا خارج الانسان. اما بوسكو فهو الوحيد الذي تجرأ على تصوير باطنه

فقالوا لا، وانما يعطى المال الى المستودع ولنلبسه مما لدينا برسم الاحتياط ولنعين له دائرته في المدينة حيث يكون له ان يفتش وياكل منها وحده.

فاستحسنت الرأى ودفعت المال ليودع وفي لحظة قصيرة خاطوا لي من الجبة قباء حداد من الجوخ وقصروا المعطف فاصبح صالحا، وما فضل حولوه الى قبعة قديمة جدد صبغها. واستعاضوا عن الشريط الذي يحيط بها بنتف من قطن الحبرة احكموا وضعها. ونزعوا عني الطوق والسروال والبسوني بدلهما سروالا قصيرا لم تكن فيه شقوق(4) الا من الناحية الامامية. اما الجانبان والوراء فكانت من جلود الوعول. ولم تكن الجوارب الحريرية بجوارب حقا لانها كانت تبلغ ما تحت الركبة باربع اصابع. وما بقى حتى الركبة كانت تغطيه موق احكمت فوق الجورب الاحمر

---

4) في ذلك العهد كانت تفتح شقوق عامودية في السراويل لترى تحتها انسجة اخرى من الوان مختلفة يزين بها السروال

الذي جئت به انا. وكان الطوق مفتوحا لتمزقه فوضعوه لي قائلين: «ان في الطوق خللا من الوراء والى الجانبين فان التفت اليك احد وجب عليك ان تلتفت اليه كعباد الشمس. وان اقبل عليك اثنان ملتفتين من الجانبين فتقدم الى الامام دون ان تلتفت وراءك ودع القبعة تقع دائما على القفا بحيث يغطي اطارها العنق ويترك الجبين بارزا. وان سألك احد لماذا تسير على هذا الطراز فقل لانك تقدر ان تسير مكشوف الوجه (5) في اي مكان كان. واعطوني صندوقا صغيرا فيه خيوط سوداء وبيضاء وابرة وكشتبان ورقع من الحرير والجوخ والكتان والحرير المطلس وغيرها من الرقع وسكينا ووضعوا الي بطاقة في حقوى وصوفانة وقداحة في هميان وقالوا: «بهذا الصندوق يمكنك ان تتجول اينما اردت دون ان تحتاج الى اصحاب ولا الى انسباء. وفيه ينحصر كل علاجنا فيا كه

---

(5) ويعني ذلك من الوجه المجازي انه شريف السيرة.

واحتفظ به، ثم عينوا لي حي سان لويس مرتعا ابحث فيه عن معاشي. وهكذا بدأت نهاري خارجا من الدار مع البقية. لكنهم نظرا لجدتي ارسلوا معي كمرشد لابدأ حياة الاحتيال نفس ذلك الذي جلبني وهداني اليها.

خرجنا من الدار بخطى بطيئة والسبحات بين ايدينا وسلكنا طريق الحى الذى عينوه لي: وكنا نسلم على الجميع: على الرجال بنزع قبعاتنا متمنين لو انا نقدر على فعل ذلك بمعاطفهم وعلى النساء بانحناءات يغبطن بها واكثر منهن يغتبط بها الابانبون (6) وكان مرشدى يقول لاحدهم «غدا ستأتونني بدراهم» وللاخر: «ارجو حضرتك ان تمهلني يوما واحدا لان المصرف سيأتيني بها. وكن واثقا من ذلك. ورأيت واحدا يطالبه بالمعطف وآخر بالتكة وعرفت من ذلك انه صديق اصدقائه الى

---

(6) الابانبون مفرده ابانى وهو لقب يشبه معناه كلمة أب بطلقه على رؤساء بعض الاديار

حد انه لم يكن عنده شيء ملكه (٦) وكنا في سيرنا
ننساب كالافعى من رصيف الى آخر تجنبا لمنازل
الغرماء. اذ كان واحد منهم يطالبه بكراء الدار
والاخر بكراء السيف والثالث بكراء الملاحف
والقمصان مما حملني على استنتاج ان صاحبي
فارس كراء كالبغلة. وحدث انه ابصر من بعيد
رجلا كان يرهقه ارهاقا شديدا بسبب دين له
لكنه لم يكن عنده مال ليفيه اياه. ولئلا يعرفه
الغريم ارخى وراء اذنيه شعره الذي كان مجموعا
ولصق رقعة على احدى عينيه وشرع يكلمني
بالايطالية وقد امكنه ان يقوم بكل هذا بينما كان
الاخر مقبلا لكنه لم يره لانه كان منهمكا في
الهذر مع احدى العجائز والحق يقال اذ رأيت

---

٦) في الاسبانية مثل مضمونه ان ما للانسان
يكون لصديقه ايضا اي انه يضعه تحت تصرفه
ملاحظة المؤلف بهذا المثل دعوته هنا ان الشاطر لم
يكن له [illegible]
آخرين : شاطر هو [illegible]

الرجل يدور حول صاحبي كالكلب يريد الهجوم على فريسته ويكرر رسم اشارة الصليب اكثر مما لو كان راقية، ثم واصل طريقه قائلا: «يا لله! ظننت انه هو» ومرددا المثل المشهور: من فقد بقره تخيل دوي الاجراس. وكنت اكاد اموت ضحكا من هيئة صاحبي، ثم دخل بهو دار ليجمع شعره وينزع اللزقة عن عينه وقال: هذه عدة نكران الدين فتعلم يا اخي لانك سترى الكثير من هذه الامور في المدينة

وتابعنا السير وحيث كنا في الصباح تناولنا في احدى الزوايا قطعتين من الحلوى الرديئة وجرعة من ماء الحياة من عند احدى الشاطرات التى اعطتنا ذلك مجانا بعد ان رحبت بمدربي فقال: يمكن للمرء بعد تناول هذا ان يسير آمنا وان لم يجد ما ياكله في يومه فان هذا على الاقل لا ينقصه فتألمت حين رأيت ان طعام يومنا لم يكن مضمونا واجبته متأسفا على معدتي فقال: «يا قليل الايمان بماة الطرق ورهبنتها. ان الله لا يتخلى

عن الغربان والزرقان (8) حتى ولا عن الكتبة فهل يتخلى عن الهزلى؟ ان معدتك لاصغر من ان يستحيل ملؤها قلت: صدقت ولكني اخشى ان يصغر عنها ما لدى وان تبقى خاوية، وبينما نحن في هذا الحديث دقت الساعة الثانية عشرة وبما اني كنت حديث العهد بهذه الخطة لم ترق لامعائي تلك الحلوى الرديئة التى اكلتها وكنت اشعر بالجوع كما لو انه لم يدخل فمي شيء البتة فالتفت الى صاحبى وقد جددت تلك الدقات ذكرى الجوع في حافظتي وقلت: «يا اخي! ان التألف على الجوع لتدرج شاق! لان المرء خلق اكولا وها انذا اقاد في طريق الصوم وان كنت انت لا تشعر بالجوع فما ذاك عليك بكثير لانك على الجوع ربيت منذ الصغر ـ كما ربي ذلك الملك على السم (!!) ومنه اصبحت تقتات ولست اراك تسعى بجد لمضغ

---

(8) جمع زريق

(!!) اشارة الى مضريداتس ملك بونطوس الذي ربي على جرع السم لئلا يفعل به فيما بعد

ولذا قررت ان افعل ما بوسعي. فقال: «تبا لك انما هي الان الساعة الثانية عشرة لا غير. وها انت قد ساورتك العجلة! اجل! ان شهيتك على الطعام لدقيقة ومعجلة ولا بد لها ان تتحمل بصبر تأخر بعض الرواتب! هذا ولا الاكل طول النهار اذ ما تفعل الحيوانات غير ذلك؟ ولم يرو قط ان واحدا من فرساننا اصيب باسهال. ونفضل ان لا نبرز على ان نذل في اقتياتنا (10) وقد قلت لك أن الله لا يترك احدا. وان كانت تساورك العجلة فاني اذهب فاتناول المرق الذي في دير سان خرونسو وهناك املأ معدتي فان تتبعني فتعال والا فليسر كل منا في سبيله». قلت: «مع السلامة. اذ ليس ثوبي قصيرا لاكمله بما يفضل من اثواب الغير (11) وليتبع كل منا طريقه».

---

(10) اني المؤلف بجناس في كلمة provecr ومعناها هكذا اقتات ذاتيا لحبها الضمير ع صار من جهة معناها شرف.

(11) اي لست بحاجة الى الاخرين

وكان صاحبي بسير بخطوات يسمع لها وقع شديد متطلعا الى رجليه ثم اخرج فتاتا من الخبز كان يحمله دائما لهذه الغاية في صندوق صغير فذره على ذقنه وثيابه بحيث كان يظهر بمظهر الاكل اما انا فجعلت اسعل واستاك اخفاء لهزالي وانظف شاربي وقد تلثمت والقيت المعطف على كتفي اليسرى وجعلت العب بسبحة ذات عشر خرزات فقط، فكل من رآني ظن انى اكلت. ولو انهم ظنوا انى أكلت(12) وان آكلي هو القمل لما اخطأوا.

وكنت اسير واثقا بدنانيري وان كان ضميري يوبخني على انه مما يخالف انظمة الجماعة ان يعش من الدنانير من كانت امعاؤه طفيلية في

---

(12) جاء المؤلف بجناس في كلمة Comido وهي اسم المفعول من فعل Comer لكنها تستعمل ايضا بمعنى اسم الفاعل، وهنا استعملها المؤلف في المعنيين اولا كاسم فاعل ثم كاسم مفعول في جملة بصيغة المجهول

الحياة. واخيرا عزمت على الفطور. واثناء هذا بلغت زاوية زقاق سان لويس حيث يقطن بائع معجنات فرايت واحدة محمصة من ذوات الثمانيـة دراهم تطل من الواجهة مرسلة نفسها الحار الذي تغلغل في انفي فعلقت بها في الحين نظرا للحالة التي كنت فيها ـ كالكلب الضاري: فاحدقت فيها نظـري احداقا يبست منه كالمسحور وان نظرت الى ما نصبته من الحيل لاختلاسها لرأيت العجب العجاب لكني في آخر الامر عزمت على دفع ثمنها. وبينا انا في هذا دقت الساعة الواحدة. فتألمت الى حد اني قررت ان الج حالا احد المطاعم. وانا الذي كنت اترقب فرصة ارتمي عليها فقد شاء الله ان التقي اذاك باحد اصدقائي المأذون ملتشيا الذي اقبل مهرولا في ذلك الزقاق وقد لطخت جبته بالاوحال فشابه عجلة ذات دولابين وما ان ابصرني ـ ولم يكن ذلك بالهين لو تاملت شكلي حينئذ ـ حتى هجم علي وتعانقنا عناقا وديا. وسالني عن حالي. ثم قلت له: -ياصاح كم لدي من الامور لاقصها عليك

وانما يؤلمني ان لابد لي من السفر الليلة» قال: «وهذا ما يؤلمني ايضا ولولا ان الوقت قد فات وعلي ان اذهب على عجلة لاكل لتوقفت معك مليا. لان شقيقة لي متاهلة وزوجها ينتظراني».
فقلت: «او سيدني حنة هنا؟ فوالله لازورنها ولو اضطررت الى ترك كل شيء. فسربنا لاني اريد ان اقوم بالواجب نحوها.

وقد فتحت عيني حين سمعت انه لم ياكل وذهبت معه وشرعت اخبره باني اعرف مقر احدى النساء - وكان قد عشقها كثيرا حين كان في القلعة - واني اقدر ان ادخله الى دارها. فعلقت نفسه بهذه الدعوة. ورايت ان الحيلة في قص ما وافق مشتهاه. وبلغنا داره ونحن في هذا الحديث فدخلناها وعرضت نفسي مرارا وتكرارا على اخته وزوجها اللذين لم يؤولا مبالغتي في الاحتشام الا لمجيئي في تلك الساعة فاخذا يعتذران قائلين لو انهما عرفا بان ضيفا كريما ملي سيحل عليهما لا عدا شيئا لائقا به. فاغتنمت الفرصة ودعوت نفسي

قائلا اني اعتبر نفسي من جملتهم واني صديق قديم وان المجاملة بيننا من الاهانة. فجلسوا وجلست ولاهون الامر على صاحبي ـ الذي لم يدعني في الواقع ولم تخطر له دعوتي على بال ـ جعلت اغريه بين فترة واخرى بالفتاة قائلا له انها سالتني عنه وانه بجمال قلبها وغير ذلك من الاكاذيب المشابهة لهذا. فكان لدى سماعه كل هذا يزداد صبرا وتحملا لرؤيته اياي ازدرد الطعام الاني فتكت باللون الاول منه ولا فتك الرصاص بسربال من الجلد (13). ثم جاء دور قدر اللحم والشحم والخضر فكدت اقضي على كل ما فيها بلقمتين دون سوء قصد وانما كنت اسرع في الابتلاع كانني والطعام بين احضاني لم اكن واثقا من صيرورته الي والله عليم بان تربة مقبرة «لاانتيغوا في بلد الوليد(14)

---

13) جاء المؤلف هنا بجناس في كلمة، «Ante» ومعناها اللون الاول من الطعام وهو الذي قصد به اولا والجاموس وهو الذى قصد به ثانيا.

14) كانت تروج بين العامة اسطورة مفادها

ليست اسرع في تحويل الجثث هباء منثورا ـ وهي تفتتها في 24 ساعة ـ مما كنته في القضاء على طعام يومهم كله اذ فقت بذلك سرعة بريدا مستعجلا ولابد انهم لاحظوا جرعاتي المفرطة واستنزافي القصعة ومطاردتي العظام واتلافي اللحم وان صدقت القول اخبرتك ايضا اني بين جد وهزل رصصت جيبي بالفتات. ثم رفع السماط وملت انا وصاحبي الى ناحية نتحدث في شان ذهابه الى دار من ذكرت واكثرت في تهوين الامر عليه وبينما كنا نتحدث امام احدى النوافذ تظاهرت بان شخصا ينادبني من الشارع فقلت مجيبا: اياي تنادي ايها السيد؟ رويدا فاني هابط، واستاذنت صاحبي قائلا له اني ساعود فيما بعد وبقي ينتظرني حتى اليوم اذ انني احتجبت عملا بالمثل القائل. «خبز ماكول وصحبة مفصومة» والتقيت به مرارا

ان تربة مقبرة سيدة «لا انتيغوا la Antigua في بلد الوليد جلبت من انحاء بعيدة وان لها ميزة خاصة وهي انها تفتت الجثث في 24 ساعة.

عديدة فاعتذرت له عن تخلفي قاصا عليه الف كذبة لا مجال لذكرها الان.

وسرت على وجهي في الشوارع كيفما قدر الله فانتهى بي السير الى باب وادي الحجارة (15) فجلست على مقعد من المقاعد التي يضعها التجار على ابوابهم وشاء الله ان تصل اذ ذاك الى الحانوت امراتان - من اللواتي يقترضن على وجوههن (16)

وقد تحجبتا فلم يبن منهما سوى عين واحدة يصحبهما خادم وعجوز فسألتا صاحب الحانوت عما اذا كان عنده مخمل حريري مطرز من النوع الفاخر، واخذت انا حبا بفتح حديث معهما اتلاعب

---

(15) باب وادي الحجارة - كان هذا واقعا في الشارع الاكبر بالقرب من «بلاترياس» وهو اليوم زقاق «مدينة رودريغو» وكان في ذلك العهد غاصا بالحوانيت ومجتمعا للعاطلين.

(16) يقال عن شخص انه يقترض على وجهه اي دون ان يقدم ضمانة لدائنه لانه معروف .

بكلمة «ترسيو (17)و «بلادو و «بيلو» و «أبيلو و «بيلي فلم ادع شاردة و« واردة تمت اليها بصلة حتى اتيت بها فشعرت بان طلاقتي حملتهما على الاعتقاد باني صاحب الامر والنهي في الحانوت. فعرضت عليهما ما بتمنيانه مخاطرا في عرضي شأن من لايخاف على شيء يخسره، فاعتذرتامدعيتين انهما لا يقبلان شيئا ممن لا يعرفانه فاغتنمت الفرصة قائلا انه لمن الجرأة ان اعرض عليهما شيئا. ولكني رجوتهما ان يقبلا مني بعض الاقمشة وصلتني من مدينة ميلان وسيحملها اليهما ليلا احد الخدام ـ واشرت الى خادم كان واقفا ازاء الحانوت ينتظر مولاه الذي كان في حانوت آخر ولذلك كان مكشوف الرأس فقلت انه خادمي ـ وجعلت ارفع قبعتي لكل المارة من وجهاء

---

(17) كلمة ترسيو بيلو معناها «المخمل الحريري وهي تتالف من كلمتين: «ترسيو ومعناها الثالث و بيلو ومعناها شعر

ومعممين (18) محييا اياهم كما لو كانت روابط الصداقة محكمة بيننا دون ان اعرف واحدا منهم لاحملهما على الاعتقاد باني ذو جاه كبير ومقام رفيع، فمن هذا التصرف ومن رؤيتهما اياي اخرج دينارا ذهبيا من الدنانير التى كنت احملها هاما بان اتصدق به على مسكين استجداني استنتجا اني من عظماء الاشراف، وازمعنا على مغادرة الحانوت لفوات الوقت فاستاذناني وشعرت من جهتي بان الخادم ذاهب ايضا، فطلبت منهما مستعطفا كمن يطلب منحة عظيمة سبحة نظمت خرزاتها فى سلك من ذهب كانت تحملها اجملهما ضمانة على انه لابد لى ان اراهما، ووثقنا بي بقصد الاحتيال علي بكمية اكبر منها، وسألتاني

---

(18) ترجمت بمعممين لفظة Oxidor وهو اسم كان يطلق اذ ذاك على موظف قضائي عال يسمع الى الدعاوى المرفوعة الى المحاكم الاستئنافية ويفصل فيها، وعلى راسه قبعة خاصة تكاد تشبه العمامة السوداء.

عن داري قائلتين ان الخادم لا يقدر ان يدخل دارهما اية ساعة كانت لانهما من طبقة الكبار. فسرت بهما في «الشارع الاكبر» وحين دخلنا زقاق «لاس كاريطاس» انتقيت احسن واكبر دار ظهرت لي وكان على بابها عربة بلا خيل، وقلت لهما انها داري واضفت قائلا ان الدار وصاحبها والعربة تحت تصرفهما، وتسميت بضون البرو دي قرطبة ودخلت في الباب على مرأى منها، واذكر انني حين خرجنا من الحانوت اومأت بهيئة الامر الى احد الخدم ليأتي الي، وتظاهرت باني اقول له ان يقول كلهم وينتظروني هناك وفي واقع الامر سالته اذا كان هو خادما عند عمي الكومندادور (19) وهكذا تمكنت من ان اتصرف بخدم الغير كما لو كنت من الاشراف حقا

اقبل الليل فالتجانا كلنا الى الدار، واذ دخلت وجدت جندي الحرف وبيده شمعة كبيرة وغليظة دفعت اليه ليرافق جنازة ميت فجاءنا، وكان

---

(19) رتبة في الجيش او في جمعية الفرسان

صاحبنا هذا يسمى «ماغاثو» واصله من اوليـاس (20) وقد مثل دور «كابيطان» في احدى المسرحيات الهزلية وحارب المسلمين في احدى الرقصات فاذا تحدث الى الذين اشتركوا في حرب فلانديس قال انه خاض غمار حرب الصين واذا تحدث الى الذين اشتركوا في حرب الصين قال انه شهـد حرب فلانديس وكان يحاول تاسيس ميدان وهو لا يحسن الا ان يتغلى فيه ويذكر القصور ولم يرها الا مرسومة على النقود. ويغدق المديح لذكرى ضون خوان (21) وكم من مرة سمعته يقول عن لويس كيخادا (22) انه كان مفخرة الاصحاب. ويكثر من ذكر الاتراك والمراكب البحرية وامراء البحر وكل

---

(20) اولياس Olias بلدة في مقاطعة مـالقة، واولياس دل ري: بلدة في مقاطعة طليطلة.

(21) ضون خوان دي اوستريا شقيق الملـك فيليب الثاني وقـائد القوات الاوربية في معركة ليبانطو

(22) لويس كيخادا Luis Quejada بطل اسباني.

ما قرأه حول هذا الموضوع في مقطوعات شعرية كانت رائجة حينئذ. وبما ان صاحبنا لم يكن ليعرف شيئا من شؤون البحر ـ اذ لم يكن فيه من بحري سوى اكل اللفت (23) ـ قال متحدثا عن المعركة التي ربحها ضون خوان في ليبانطو: ان ليبانطو هذا مسلم شجاع قوي الشكيمة وحيث لم يكن المسكين يعرف انه اسم للبحر قضينا معه في استماع هذا الحديث ساعات لذيذة وممتعة.

وبعد ذلك دخل رفيقي مهشم الانف مضمد الرأس ملطخا بالدم وملوثا بالاقذار، فسألناه عن سبب حالته هذه فقال انه ذهب الى دير سان خيرونيمو لتناول المرق الذي يوزع هنالك وطلب جراية مزدوجة مدعيا انها لاشخاص ذوي مروءة

---

(23) اتى المؤلف بجناس في كلمتي naval ومعناها بحري و nabal ومعناها لفتي اي نسبة الى اللفت وبما ان حرفي B و V يلفظان باء في الاسبانية كانت الكلمتان متشابهتين تماما في اللفظ. وكثيرا ما يرتكب خطأ في الاملاء بسبب هذا التشابه

عضت عليهم انيـاب الفاقة، فنزعوهـا من بقيـة
المستجدين ليعطوه اياها. لكن هؤلاء وقد اشتـد
حنقهم تبعوه وابصروه في احدى الزوايا وراء الباب
يجرع المرق مطمئنا ودار الجدل حول ما اذا كان
يجوز للمرء ان يخدع ليزدرد وان ينـزع مـن
الاخرين لينال هو فارتفعت اصوات عقبتها عصى
وبعد العصى الاخاديد والورم في رأسه المسكيـن
وهجموا عليه بالاباريق اما الورم في الانف فقـد
احدثه له احدهم بقصعة من الخشب قربهـا اليـه
ليشمها بسرعة اكبر من اللازم ثم جردوه من سيفه
وعند قيام الجلبة خرج البواب اليهم لـكنه عجـز
عن احلال السلم بينهم وقد وجد اخونا نفسه في
مازق حرج الى حد انه صار يقول لهم «انى أرجع
لكم ما أكلته» ومع هذا لم يكونوا ليقنعوا لانهم
أصبحوا لا ينظرون الا الى انـه كان يطلب مـن
اجل أشخاص آخرين آنفا مـن ان يحسب نفسه
بين عداد مستجدي مرق الدير وكـان احد الطلاب

الطفيليين من ذوي الغزر (24) يصرخ قائلا: «ألا فانظروا هذا المركب من خرق كدمية الاطفال. وقد أصبح اشد حزنا من حانوت الحلوى في زمن الصوم واكثر ثقوبا من المزمار واكثر نقطا من كتاب موسيقى. مع ان بين من يلتمسون مرق القديس المعظم (25) من يقدر ان يكون اسقفا او اية سلطة دينية اخرى ولا يانف من استجداء طعامه. الا انى حائز على الاجازة في الغنون من سغوينثا (26) وتداخل البواب في الامر حين سمع شيخا من جملتهم يقول انه وان اقبل على المرق الذي يوزع على الفقراء فهو من سلالة القبطان الاكبر وله انسباء من الكبار

وهنا اترك الكلام عن هذا الحادث لان صاحبي اصبح خارجا وخلصت عظامه من الضغط.

---

(24) اي من الطلاب الفقراء الذين كانوا يحملون غزرا لجمع الفتات وبقايا الطعام

(25) اي الذي يوزعه الدير الحامل اسم القديس.

(26) سغوينثا Sigüenza بلدة من مقاطعة وادي الحجارة مشهورة بآثارها القديمة

الفصل الثالث

وفيه يتابع الحديث حول الموضوع نفسه حتى
ينتهي الامر بايداعهم السجن جميعا

دخل ميرلو دياس. وقد احبك بسمط من الخزف والخرز سرقها دون ان يخشى الله من دير راهبات عرج عليه مستسقيا لكن ضون لورنثو دل بذروسو فاقه شطارة اذ اقبل وعليه معطف فاخر بدل به حول المائدة الخضراء معطفه الذي لم تبق عليه شعرة واحدة. وكان من عادة صاحبنا هذا ان ينزع معطفه كمن يريد اللعب ويضعه مع المعاطف الاخرى. ثم يذهب بعد ذلك - اذ لم يكن يشترك قط في اللعب - لياخذ معطفه فيستولى على احسن واجد معطف يبدو له ويخرج وكان يستعمل هذه الحيلة في لعبتي الحلقات والاكر.

لكن هذا كله لم يكن شيئا يذكر بالنسبة لمشهد

ضون كوسمي دخلا وقد احاط به فتيان مصابون بمختلف الامراض العاهات. فمنهم بدأ الخنازير وغيرهم بالسرطان والاخرون بالبرص ومنهم الجرحى والتدف. وسببه أن صاحبنا ادعى معطاة الرقية مستعملا بعض التعاويذ والصلوات التي تعلمها من احدى العجائز وكان يفوق في احتياله الاخرين كلهم لانه ان رأى شخصا اقبل مستسقيا ولا شئ فاتنا تحت معطفه او لم يسمع رنين النقود في جيبه او صياح ديوك مسمنة فلا مجال لشفائه. وكان شره ممتدا ويجبر الناس على اعتقاد كل ما يحب لانه لم يلد من يضاهيه في فن الكذب ولم تخرج قط من فمه ـ ولو سهوا ـ كلمة صدق. وكان يتحدث عن الطفل يسوع وقد حل الموت مرددا كلمة الحمد لله وبكرز فليكن الروح القدس معكم جميعا ويجر جهار المكرة كاملا وهو سالف من سبحة ذات حبات غليظة وطرف موخ ملطخ بدم الانف يرى عند ما يتحرك تحت المعطف ويحمل على الاعتقاد ـ بتحريكه كتفيه وظهره

كمن يحنك - بان التمل مسوح وان الجوع الفناك انما هو صوم اختياري. ويقص قصص تجارب وحين نذكر اسم الشيطان بقول ، اعاذنا الله ووقانا ، ويقبل الارض حين ندخل الكنيسة ويدعو نفسه بالحقير ولا يرفع عينيه الى النساء وانما يرفع انوابهن فبهذه الامور كان مسيطرا على عقول العامة بحيث يستسلمون اليه وكان ذلك كاستسلامهم الى ابلس. اضف الى هذا كله انه كان مغامرا وفضلا عن ذلك طاغيا. وكان يحلف باسم الله تارة بالباطل وطورا بلا داع. اما من ناحية النساء فكان له اولاده وحبليان من المومنات بتعاوبذه والخلاصة ان وصايا الله التي لم يكن يخالفها (1) كان يفريها

واقبل بولانكو محدثا جلبة كبيرة وطلب

---

1) اتى المؤلف بجناس في فعل quebrantar وله معنيان كسر وخالف - فاستعمله بالمعنى الاول ثم استعار المعنى الثاني لابراد فعل «فرى» مبالغة في الكسر

كيسا اتعب اللون وصليبا كبيرا ولحية طويلة مستعارة وجريسا وكان يسير ثملا على هذه الهيئة مناديا تذكروا الموت واحسنوا الى نفوس الموتى الخ .. فيجمع بهذه الوسيلة صدقات عديدة ويدخل البيوت التي يراها مفتوحة، فان لم يجد شاهدا او عائقا سرق كل ما وقعت عليه يده، وان عثر عليه قرع الجرس قائلا ـ بصوت يصطنعه كصوت تائب شديد الندم ـ تذكروا يا اخوتي الخ ...

فكل هذه الحيل الاحتيالية وغيرها من الاساليب العجيبة تعلمتها الى جانبهم خلال شهر واحد. والآن اعود الى قصتي، فقد اريتهم السبحة وقصصت عليهم الخبر، فاعجبوا بالحيلة، واخذت العجوز السبحة لتبيعها، ونويت تدخيل الشاب خارجه انها فتية لتعاد فتوة ...... ادا كل ... كان لديها لكل حجة كذبة وخدعة، وكانت العجوز كلما خطت خطوة تبكي وتضم يديها واحدة الى الاخرى وتنهد من اعماق صدرها تنهدا اليما وتسمى الجمع ابناءها وتلمس

فوق قميص فاخر وصدرة وفستان وشملة
كيسا ممزقا من الصوف الخشن استعارته من
صديق لها عابد كان يقيم في عقبة القلعة،
وكانت العجوز هي التي تحكم العصابة فتشير
وتستر ولكن شاء ابليس الرجيم - الذي لا يعرف
البطالة في ما يتعلق بعبيده - انها بينما كانت
ذاهبة الى احد المنازل لتبيع بعض الثياب واشياء
اخرى عرف واحد من الناس حاجة له، فذهب
وجاء بمامور العدالة فقبضوا على العجوز التي
كانت تدعى «الام لبروسكا» ثم اعترفت بالقضية
كلها من الفها الى يائها واخبرت كيف نعيش
كلنا واننا فرسان نهب وسلب

فتركها مامور العدالة في السجن وجاء الى
الدار، فوجدنا فيها جميعا، وكان يصحبه ستة
جلاوزة - وهم الجلادون المشاة - وقاد جماعة الشطار
كلهم الى السجن حيث اشرفت الفروسية على
هاوية خطر كبير.

الفصل الرابع

وفيه وصف السجن وما جرى فيه حتى خروج العجوز مجلودة والاصحاب الى العار وخروجي انا بضمانة

بعد ان قيدوا كلا منا بزوجين من القيود اودعونا سجنا مظلما وحين رأيت نفسي سائرا الى ذاك المقر مددت يدي الى المال الذي كنت احمله فاخرجت دينارا ذهبيا وقلت للسجان: يا مولاي فتسمعني حضرتك شيا ولكي يتمعى الي اريته الدينار فما زاد حتى دفعني الى جانب فقلت له ارجو حضرتك ان تشفق على رجل خير وفتشت عن يديه وبما ان راحتيه كانتا معتادتين على حمل هذا النوع من الامور فقد

شدهما حاثا علـى الاربعة وعشريـن بليونـا (1) قائلا ،ساحقق في شان مرضك وان لم يكن ذا خطورة انزلتك الى حيث يـودع المقيدون.» ففهمت الحيلة واجبته مذللا فتركني خارجا بينما انزل اصحابي الى اسفل

واني اضرب صفحا عما اثـار مشهدنـا من الضحـك في السجن وفي الشوارع. اذ جيء بنـا مقيدين يسوقوننا دفعا وبعضنا بلا معاطف والبعض الاخر بمعـاطف تجر على الارض فظهـرت اجسام مرقعة بلعاء واجسام اخرى شابهت مزيـج الخمر الاسود بالابيض فكنت ترى الواحد منا وقد امسك الجلواز بلحمه لتكون يده على شيء تثق انه لايفلت منها ـ حيث كان كل ما عليه غاية في القدم ـ ومع هذا كله لم يكن ليجد ما يمسكه لان الجوع كان قد فتك به فتكا ذريعا. ونرى الاخرين يتركون بين يدي الجلاوزة خرق الاقبية والسراويل. وحين

---

(1) اشارة الى الاسكودو الذهبي الموازي في عرفهم 24 بليونا

رفع الحبل الذي كانوا مربوطين به اذا باسمال كثيرة قد علقت به. واخيرا حين اقبل الليل ذهبت لانام في غرفة الاشراف. واعطوني سريرا ويالله من مشهد ان ترى البعض ينامون مغلفين دون ان ينزعوا شيئا من ملابسهم النهارية بينما البعض الاخر ينزعون دفعة واحدة كل ما عليهم من الثياب وآخرون غيرهم يلعبون. وفي آخر الامر اغمضوا اجفانهم واطفيء الضوء

ثم نسينا جميعنا القيود وحيث كان المبرز جانب رأسي ما كاد ينتصف الليل حتى اصبح الامر بين مجيء مساجين واطلاق مساجين (2) فخلت في بادىء الامر حين سمعت الدوى انه رعد وشرعت ارسم اشارة الصليب واستعيذ بالقديسة بربارة. ولكني حين بلغت انفي الرائحة الكريهة ادركت انها لم تكن رعودا من اصل رفيع، وكانت

---

2) يكنى بالاسبانية بعبارة اطلاق مساجين، عن الضرطة. اي ان المساجين اخذوا يردون الى المبرز فيسمع ضرطهم

رائحتها من الكراهة بحيث اضطررت الى دفن انفى في الفراش وكان البعض منهم قد جاءوا بالاسهال والاخرون بمخادع (3) واخيرا رأيت نفسى مضطرا ان اقول لهم ان ينقلوا المخدع الى مكان آخر. ولكن ما لبث ان احتدم الجدال بيننا حول ما اذا كان يتجاوز الحد في الاتساع ام لا. فلجأت الى استعمال رتبة مقدم (4) اذ خير لك ان تشغلها في صفعة منه في قشتالة (5) وما كان مني الا ان ابلغت التكة وجه احدهم فحاول ان ينهض عاجلا فقلب المبولة واراق ما فيها، وعلى الجلبة افاق الكل. وهناك جعلنا نتقارع بالحبك تحت جنح العتمة لكن الرائحة كانت قوية الى درجة انها

---

3) اتى المؤلف بجناس في كلمة cámara ومعناها غرفة ـ وايضا اسهال ـ واتبعها بكلمة aposento التى معناها غرفة او مخدع

4) اي خير لك ان تكون البادئ في الصفع.

5) مقدم في قشتالة adelantado en Castella كانت رتبة رفيعة في ذلك العهد

اجبرت الجميع على النهوض وبهذا ارتفعت الاصوات بالصياح فظن قائد السجن ان بعض مسجونيه قد فروا فصعد راكضامصحوبا باعوانه وقد شكوا السلاح كلهم فوصل وفتح الباب وادخل الضوء واستخبر عن الامر، فحكم الجميع علي وكنت اعتذر قائلا انهم لم يتركوني اغمض عيني طول الليل من شدة فتحهم اعينهم (6) وظن السجان اني سانفحه بدينار لئلا يزجني في السرداب فتمسك بالمسألة وامر بزجي فيه، فقررت ان ارضى بذلك قبل ان تمتد يدي من جديد الى الصرة. فاقتدت الى السرداب حيث استقبلني الاصحاب بالزغردة والفرح.

بت تلك الليلة دون غطاء واف، ثم اصبح الصباح فغادرنا السرداب ورأينا وجوه بعضنا البعض واول ما ابلغنا اياه هو العطاء من اجل النظافة والا تعرضنا لحيلة مرة المذاق (7) فاعطيت

---

6) كلمة عين تطلق ايضا على الاست في الاسبانية وهذا ما قصد به هنا

7) كانت العادة ان يدفع المسجون الجديد

انا ستة دراهم. اما رفاقي فلم يكن لديهم ما يعطونه فاجلوا الى الليل (8) وكان في السجن فتى اعور طويل القامة، اسبل، كئيب الوجه ذا ظهر مرتفع طالما حمل اسواطا (9) وكان ما يحمله من حديد يزيد على حديد بسكايا (10) وهو عبارة عن زوجين من القيود الغليظة متصلين بسلسلة ضخمة وكانوا يسمونه «الخيان» ويدعي انه مسجون لشؤون

قدرا من المال يسمى «حق الدخول» يتنعم به المسجونون الاقدمون، فمن امتنع عن دفعه دبروا عليه حيلة كأن يضربونه ليلا في العتمة ويصيح الجميع متاوهين في نفس الوقت كأنهم يضربون ايضا.

(8) اي لتدبير عليهم الحيلة في الليل

(9) اتى المؤلف بجناس في كلمة cargado ومعناها «محمل» وهي المقصودة في قوله «حمل اسواط» اي جلد، وباضافتها الى كلمة espaldas اي ظهر يتالف منها تعبير معناه «مرتفع الظهر»

(10) مقاطعة من اسبانيا الشمالية

هوائبة فظننت انه بسبب بعض الاكيار او المزامير او المراوح. والذين يسألونه عما اذا كان شيئا من هذا يجيب ان لا بل بسبب خطايا الوراء ففكرت انه يعنى بها امور سابقة قديمة. ولكني في نهاية الامر عرفت انه مسجون لكونه لواطيا وحين كان قائد السجن يوبخه لارتكابه شيطنة ماكان يسميه «ساقي الجلاد ومستودع الخطايا العام» واحيانا اخرى كان يتهدده قائلا: «انك تتعرض ايها المسكين لعقاب النار (11) فوالله اني لقاتلك في طريقي وكان قد اعترف بالامر هذا وقد حملنا فسقه على احاطة اكفالنا جميعا بالسواجير الشائكة ككلاب الحراسة. ولم يكن احدنا ليجرأ على الضرط لئلا يذكره بموقع اليه. وكانت الصداقة مستحكمة بين رجلنا هذا وسجين آخر يسمى روبليدو ويعرف ايضا باسم «الترياادو» وكان هذا يدعي انه مسجون لسخائه وحين الحوا عليه في السؤال ظهر انه لسخاء يديه في اصطياد كل ما تقعان

---

(11) لان اللواطيين كانوا يحرقون في ذلك العهد

عليه . وكان قد سيط اكثر من خيل العجـلات لان كل الجلادين جربوا ايديهم فيه. وعلى وجهه من آثار (12) الطعن ما لو كشف لما غلبه اكثر اللاعبين نقطا. وكان وحيد الادن افطس المنخار مشقوقه بطعنة. والى هذين الرجلين يتقرب اربعة آخرون ـ يحسنون الاختلاس كمحترفي السرقة ـ مقيدوز ومحكوم عليهم بشقيق رومولو (13) واما هم فكانوا يقولون انهم عما قريب سيتمكنون من القول بانهم خدموا الملك في البحر والبر. ولا

---

12) اتى المؤلف بجناس في كلمة punto فاستعملها اولا بمعنى «اثر الطعنة او الجرح» ثم بمعنى «نقطة» عند الاشارة الى اللعب بالورق حيث يربح من يجمع لديه اكبر كمية من النقط

13) شقيق رومولو هو «ريمو» وهما حسب الاسطورة مؤسسا مدينة روما. وكلمة Remo معناها في الاسبانية مجداف اي انه حكم عليهم بجدف احدى السفن. وكان هذا النوع من العقوبات شائعا في ذلك العهد

سبيل لوصف الفرح الكبير الذى كانوا ينتظرون فيه حلول ساعة ارسالهم الى تنفيذ العقوبـة.

فهؤلاء كلهم ـ وقد غمهم ان يروا رفاقـي لايساهمون بشيء ـ قرروا تدبير حيلة قاسية عليهم نيلا بواسطه حبل معد لهذه الغاية. فحين اقبـل الليل دعينا الى آخر غرفة في الدار ثم اطفـأوا الضوء. فاختبأت انا تحت الدكة وبدأ اثنان منهما يصفران والاخر يقرع بالحبل. ولما رأى فرساننـا المساكين صفقتهم خاسرة. شدوا اجسامهم ـ تلك الاجسام الجائعة التى فعلت بها الحكة والقمل فعلتها ـ بحيث اتسع لهم جميعا خصاص الدكة. فكانوا كالصئبان في الشعر اوكالبق في الفراش وكان يسمع دوي الضربات على الخشبة فيسكت هؤلاء. ولما ابصر اولئك المكرة انهم لا يشتكون انقطعوا عن ضرب السياط وشرعوا يرمونهم بالاجر والحجارة وقطع الردم مما كان مجموعا لديهم. فاصابت واحدة منها ضون طوريبيو على قفـاه واحدثت له فيها انتفاخا بعلو اصبعين. واخذ بصيح

قائلا انهم قتلوه لكن المكرة شرعوا يغنون جميعا ويحدثون جلبة بالقيود لئلا يسمع عواؤه فحاول ان يختبئ ولذا امسك بالاخرين ليزج بنفسه تحتهم فوقعت بينهم مشادة كانت تسمع من جرائها قرقعة عظامهم كاللوحات التي يقرعها المتسولون وهنا فاضت روح اقبيتهم ولم تبق عليهم خرقة قائمة وقلت الحجارة والردم وما مر سوى وقت قصير حتى كان في رأس ضون طوريبيو من الضربات اكثر مما في قباء مفتوح من الشرائط الحريرية المذهبة (14). ولما لم يجد سبيلا للنجاةمن ذلك البرد المنهال عليه ورأى نفسه على وشك الموت شهيدا – دون ان يمت الى القداسة ولا الى الصلاح بصلة – صاح قائلا ان اتركوني اخرج وبعد ذلك ادفع ما علي واسلمكم ثيابي رهينة فقبلوا منه بهذا الاقتراح وبالرغم عن الاخرين

---

(14) اتى المؤلف بجناس في كلمة golpe ومعناها ضربة، وايضا زينة في الثوب مؤلفة من شريطة حريرية مذهبة

الذين كانوا يدافعون عن انفسهم معه نهض كما امكنه الامر وقد شج رأسه فمال الى جانبي اما البقية فمع اسراعهم بالاتفاق على ان يحذو حذوه في الوعد كان قد سقط على رؤوسهم من الآجر اكثر مما عليها من الشعر. فعرضوا البستهم مقابل «رسم الدخول» بعد ان فكروا بانه خير لهم ان يلازموا الفراش عراة منه جرحى. فتركوهم وشأنهم تلك الليلة. وعند الصباح طلبوا منهم ان يتعروا. فتعروا واذا بكل البسنهم لا تصلح ان يؤخذ منها فتيلة، وبقي اصحابنا في الفراش اعني ملتفين بدثار خلق كان الجميع يتفلون فوقه. فما عتموا ان شعروا بالغطاء يتحرك فوق اجسامهم. وذلك انه كان في الدثار من القمل ما هو جائع ولا جوع الكلاب وما يزدرد كالمفطر بعد صوم ثمانية ايام ومنها الضخمة ومنها ما يمكن رميها على اذن ثور. فظن اصحابنا ذلك الصباح انهم سيكونون فطور القمل فنزعوا عنهم الدثار لاعنين حظهم واخذوا يهشمون ابدانهم باظافرهم حكا. اما انا

فخرجت من الدهليز قائلا لهم ان يعذروني اذا كنت لا اطيل مجالستهم لانه يهمني ان لا اطيلها وعاودت يدي السجان بثلاثة نقود من ذوي الثمانية دراهم. وحين عرفت من هو كاتب الدعوى بعثت في طلبه فتى ممن يخدمون مقابل حلوان فجاء وادخلته احدى الغرف واخذت اقول له ـ بعد ان تحدثنا في الدعوى ـ ان لدى مالا ما ورجوته ان يحفظه لي وديعة وان يساعد ما امكنه الامر شريفا منحوس الطالع اقتيد مخدوعا لارتكاب هذه الجريمة فقال وقد انطلت عليه الحيلة «صدقني ان نقطة الدائرة هي بين ايدينا. فاذا اراد احدنا ان لا يكون رجل صلاح امكنه ان يسبب شرا كبيرا وان عدد الذين دفعت بهم الى القوارب (15) مجانا لشهوة في النفس فقط لاكثر مما في الدعوى من الحروف فثق بي وصدقني باني ساخرجك صحيحا سالما

---

15) اي الذين حكم عليهم بجدف القوارب ـ وكان هذا من جملة الاشغال لشاقة التي يحكم بها

وذهب بعد هذا الحديث ولم يلبث ان عاد وسألني من الباب شيئا للخير دييغو غرسيا مأمور العدلية الذي لا بد من كم فمه بكمام من الفضة وذكر لي شيئا آخر عن قارئ الدعوى ليساعد على حذف فقرة بكاملها وقال: اعلم يا صاح ان قارئ الدعوى يكفيه ان يرفع حواجبه ويغلظ صوته ويرفس الارض برجله ليستلفت نظر القاضي الساهي ـ وغالبا ما يكونون هكذا ـ ليقضى على واحد من الناس، ففهمت مراده واضفت خمسين بليونا اخرى ومقابل هذا قال لي ان اقوم طوق المعطف واعلمني بدواءين لمعالجة الزكام الذي اصابني من برد السجن وفي الاخير قال لي: «روح عن نفسك فان ثمانية بلايين تضعها في يد قائد السجن كفيلة بان يخفف من همك. لان هؤلاء قوم لا ياتون بعمل صالح دون فائدة يجنونها منه»، فاعجبتني الملاحظة هنا وفي نهاية الامر ذهب في حال سبيله واعطيت السجان دينارا فنزع القيود من يدي وسمح لي بان ادخل داره.

وكان له زوج كأنها الحوت وبنتان كأنهما من بنات ابليس لما اتصفا به من قبح وحمق فضلا عن الفجور بالرغم عن قبح خلقتهما. فحصل يوما ان جاء السجان - واسمه فلان بن بلاندونس دي سان بابلو واسم زوجته ضونيا آنـا مورايث - ليأكل وهو ينفخ غضبا وكنت انا هنالك فلم يرد ان يأكـل فاقتربت المرأة منه وهي تتوقع هما كبيرا وارهقته بأسئلتها الملحة كالعادة حتى فار جأشه وقال: «وما عسى ان يكون؟ فان ذلك اللص الخبيث «المندروس» المكلف بالمنازل قد قال لي - اثناء مناقشة وقعت بيننا على الكراء - انك غير نظيفة» فقالت: «اكل هذه الاذناب ازالها عني هذا الخبيث؟ فوحياة جدي انك لست برجل والا لحلقت له لحيته. اترى انادي خدمه لينظفوني؟» ثم التفتت صوبي وقالت: «الحمد لله فانه لا يقدر ان يدعوني بيهودية مثله فان نصفه محتال والنصف الاخر يهودي وماله عـلى هذه النسبة ايضـا. ووالله يا ضـون بابلوس لـو سمعته لتاكدت ان عـلى ظهره صليـب سان

اندريس (16)- واذاك قال السجان وهو ينقطع حزنا: «آه يا امرأة! لقد سكت حين قال انك تحملين على ظهرك كبتين او ثلاثا (17) وان ما ذكره من الوساخة لم يعن به القذارة بل الامتناع عن اكل الخنزير» قالت: «فقد قال اذا اني يهودية وبهذه الاناة تردده على مسامعي؟ اهكذا تحافظ على شرف ضونيا آنا ميورايث بنت اسطفانيا روبيو وخوان دي مدريد اللذين يعرفهما الله والناس اجمعون؟»، فقاطعتها قائلا: «ما تقولين؟ بنت خوان دي مدريد؟»، قالت: «نعم! خوان دي مدريد الذي هو من اونيون. ووالله ان الماكر الذي قال انه يهودي لفاجر ذو قرون» فالتفت اليهما وقلت: «ان سيدي خوان دي مدريد - اسكنه الله الجنة - ابن عم والدي واني لآت بحجج تثبت من هو وكيف

(16) صليب من القماش الاحمر كان يخاط على اللباس الاصفر الذي يلبسه من فرضت عليهم المحكمة الدينية عقوبات علنية

(17) اي ان على ظهرها صليبا احمر كبيرا

كان. اجل ان هذا يبقى على عاتقي وان خرجت من السجن لاجبرن هذا الخبيث على الرجوع عن قوله مائة مرة. وان عندي في القرية صكا بحروف من الذهب يثبت انتماء الاثنين الى طبقة الاشراف» ففرحوا جميعا بالقريب الجديد واسترجعوا قواهم حين سمعوا ما قلته عن الصك مع اني لم يكن عندي شيء من ذلك ولم اكن اعرف من هم هؤلاء الناس، وبدأ السجان يستفسرني عن دقائق هذه القرابة. ولئلا يشعر بكذبي تظاهرت بالغضب الشديد واخذت اقسم واهدد. فهدأوا روعي قائلين ان لا يبحث في الموضوع والا يواصل التفكير فيه ولكني كنت بين حين وآخر اقطع الحديث فجأة مرددا: «خوان دي مدريد! ان الحجة التي بين يدي على عرق نسبه لتهزأ من هذه الدعوى!» ومرة اخرى اردد قائلا: خوان دي مدريد الاكبر! انه والد خوان دي مدريد وكان متزوجا بخوانا دي اثيبيدوا السمينة» ثم اسكت قليلا

وبالنتيجة صار السجان بسبب هذه الامور

كلها يفتح لي داره للاكل والنوم. والكاتب الخير بدوره ـ نزولا عند طلب السجان والرشوة التى تلقاها ـ احسن القيام بالامـر فاخرجوا العجـوز واركبوها جوادا اكعب وكان يتقدمها مناد ينادي «تعاقب هذه المرأة لارتكابها السرقة»وكانت مقارع الجلاد تنصب على اضلاعها على نغم صوت المنادي عملا بما اوصاه به ذوو الالبسة الطويلة (18)وكان يتلوها بقية رفاقي على صهوات جيـاد من التـي تستعمل لنقل المياه مكشوفي الرؤوس والوجوه. فقد اخرجوا على هذا الشكل ليلحقهم العار على مرأى من الجميع مع ان كلا منهم كان من إخلاق ما عليه يحمل عاره بارزا. وحكموا عليهم بالنفي ست سنوات. وخرجت انا بكفالة بمساعدة الكاتب كما ان قارئ الدعوى لم يغفل عن مساعدتـي فبدل لهجته وتكلم بهدوء واهمل اسبابا واقتلع مقاطع برمتها.

(18 يعني بذلك اعضاء المحكمة

الفصل الثانى

في عثوري على مثوى والمصيبة التى دهمتنى فيه

خرجت من السجن فوجدت نفسي وحيدا بلا اصدقائي، ومع اعلامهم اياى بانهم سائرون الى اشبيلية وفي طريقهم اليها يعيشون من الصدقات فقد رفضت الالتحاق بهم وعزمت على الذهاب الى مثوى حيث وجدت فتاة شقراء، بيضاء، نظارة مرحة، فضولية احيانا، وميالة الى الهوى احيانا اخرى، في كلامها لكنة، تخاف الفيران وتفتخر بيديها فلا تبرح تقرط الشموع لتريهما، وكانت تقطع الاكل فوق الخوان وفي الكنيسة ترى مضمومة اليدين دائما، وفي الطريق لا تنفك تدل على ان هذا الدار لفلان وتلك لغيره، وفى قاعة الاستقبال لا تبرح مشغولة بشك خلالة في زينة رأسها. وان لعبت لعبة

ما كانت دائما لعبة «البثبيريغانيا» (1) لانها لعبة ترى فيها الايدي وتتظاهر عمدا بالتثاؤب دون حاجة اليه لتري اسنانها وترسم اشارة الصليب على فمها وبالاختصار لم يفلت شيء في الدار من لمس يديها بحيث صارت تغضب ابويها نفسهما بتصرفها هذا! فآووني على خير ما يرام في دارهم لانهم كانوا يريدون اكراماباثات حسن لثلاثة ضيوف، فصرت انا احدهم والاثنان الاخران واحد منهما برتقالي والاخر قطلوني. ولذا احسنوا استقبالي. اما انا فقد اعجبتني الفتاة للمتعة فضلا عما في الاقامة في دار من الرفاهية والهناء فصممت على استمالتها الي وصرت احكي لها حكايات اعددتها للتسلية وآتيها باخبار وان لم يكن لها اساس من الصحة واخدمها في كل امر يمكن الاتيان به مجانا وقلت لها ولامها انني رقاء اعرف رقى كثيرة وبوسعي

---

1) لعبة صبيانية تقوم على ان يقرص الاولاد ايادي بعضهم البعض ثم ينشدون بعض الاغاني التي يجب فيها رفع الايدي

ان اجعلهما يريان الدار كانها تنهار وتحترق
. . ي تذيبة صدقتاها كدما عى سذاجهتما
وعند نكتسبت صداقتهما وشكرهما لكني لم
اتمكن من استمالة قلب الفتاة لان ملبسي لم يكن
كما تقتضيه الحالة ـ رغما عن اني كنت قد
تحسنت ملبسا بواسطة قائد السجن الذي كنت
ازوره دائما فاصل الرحم بيننا بما آكله من خبزه
ولحمه ـ ولهذا لم تعيراني ما استحقه من الاهتمام

فخطر لي ان ارسل بعض اصحابي الى المثوى
يسألون عنى حين لا اكون هنالك لحملهما على
الاعتقاد باني غنى متخف فدخل احدهم اولا وسأل
عن السيد ضون راميرو دى قزمان ـ وهو الاسم
الذي اتخذته الآن الاصحاب افهموني انه لا بأس
بتبديل احدنا اسمه بل انه لامر مفيد ـ واخيرا
سأل عن ضون راميرو معرفا به بانه ذو تجارة
واسعة وثروة وافرة وقد تعاقد منذ قليل مع الملك
على مشروعين تجاريين خطيرين. فانكرت ربة المثوى
وبنتها معرفتهما بى على هذا الشكل وقالتا ان

لجسم قبيح الوجه فقير الحال. فرت عليهم بغوء:
«اجل هذا هو الذي اسأل عنه ووالله لما كنت
لاتمنى اكثر مما يملكه فان مدخولـه ليتجـاوز
الالفي دكة» ثم قص عليهما اكاذيب اخرى فزاد
اعجابهما واخيرا ترك لهما حوالة مزورة ادعى انه
جاء ليقبضهـا مني وقيمتها تسعة الاف اسكـودو،
وقال لهما ان يسلماني اياها لاقبلها وذهب في حال
سبيله. فصدقت كل من الام وابنتها قصة ثروتي
وحاولتا اصطيادي زوجا للفتاة ثم عدت الى البيت
متجاهلا كل شيء وحين دخلت سلمتاني الحوالة
قائلتين: «ان المال والحب من الصعب ان يخفيا
يا حضرة ضون راميرو! وكيف نكتم علينا نفسك
مع ما انت مدين لنا به من العطف والاكرام؟»
فتظاهرت بالاستياء من ابقاء الحوالة بين ايديهمـا
وسرت توا الى غرفتي ولو تدري كيف اصبحتـا
بعد اعتقادهما باني غني تغدقان علي كل مديـح

مثنيتين على كل ما اعمله. فتبالغان في تقريظ كلامي وتجيران بانه لم يكن احد ليعادلني ظرافة. وحين ابصرتهما في شباكي صارحت الفتاة بحبي لها فانصتت بفرح كبير وزددت على مسامعي الف مديح. ثم افترقنا وذات ليلة وقد اردت ان ازيدها اعتقادا بغناي دخلت غرفتي واقفلت بابها وكانت مفصولة عن غرفتها بحائط دقيق. فأخرجت خمسين «اسكودا» وشرعت اعدها مرارا وتكرارا الى ان سمعتا رنين ستة آلاف. وقد كانت رؤيتهما اياي مالكا لهذا القدر من المال غاية مبتغاي لانهما منذ تلك اللحظة اصبحتا لا تنيان في احاطتي بكل اسباب الراحة والرفاهية والرضى

وكان البرتغالي الساكن في المثوى يسمى السنيور فاسكو دي منيسيس، فارس الكراسة اي المسيح (2) وكان قصير العنق كبير الشاربين يرتدي

---

2) كان يطلق اسم «المسيح Christus على الصليب المصور قبل حروف الهجاء في الكراريس

معطفا اسود وينتعل مواقا، ويتلهب حبا ووجدا لضونيا برينغيلا دي ريبو بادو ـ وهو اسم الفتاة ـ ويحاول ان يمتلك قلبها بالحديث والتنهد متفوقا في هذا المضمار على متعبدة تنصت الى عظة في زمن الصوم. وكان يسيء الغناء ولا ينفك في جدال مع القطلوني الذي كان اشد المخلوقات حزنا واكثرها بؤسا. فيعاود الاكل كل ثلاثة ايام كالحمى المنقطعة وياكل الخبز يابسا الى حد ان انياب السعاة لتكاد تعجز عن الفتك به. ويفتخر بالشجاعة مع انه لا ينقصه سوى ان يبيض ليكون دجاجة (3) اذ كان يقيق كثيرا. فاخذ البرتغالي يقول اني معدم محتال لا املك شيئا. بينما القطلوني يصفني بالجبانة والخساسة. وكنت انا اعرف هذا كله بل اسمعه احيانا لكني لا اجد من نفسي الجرأة الكافية للرد عليهما. واخيرا صارت الفتاة تحادثني وتتلقى

ومنها جاء قولهم: «ما زال في المسيح» اي في بادئ علم او فن ما.

(3) الاسبان يضربون بالدجاجة مثلا في الجبانة.

رسائلي وغالبا ما كنت ابدأها على هـذا النمط:
ان جرأتي هذه: او ان جمالك الفتان، واتكلم
عن تحسري وتلهبي وجدا بها واعبر لها عن الـم
وحزن واعـرض نفسي عبدا لهـا واختـم بقولي
ان في قلبي من حبهـا لطعنة نجلا. واخيرا بلـغ
بنا الحال الى التخاطب بالافراد (4) وتمكينا لمعتقدها
بمكانتي خرجت يوما من الدار واكتريت بغلـة
وجئت المثوى مقنعا وقد غبرت صورني وسألت
عن داتي مستفسرا عما اذا كان يقيم هنالك حضرة
السيد ضوز راميرو دي قزمان مولـى بلشـرادو
وبيوريتي (5) فاجابت الفتاة قائلة: «هنا يقيم رجل
قصير القامة يحمل هذا الاسم فقلت بعد ان اخبرت
بعلامانه انه هو ورجوتها ان تقول له ان قهرمانه

---

4) ان التخاطب بالافراد يعتبـر في معظـم
اللغات الاوروبية دليلا عـلى صداقـة متينـة. والا
فالتخاطب يكون بالجمع عادة

5) اسماء امكنة

ديغو دي سوا'ورتانا قد عاد من ادارة التامين (6) وهو ذاهب الان لجمع الغلة وقد عرج عليه ليقبل يديه. ثم انصرفت وبعد حين عدت الى الدار.

فاستقبلتاني بغبطة كبيرة سائلتين ابي عن سبب اخفائي عنهما اني مولى بلترادو وبيوريتي وابلغتاني الوصية. وهنا ازدادت الفتاة تمسكا بي لطمعها في زوج من الغنى بهذا المقدار وطلبت مني ان اقابلها واتحدث اليها على الساعة الواحدة ليلا في ممر يطل على سطح من الاجر تنفتح عليه نافذة غرفتها فشاء الشيطان الذي يضع اصبعه في كل شيء ان اصعد الى الممر، وقد حل الليل، رغبة مني في التمتع بتلك الفرصة فزلقت قدمي وسقطت على سطح دار جار لنا وظيفته كاتب محكمة وقد كان لسقوطي وقع شديد فتكسر معظم الاجر وانطبعت اثارها في اضلاعي. فاستفاق اهل الدار على الجلبة وصعدوا الى السطح ظانين انهم لصوص - وهو ظن لا ينفك يساور اصحاب هذه المهنة -

---

6) ادارة كانت تودع فيها اموال القاصرين.

فلما ابصرت ذلك اردت ان اختبئ وراء المدخنة
فزاد ذلك ريبتهم في امري فانهال علي الكاتب واخ
اه وخادمان ضربا بهراوة حتى سحقوني سحقا ثم
ربطوني على مرأى من مولاتي دون ان تجديني
كل محاولاتي نفعا. لكنها اخذت تضحك وتمعن
في الضحك لاني كنت قلت لها فيما مضى اني
احسن السحر والشعوذة فظنت ان سقوطي كان
سحرا ايضا. فلذا كانت لا تفتأ تقول لي اصعد فقد
كفاك الامر هزلا. فمن جراء هذا والعصي
والكلمات التي تلقيتها اخذت اعوى. فاشتد ضحكها
لاعتقادها ان كل ذلك تلفيق

ثم شرع الكاتب بفتح الدعوى واذ سمع
قرقعة مفاتيح كانت في جيبي قال وكتب انها عقف
مع انه رآها كما هي دون ان تمنعه رؤيته اياها
من ان يقيد انها عقف، فقلت له اني ضون
راميرو دي قزمان، فضحك ضحكا شديدا. اما انا وقد
استولى على الحزن لما قاسيته من ضرب على مرأى
من مولاتي ولاني رأيت نفسي مساقا الى السجن

دون سبب واسمي ملطخا باتهام مشين فلم اكن لاعرف اي السبل اسلك فجثوت امام الكاتب على ركبتي ورجوته اوجه الله، لكن لا رجائي ولا غيره كان كافيا لحمله على اطلاق سبيلي

كل هذا جرى على السطح لان هؤلاء القوم لا يحجمون عن شهادة الزور حتى على السماء نفسها. ثم امروا بانزالي الى اسفل، فانزلوني من نافذة تطل على غرفة كانت تستعمل كمطبخ

الفصل الرابع

وفيه يتوالى الكلام على الامر نفسه
وعلى عدة حوادث اخرى

لم اطبق جفني طيلة الليل وانا افكر في مصيبتي التي لم تكن في الوقوع على السطح بل بين يدي الكاتب الوحشيتين القاسيتين. وحين تذكرت امر العقف التي وجدوها في جيبي والاوراق التي حرروها في الدعوى تبين لي انه لا شيء يضاهي سرعة في النمو كالذنب بين يدي الكاتب فقضيت الليل احوك حبلاً فاحيانا اعزم على استعطافه مستشفعا بيسوع المسيح ولكني حين افكر في ما قاساه من امر الكتبة حيا تعوزني الجرأة على ذلك.

وقد اردت الف مرة ان افك رباطي وكان يشعر بي فياتي صوبي كاشفا عن العقد التي تشده. اذ كان اهتمامه باختلاق كذبة علي اكثر

من اهتمامى بما ينفعنى. ونهض باكرا عند الفجر وارتدى ثيابه فى تلك الساعة ولم يستفـق فى داره سواه والشهود. فتناول المقرعة وراجع بهـا اضلاعى مراجعة وافية ووبخني على رذيلة السرقة توبيخ عارف بهذا الفن. وبينما كنا على هـذا الحال اي هو ينيلني مقارع وانا اكاد اكون عازما على اعطائه دنانير ـ لانها الدم الـذى ينحت به هذا النوع من المـاس ـ اذا بجارى البرتغـالي والقطلوني يدخلان علينا نزولا عند الحاج محبوبتى التي شاهدتنى أقع واضرب بعد ان اقتنعت بان ما حل بي ليس سحرا بل مصابـا فلما رآهمـا الكاتب يحدثاننى اراد ان يوقع بهما كشريكين في الدعوى. لكن البرتغالي لم يطق الامر فوجه اليه كـلاما قاسيا قائلا انه رجل من الاشراف من حاشية الملك واني انا ايضا رجل عريق في النسب وان من السخافة تقييدى. وشرع يفك قيدى فصاح الكاتب قائلا: مقاومة!» وفي الحين وطأ خادمان له ـ بيز جلاوزة وحمالين ـ معطفيهما وحـلا

تلابيبها كما اعتادا ان يفعلا ليدلا على الكلمات التى لم تقع ويطلبا من الملك الحق واجراء العدالة واخيرا فكا رباطي. واذ ابصر الكاتب انه ليس هنالك من احد ليساعده قال: «وحق فلان» ان هذا لا يمكن ان يقع معي ولو لم تكونوا من انتم لكلفكم الامر غاليا. فامروا بارضاء هؤلاء الشهود وفكروا بانى اخدمكم دون غاية. وبعد ذلك ابصرت خطه فاخرجت ثمانية دراهم ونقدته اياها. وقد حدثتنى نفسي اذاك بان ارجع له ايضا العصى التى اعطاني اياها. ولكني ضربت صفحا عنها لئلا اعترف باني تلقيتها وتركته وذهبت بمعيتهما بعد ان شكرتهما على اطلاق سبيلي وفدائي محمر الوجنتين من شدة اللطم وحزين الظهر من اثر العصى. وكان القطلونى يكثر المزح على حسابي ويقول للفتاة ان تتزوج بي ليعكس المثل القائل «ديوث فمعصو فيصير معصو فديوث» (1) ويدعي

1) في الاسبانية مثل يقول «ديوث فمعصو (اى مضروب العصا) ومع هذا يامرونه ان يرقص»

ان العصى التى نلتها قد اتت علي وهزتني هزا. ومجمل القول انه زجنى في مازق حرج مخجل بتلميحاته هذه. وصرت اذا دخلت عليهم شرع يلوح بالاعواد او الاخشاب كانه يعصو شخصا آخر ولما رأيت نفسى مضحكة ورأيت انهم بدأوا يشعرون باحتيالي شرعت احاول مغادرة الدار. ولئلا ادفع ثمن الاكل والاقامة الذى كان يبلغ قدرا وافرا اتفقت مع طالب من هورنبوس، (2) يسمى براندالاغاس. وصديقين له اخرين على ان ياتوا المثوى ليلا ويعتقلونى. فوصلوا في الليلة المتفق عليها وابلغوا ربة المثوى انهم قادمون من لدن

وهو يضرب تمثيلا بمن يصاب بمصيبة تلو اخرى ويطلب منه الا يحزن. وقد اتى المؤلف هنا بجناس فاستعمل الكلمتين معصو وديوث بمعناهما الحقيقي اشارة الى العصي التى تلقاها بطل القصة وما ينتظره اذا تزوج من خداع زوجته له لما ذكر عن سيرتها سابقا. فلذا قدم قوله معصو. على ديوث

(2) بلدة من مقاطعة بلد الوليد

محكمة التفتيش وانه من الاولى ان يبقى الامــر محاطا بالكتمان. فارتعدتا خوفا لانى كنت انبأتهما فيما مضى باني عالم بفن السحر. ولـذا حيــن اخرجت لم تنبسا ببنت شفة ولكن حين اخــرج متاعى اعترضتا طالبتين ان يحجر مقابــل مــا في ذمتي من دين فاجابوهما ان ذلــك المتاع مل ك محكمة التفتيش فلم يحرك احد ساكنا. وتركتاهم يخرجون بالمتاع وبقيتا هنالك تردان انهما طالما خشيتا وقوع ما وقع ثم اخبرتا القطلوني والبرتغالي بامر من جاءوا في طلبى وانهم من الجن وانــ ني اقارب بينهم وحين اخبرتاهما بشأن المال الذي عددته قالا انه كان يظهر مالا لكنه ليس بمــال في واقع الامر واقتنعتا بذلك وهكذا نجوت بالبستى ولم ادفع ثمن طعامى.

واتفقت مع من ساعدانى على استبدال زيي بالبسة توافق الزي الرائج فلبست سروالا قصيرا وقبعة واسعة واستعضت عن خادم بخادمين صغيرين اذ كان هذا ايضا من الرائج اذاك وقد شجعوني

على ذلك وحسنوه في وجهي . . . في
ظهور بمظهر غني من نفع ننروج ز . . . .
مؤكدين على ان ذلك ليس من النادر في العاصمة
واضافوا بقولهم انهم يرشدوني الى عرس موافق
واشاروا علي بان اتهيأ لما قد يجد. فما كان مني
مع ما انا عليه من التحيل والطمع في اصطياد
زوجة الا ان عزمت على الامر. فزرت من حوانيت
الدلالة ما لا يحصى واشتريت جهاز العرس.
واستفسرت عن موضع اكراء الخيل فاعتليت اليوم
الاول جوادا لكني لم اجد خادما فخرجت الى
الشارع الاكبر ووقفت ازاء حانوت تباع فيه عدد
الخيل كمن يقاول في شراء واحدة

وما هي الا فترة حتى وصل اثنان من اهل
البيونات كل على فرسه فسألاني عما اذا كنت
اقاول على شراء فرس ابيض كانت تدي فوقه
فازحت يدي واعتينهما معي بلطف مجاملة واخيرا
قالا انهما ذاهبان الى البرادو للنزه فقلت لهما
اني ارافقهما ان لم يغضبهما ذلك واوصيت التاجر

انه متى جاء خادماي فليوجههما الى البرادو واعطيته علامة الرداء الذي يلبسونه ووقفت بين الفارسين وباشرنا السير. وبينما نحن سائرون شرعت افكر في انه ليس بوسع من يرانا ان يحكم لمن هم الخدم او من منا يسير بدونهم فجعلت اتكلم بصوت عال عن سباق طلبيرة وعن فرس لي ابيض اللون تمازجه الزرقة. وبالغت في وصف جواد آخر قلت انهم سياتونني به من قرطبة. وكلما التقينا بخادم يقود فرسا اوقفته وسألته لمن الفرس واستفسرته عن علاماته وعما اذا كان صاحبه يرضى ببيعه. ثم اطلب منه ان يدور به دورتين في الشارع واخيرا اقول له ان به عيبا في اللجام وان لم يكن لذلك اصل واشير عليه بما يجب صنعه لاصلاح ذلك العيب وشاء حسن طالعي ان اجد فرصاً عديدة لتكرار حيلتي واذ ابصرت رفيقي يسيران منذهلين ولاح لي انهما يقولان «من عساه ان يكون هذا النبيل المعدم الجخاف؟» ـ لان احدهما كان يرتدي بدلة الاشراف فوق صدره

والاخر يحمل سلسلة من الماس بحيث جاءت كبدلة وشارة معا ـ قلت انى افتش عن خيل طيبة لي ولابن عم لى لاننا مقبلون على بعض الاعياد ولما بلغنا «البرادو» اخرجت قدمي من الركاب وجعلت عرقوبى خارجا واخذت ادور متنزها على هذه الحالة. وكان معطفى ملقى على كتفي وقبعتى في يدي. والكل ينظرون الى فمن قائل: «الا انى ابصرت هذا ماشيا» ومن مردد متهكما: ما احيلى الشاطر في سيره هذا!» اما انا فكنت اواصل النزهة متغاضيا كأنى لم اسمع شيئا.

وبلغ رفيقاى عربة تقل سيدات فطلبا منى ان امازحهن فترة ما. فتركت لهما جانب الفتاتين وانصرفت الى الام والخالة. وكانت العجوزان ممن يحببن المرح. احداهن تقارب الخمسين سنة والاخرى تقل عنها بعض الشيء. فاسمعتهما من حلو الكلام ورطبه الشيء الكثير وانصتتا الي بفرح لانه ليس في الدنيا امرأة مهما شاخت اكثر سنا منها ادعاء ووعدتهما بهدايا وسألتهما عن حالة

السيدتين اللتين ترافقانهما فقالتا انهما مازالتا فتاتين وكان ذلك يبدو في حديثهما فاجبت بالمالوف اى متمنيا لهما ان ترياهما تسعدان بزواج حسب استحقاقهما. فاعجبتهما تمنياتى وسالتاني عما اقوم به في العاصمة فقلت انى قدمتها هاربا من ابى وامى لانهما يريدان تزويجى بالرغم عن ارداتي بفتاة قبيحة المنظر، بليدة ومن اصل حقير لعظم مهرها واضفت قائلا: «وانا يا سيدتى افضل امرأة نظيفة معدمة على يهودية مثرية. فان ملكى ولله الحمد دخله اربعون الف دكة سنوية. واذا نجحت في دعوى لي قد اصبحت على وشك النهاية فانى لن احتاج فيما بعد شيئا البتة» فقاطعتنى الخالة بقولها:
اجل ايها السيد! وكم انت مصيب! لا! لاتتزوج الا على خاطرك ولا يكن زواجك الا بامراة عريقة في النسب. وانى اوكد انى مع قلة ثروتى لم ارض بزواج ابنة اختى مع كثرة من طلب يدها من المثرين لانهم لم يكونوا من محتد كريم. الا انها والحق يقال فقيرة اذ ليس لها من مهر سوى ستة

الاف دكة، لكنها لا يجاريها احد في النسب،
قلت ،في رأيي انك احسنت صنعا،

وبينما نحن في هذا انتهى الحديث بالفتاتين الى طلب شيء للعدوفة من صاحبي فاذا بهما عند هذا الطلب يصح فيهما قول الشاعر:

،وكان كل واحد يصوب نظراته الى الاخر
بينما الجميع ترتجف لحاهم، (3)

ولما ابصرت الفرصة سانحة قلت انني استطلت

---

3) هذا البيتان مأخوذان من نشيد ،موت ضون الونصو اغيلار حيث يقرأ ان الملك فرناندو بينما كان يغزو غرناطة جمع كبار فرسانه وسألهم قائلا. ،من منكم ايها الاصحاب يتوجه غدا الى جبل الشارات، فيضع رايتي فوق البشرة؟،

فأخذوا يصوبون نظراتهم بعضهم لبعض دون ان تخرج كلمة ،نعم من فم واحد منهم لان الذهاب خطر والاوبة غير اكيدة ففي وسط هذا الخوف المستحوذ عليهم كان الجميع ترتجف لحاهم، لولا ضون الونصو المسمى اغيلار

خدمي فليس لدى من ارسله الى الدار ليأتيني ببعض الصناديق الصغيرة فشكرنني على ذلك ورجوتهن ان يذهبن في الغد الى «كاسا دل كامبو» حيث ارسل لهن لحوماً باردة فقبلن دعوتي ودللنني على دارهن وسألنني عن داري ثم ابتعدت عربتهن وسلكت انا ورفيقاي طريق الاوبة الى الدار. ولما ابصرا سخائي في دعوتي السيدات لعدوقة العصر ارادا ان يقلداني فضلا يجبرني على مقابلته بالمثل فدعواني الى العشاء معهما تلك الليلة فامتنعت في بادىء الامر لاحملهما على الالحاح في الدعوة وان كان امتناعي لم يطل، ثم تعشيت معهما وبعثت في طلب خدمي مقسما اني ساطردهم من داري. ودقت الساعة العاشرة فقلت لهما اني على موعد غرامي في تلك الساعة ورجوتهما ان يعذراني وذهبت بعد ان اتفقنا على ان نلتقي عشية اليوم التالي في كاسا دل كامبو.

وحين ودعتهما ذهبت الى صاحب الحصان فارجعته له ومن ثم توجهت الى الدار فوجدت

الرفاق يلعبون بالورق لعبة الكينولياس» فاخبرتهم بما وقع وبالاتفاق الذي حصل وقررنا ان نرسل دون تاخير عدوفة العصر وان ننفق فيها مئتى درهم. ورقدنا بعد ان اتفقنا على هذا العزم. واعترف انى لم اطبق جفنى تلك الليلة وانا افكر فيما عساى ان افعله بالمهر. وما كان موضع تردد في نفسى هو ما اذا كان من الافضل انفاقه في بناء دار او تسليفه بالفائدة اذ لم اكن ادرى اي الوجهين احسن وانفع لى.

الفصل السابـع

وفيه يتلو الكلام على القصة نفسها وعلى غير ذلك من الحوادث والنكبات الخطيـرة

اصبح الصباح فافقنا ونهضنا على عجل نفكر في اية طريقة نعد الخدم والانية والعصرونية. ولكن بما ان الدينار هو السيد المطاع الذى لا يحجـم عن احترامه احد فقد حصلت على مبتغاي بواسطة صانع حلوى مقابل كمية انقدته اياها فمدني بالانية وتولى تقديم العصرونية بنفسه يعاونـه ثلاثة خدم ومضى الصباح في اعداد العدة وعند العصر كنت قد استأجرت مهرا. ولما حانت الساعـة المضروبـة سلكت طريق «كاسا دل كامبـو» وقد حشوت تكتي اوراقا كمذكرات وفككت ستة ازرار مـن المعطف فاطلت من تحته بعض الاوراق.

ولما وصلت كانت السيدات والنبيـلان قد

سبقوني الى حيث تواعدنا على اللقاء. فاستقبلنني هن بكل حنان بينما اخذ النبيلان يخاطبانني بلسان المخاطب (1) توددا وتقربا. فقلت لهم ان اسمي ضون فيليبي تريستان، وطيلة النهار لم يسمع سوى اسم ضون فيليبي تتداوله شفاه الجميع

فشرعت اقول لهن اني انهمكت باشغال لصاحب الجلالة واخرى تتعلق بملكي الى حد اني كنت اخشى الا اتمكن من الوفاء بوعدي محاولا بذلك ان اهيأهن للعصرونية فجأة. وبينما انا في الحديث هذا اذا بصانع الحلوى قد اقبل بالعدة والانية والخدم فصارت نظرات السيدات والنبيلين مصوبة الي بينما لزمت ألسنتهم السكوت فامرته بان يذهب الى العريش وان يجهز العصرونية

---

(1) كان التخاطب بلسان المخاطب Vos دلالة على رفع الكلفة بين المتخاطبين. والا كان بلسان الغائب مع تقديم كلمة «حضرتك» فتقول (حضرتك جاء او جاءت)

هنالك ريثما نذهب الى الغدران. ولكن العجوزين ما عتمنا ان بلغتانى لتتحفاني ببعض الهدايا وقد ازددت انشراحا حين ابصرت الفتاتين مكشوفتى الوجه لاني لم ار بين خلق الله اجمل وجها من تلك التي فكرت بها لتكون زوجتى؛بيضاء، شقراء، محمرة الوجنتين، صغيرة الفم، كبيرة العينين خضراءهما، ممشوقة القد، جميلة اليدين، في لسانها صأصأة. ولم تكن الاخرى بقبيحة الشكل وانما وجدتها اقل حشمة وخامرني الشك في انها كثيرة التقصال وسرنا الى الغدير وابصرنا كل شيء وعلمت خلال الحديث ان زوجتى العتيدة لو عاشت في عهد هيرودس لكانت عرضة للهلاك كواحدة من جملة الابرياء (2) اجل انها لم تكن عالمة ولكن بما انى لا اريد المرأة مرشدة ولا مهرجة بل

---

(2) تطلق كلمة بريء inocente من باب المجاز على قليل الفطنة. و«الابرياء» يعني بهم الاطفال الذين قتلهم هيرودس حين علم بولادة يسوع المسيح

اتقاسمني الفراش، وان كانت قبيحة ورصينة فكاني اتقاسمه مع ارسطاطاليس او سينيكا او كتاب ما، فاني اسعى ان تكون ذات حسن وجمال

ثم وصلنا الى جانب العريش وبينما انا امر بشجنة اذا بزينة طوقي تتعلق بشجرة فتنخرق قليلا واذاك اقبلت الفتاة وامسكته بخلالة من الفضة وقالت لي امها ان ارسل الطوق في الغد الى دارها لتصلحه ضونيا آنا - وهو اسم الفتاة - وكان كل شيء راضيا: عدوقة وافرة من طعام طازج وبارد وفاكهة وحلوى. واخيرا رفع الخوان وبينما نحن في هذا اذا بفارس قد اقبل علينا من الروض المحاذي يصحبه خادمان فعرفت فيه صاحبي ضون دييغو كورونيل واقترب هو مني. واد كنت بذلك الزي اخذ يتفرس في. ثم خاطب السيدتين داعيا اياهما ببنات عمه وخلال هذا كله لم تكن عيناه لتفارقاني. وكنت انا حينئذ اتحدث مع صانع الحلوى بينما رفيقاي اللذان كانت ترتضيهما به

صداقة متينة كانا متماديين في الحديث معه فسألهما ـ حسبما ظهر بعدئذ ـ عن اسمي فاجاباه: ضون فيلببى تريستان، وهو من عائلة نبيلة وذو شرف رفيع وثروة واسعة فرأيته حينئذ يرسم على وجهه اشارة الصليب مستعيذا. واخيرا اقترب منى على مرأى من الجميع وقال. «سماحا ايها السيد لانـي حسبتك قبل ان اعرف اسمك شخصا آخـر على طرفى نقيض مما انت هو. حيث لم ار قط شبها بين شخصين مثله بينك وبين خادم كان لي في شقوبية اسمه باباوس» ابن حجام من تلك المدينة» فضحك الجميع ضحكة عريضة وسعيت بدورى لئلا ينم بي لون وجهي وقلت انى ارغب في رؤيـة ذلك الرجل لاننى قد سمعت من اناس عديدين ان بينى وبينه شبها عظيمـا. فقاطعنـى ضون دييغو بقوله: «ويـا له من شبه! في القـامة والـكلام والحركات! وحقك انى لم ار تشابها كهذ». واذاك قالت السيدتان ـ الخالة والام ـ كيف يمكن ان يحصل تشابه كهذا بين نبيل من الرفعة بهذا المقام

ومحتال سافل كذلك، واضافت احداهن بقولها دفعا لكل شبهة: «اني لاعرف ضون فيليبى حق المعرفة وهو الذى اضافنا بامر من زوجى في بلدة اوكانيا» ففهمت مقصدها وثنيت على كلاميا بقولى ان رغبتي كانت ولم تزل في خدمتهن قدر استطاعتي انى كان. واذاك عرض علي ضون دييغو صداقته واستسمحني عن الاهانة التى وجهها الى باخذه اياي بابن الحجام. واضاف قائلا: ان حضرتك قد لا تصدق ما اقوله لك عنه: فامه كانت ساحرة وابوه لصا وخاله جلادا. وهو شر خلق الله واكثرهم دناءة وما قولك بما شعرت به حين سمعت عن نفسي هذه المنكرات؟ فوالحق يقال لقد كنت — وان حاولت الاخفاء — كمن على الجمر. واخيرا حاولنا الاوبة الى المدينة فودعنا السيدات وضون دييغو انا ورفيقاى وركب ضون دييغو العربة معهن. فسألهن عن مغزى هذه العصرونية واجتماعهن بي فاجابته كل من الام والخالة اني ذو ملك ريعه السنوي كذا من الدكات وانهما تريدان ان تزوجاني

بآنيكا (3) وقالتا له ان يستفسر عنى فيرى ان الامر مصيب وان فيه شرفا عظيما لكل عائلتهن.

واثناء هذا الحديث بلغ دارهن الواقعة في شارع الارنال بالقرب من كنيسة سان فيليبي اما نحن فذهبنا الى الدار جميعا كالليلة السابقة، وطلب مني رفيقاي ان نلعب طامعين في سلبي. ففهمت مقصدهما وجلست فاخرجا الورق - وكانت الاوراق مزورة كالحلوى - فخسرت اللعبة الاولى لكني ما لبثت ان عاودت الكرة وربحت منهما نحوا من ثلاثمائة بلبون؛ ثم ودعتهما وعدت الى داري. فالتقيت برفيقي المأذون براندالاغاس وبيرو لوبيس اللذين كانا يدرسان في زهر النرد بعض الحيل الناجحة فلما ابصراني تركا ما هم فيه وسألاني عما وقع لي فلم ازد على القول باني وجدت نفسي في مأزق حرج واخبرتهما كيف التقيت بضون ديغو وما حصل لي فسلياني واشارا

(3) تصغير آنا

علي بالتكتم والا اتراجع عن قصدي باية طريقة او وسيلة.

وبينما نحن في هذا بلغنا انه تنتظم في دار جار لنا صيدلانى حلقة للعب بالورق لعبة الوقوف وكنت انا احسن هذه اللعبة اذ كان لدى ورق مزور يمكنني من الغش فقررنا ان نذهب الى داره لنفجع من عنده بميت ـ اذ يعنى بهذا الاسم دفن صرة ما ـ فسبقنى اليها صاحباي وسألوا من هناك عما اذا كانوا يرغبون ان يلاعبوا راهبا بندكتيا قدم منذ قليل للاستشفاء في دار بنات عمه وانه اقبل مريضا ومعه كثير من الدنانير والبلايين المثمنة (4) ففتح الكل اعينهم وصاحوا قائليـــن: اهلا وسهلا بالراهب على الرحب والسعة فاضاف بيرو لوبيس بقوله: لا يخف عليكم انه ذو مكانة في رهبنته ولكنه يريد ان يسلى وهو خارج عن الدير فان يلعب فذاك لما في اللعب من حديث

---

4) البلبون المثمن نقد فضى كان يوازي ثمانية بلايين من الفضة القديمة

اكثر من اي شئ آخر فاجابوه ثانية بقولهم: «فليأت ايا كان قصده» فعطف عليه براندالاغاس بقوله: «من اجل الحشمة ..» فقاطعه الصيدلاني قائلا: «لا حاجة الى زيادة البحث في الموضوع» وبهذا انطلت عليهم الحيلة واقتنعوا بانهم سيقعون على غنيمة باردة وعاد صاحباى الى الدار فاذا بي قد وضعت منديلا على رأسى وارتديت ثوب راهب بندكتي ـ وكان هذا الثوب قد وقع بين يدي في احدى الفرص ـ ووضعت نظارة فوق عينى ولحية مستعارة لم تكن لتعوق لانها كانت ممشطة فدخلت متواضعا وجلست ثم بدأ اللعب. وكان الثلاثة الاخرون قد تآمروا علي لكن صفقتهم جاءت خاسرة لانى كنت ادرى منهم باللعب فسقطوا في شراكى ولم تمض ثلاث ساعات حتى ربحت منهم ما يربو على الف وثلاثمائة بليون واخيرا اعطيت الحلوان وودعتهم قائلا: «الحمد لله رب العالمين» واوصيتهم ان لا يروا في لعبى بابا للشك لانى ما لعبت الا للتسلية.

لكنهم ـ وقد خسروا كل ما عندهم ـ اخذوا يستعيذون بالابالسة فودعتهم وانصرفنا عائدين الى الدار على الساعة الحادية والنصف ورقدنا بعد ان تقاسمنا الغنيمة. وقد عزاني هذا بعض الشئ عما انا فيه. وفي الغد ذهبت باحثا عن حصان اركبه فلم اجد واحدا اكتريه فتبين لي من ذلك ان كثيرين من الناس بهم مثل ما بي لان السير على الاقدام كان يعتبر عيبا وخصوصا في ذلك العهد. فتوجهت الى حي سان فيليبى فالتقيت بخادم لمأذون يحرس جوادا كان صاحبه قد نزل عنه منذ هنيهة وذهب يسمع القداس فنفحته باربعة دراهم ليسمح لي ان اجول جولتين على متنه في شارع الارنال وهو شارع محبوبتي ريثما يخرج مولاه من الكنيسة فرضي بذلك وامتطيت الجواد وجلت به جولتين من طرف الشارع الى طرفه الاخر دون ان ارى احدا. وعند الجولة الثالثة اطلت ضونيا آنا. فلما رأيتها اردت ان اتظرف معيا ولما كنت اجهل احوال الحصان ولم اكن خيالا ماهرا فاذا به بعد

ان سطته سوطين وشددت لجامه يشبو ويلبط لبطنين ثم يركب رأسه واذا بي اهوي في مستنقع هنالك واقبل الصبيان من كل صوب يحدقون بي. فلما رأيت نفسي على هذه الحالة وكل ذلك على مرأى من محبوبتي لم اتمالك من الصياح غاضبا آه يا ابن الفاجرة! هب انك من خيل بالنزويلا (٥) لما عفوت عنك! وانك لتدفعن غاليا ثمن هذه الوقاحة! اجل لقد اخبرت بنزواته هذه لكن اردت ان اخبرها بنفسي، وعاد الخادم بالفرس فوقف وركبته ثانية. وكان ضون دييغو كورونيل يقيم في دار بنات عمه. فلما سمع الضوضاء اطل ليرى مصدرها واذ ابصرته سقط في يدي فسالني هل اصبت بمكروه فقلت ان لا وان كانت احدى ساقي قد عطبت وكان الخادم يلح علي ان اسرع قبل ان يخرج مولاه ويراه لانه متوجه الى القصر

---

٥) نوع من الخيل الاصيل اشتهر بتحسين نسلها خوان دي بالنزويلا سائس الدوكي دي سيسا فاطلق عليه اسمها

لكن ما سو تدعي ن يصل في ذلك التحته ب
ختين قادم من النور والخاتم يعوزني ان نذهب
فمرت حوله ونهوي على الخاتم لطبا وخصا عماعما
على عموده نانه من الحافه ان عدي فرسه اسحص
آخر ولكني انه المعت الي وقال لي عاصه ان
ارل لي عم وضون ب مو وخوي ساعدني م
نجري فوله ان غرا تعدا ثم نلحق واحد من
اس واناسي من حمدون وكان حزني
سد وجه لرؤيتي مصمم تضمن تجمعن
في سر من الرض. واخيرا ثم رسا من النرول
قرب المادون ومار في حال مسله ان انا قعد
لكن رسه نفس احداث من اسرع مع حسون
دمعو قف. لـ رات فد حو نا ضري عن ند
واني قد سرقت فرسي "السيد في سن قسي
وهو حموت ومن عدته ر سي د.. ربع ذمت
فاني حمله على اعشي وحده نحري في عنف
حسب هواي ونه ودت عمد ومن لي ن سب
فرما آخر ان استطع ترويضه ــ وهو فرس ه

المأذون ـ فاردت ان اجربه ، والحق يقال انه من الصعب ان يصدق المرء ما يقال عن صلابة عجزه فضلاً عن سوء سرجه . ولولا معجزة ارادهـا الله لارداني قتيلا فقال ضون دييغو: نعم! انها لمعجزة ومع هذا كله اراك تشكو من هذه الساق فقلت له: لاجل انها تؤلمني واود لو ذهبت فركبت حصاني وعدت الى داري اما الفتاة فقد اطمأنت الى ما سمعته حينئذ مني وابصرت عليها علامات الاسف والغم بسبب سقوطي . لكن ضون دييغـو خامره الريب في ما رآه من امر المأذون وما جرى في الشارع. فكان سبب شقائي زيادة عن مصائب اخرى عديدة وقعت لي . واعظـم تلك المصائـب واصلها كلها هو اني حين بلغت الدار وتقدمـت لارى صندوقا اودعت فيه حقيبة حوت كـل ما بقي لي من ميراثي من المال وما ربحته في اللعب ـ عدا مائة درهم كنت احملها ـ فاذا بالمأذون الطيب براندالاغاس وبيرو لوبس قد ذهبا به ولم يتركا وراءهما من اثـر . فجمد الدم في عروقي

وبقيت حائرا في امري لا ادري اي طريق اسلك وكنت اردد في نفسي قائلا: وبال لمن يبق المال الحرام فانه يعود من حيث اتى! واحسرتاه! ما عساني صانع! ولبثت مترددا بين ان اجري وراءهما باحثا عنهما او اخبر العدالة بشأنهما لكن هذا الوجه الاخير لم يبد لي صائبا لانهما لو قبض عليهما لما احجما عن الافشاء بقصة الزي الرهباني الذي لبسته وبامور اخرى غيرها. وذلك معناه الموت على اعواد المشنقة. اما ملاحقتهما فلم تكن بالسهلة لانني لم اكن ادري اي السبل اتخذا.

واخيرا ولئلا اخسر صفقة الزواج – اذ صرت اعسر ان احوالي تستقيم بالخير – قررت ان القي ولو كلفني ذلك ان اشد حزامي شدا محكما. فاكلت وعند العصر استاجرت مهرا وسرت نحو شارع محبوبتي ولما لم يكن معي خادم ولم ارد ان تراني بدونه صبرت في احدى الزوايا الى ان يمر واحد من الذين تكون عليه امارته فاذا ما جاز خرجت وراءه فبدو كأنه خادمي ولو لم يكنه

في واقع الامر وحين ابلغ طرف الشارع ابقى جاذبا الى ان يعود واحد آخر عليه اماراته فاعيد الكرة وأجول جولة اخرى. ولست ادري اذا كانت قوة الحقيقة بكوني انا نفس ذلك الشاطر الذي داخلت ضون ديغو ريبة في امره ام هي الريبة التي ساورته بسبب حصان المأذون وخادمه وما جرى في دفعه ام لاي سبب آخر، ولكن الواقع هو انه جعل يستقري عن شخصي وموارد عيشي ويترقبني واخيرا كان من نتيجة سعيه انه اطلع على الحقيقة باقرب الوسائل واعجبها لاني كنت انمسك بقضية الزواج منجحا ببعض الرقائق وكانت السيدات تلح علي لرغبتهن الحارة في الفراغ من القضية وبينما هو يسعى وراثي التقى بالمأذون فلنشيا – وهو الذي اضافني يوم كنت اسكن مع الفرسان – وكان هذا غاضبا علي كال الغضب لاني لم اعاود زيارته. ولما كان يعلم اني كنت فيما مضى خادما عند ضون ديغو اخبره كيف انه رآني ودعاني الى الغداء عنده وكيف انه ابصرني منذ يومين على

ممن فرس في زي انيق وكيف اخبرته بانني سأتزوج
بغادة ذات ثروة وسمعة. فلم يكن من جون دنغو
الا ان عاد الى داره وبينما هو في الطريق التقى
عند باب الشمس بتمساحين اللذين كنت قد عرفت
الى محمودي برفقتهما فقص عليهما القصة كلها
وقال لهما ان يسعدا فاذا ابصراني ليلا في الشارع
فليحذرا رأسي. وانهما سيعرفانني بالمعطف الذي
ألبسه فاني ادون ما ألبسه اذاك. ولما بلغه
الامر بحثت لي كثيرا قط بعض موزنبيه لي كما في
تلك الساعة وكان من الحديث حول ما يحسن ان
نصنعه ليلا وحينئذ ودعنا الفارسان وصارا في
سبيلهما في الناحية المحاذية من الشارع وتبعنا انا
وجون دنغو فصعدنا نحو سان قسي ومن بعد
مدخل شارع السلم قال لي جون دنغو أتخفي
عليك هلا استلمت معطفي بمعطفك لانني احب
ان امر من هنا دون ان اعرف فقلت: ممكن ما
اردت واخذت معطفه واعطيته معطفي ودي و عصبه
معطفي في ساعة نحس وشرعت عنده نفسي تدفع

عنه لكنه وقد اسر في نفسه ان يوقعني في الشرك قال انه يفضل السير وحده ومن الاحسن ان اولى ذاهبا.

فما كدت احيد عنه حتى شاء الرجيم ان كان هناك شخصان ينتظرانه ليفتكا به بسبب احدى النساء فابصراني وانا لابس معطفه فحسباني اياه وانهالا علي ضربا بعرض السيف فاخذت اصيح. وعلى الصياح وبعد ان تفرسا في ادركا اني لست بضون ديغون فوليا هاربين وبقيت في الشارع وحدي اشكو ألم الضربات ووقفت برهة لا اجرؤ على دخول الشارع واخيرا على الساعة الثانية عشرة وهي موعد حديثي مع محبوبتي بلغت باب دارها فاذا باحد الرجلين اللذين كانا ينتظراني اعتقادا باني ضون ديغو يتصدى لي وينهال علي بعصا. وينيلني ضربتين على ساقي فيرميني على الحضيض واذا برفيقه يتقدم مني فيجز شعر رأسي من اذن الى اخرى ثم نزعا مني المعطف وتركاني مرميا على الارض وهما يقولان «هذا جزاء الكذابين المحتالين الساقطي الاصل فاخذت اصيح واستغيث

غير اني لم اكن لاعلم حقيقة الامر وان خامرت نفسي ريبة مما سمعته منهما بانه قد يكون صاحب الموى الذي خرجت منها بتلك الحيلة التي نصنعها بدعوى تداخل محكمة التفتيش او السجان المخدوع او رفاقي الهاربين. وخلاصة القول اني كنت انتظر الطعنة من كل جهة ـ بحيث لم ادر لمن انسبها ـ حاشا ان تجيئني من جانب خون دبيغو وكنت اصيح بملء شدقي قائلا: ياسرقة المعاطف! فاقبل رجال الامن ورفعوني. ولما ابصروا في وجهي جرحا بليغا ورأوني بلا معطف ولم يدروا ما هي القضية ذهبوا بي ليعالجوني فادخلوني دار احد الحجامين فضمد جرحي وسألوني عن مسكني ثم حملوني اليه.

فرقدت وبقيت تلك الليلة حائرا مفكرا تاما وجهي المشقوق وجسمي المرضوض وساقي المحطمين وقد عجزتا عن حملي ولم اكن لاحس بهما وهكذا بت مجروحا مسروقا بحيث لم يبق بوسعي ان الحق باصحابي ولا ان احاول التزوج ولا ان اقبر في العاصمة ولا ان اغادرها.

الفصل الثامن

في شقائي وغير ذلك من الحوادث الغريبة

-

اصبح الصباح فاذا بي ارى فوق رأسي ربة الدار وهي شيخة طاعنة في السن متجعدة التقاسيم معسرة الوجه كسمرة نمن طليت طحينا: ان سئلت عن سنها اجابت انها ما زالت في ريعان الصبا مع انها ذات وجه كثير القعور لحيا، عوراء لا تعري ولا تشتهي فهي مثال العجوز الساحرة. وكانت ذات شهرة في الحي وما اكثر من كانوا يضاجعونها ومن شأنها ان تسع الاذواق وتجمع بين الشهوات وأسمها فلانة دي لاعبا. وكانت تكري دارها وتفتش عن مكترين لدور اخرى. ولم يكن المثوى ليخلو من الناس طول السنة وانك لتعجب لو رأيتها تدرب الفتيات في فن الاتئذار. فتعلمهن ما يحسن بهن كشفه من وجوههن اولا. فالشنياء

نعتبر ان تبسم دقة ولو في الته وذات البدين
الجسم أن لا نغمر عن اظهارهما والسقوط الشعر
ن نهز رأسها وتخرج طرف ضفيرة من تحت
المعتف والمدن والجيلة المميز ان ترقص
حدقتيها فتارة تعمضيها وطورا تتضاع تهدا الى
اعلى وكان من اجادتها في العمر ان لو دخلت
عليها نسا سوق لا بالعرفان تعذى الى منزلهن تحت
الوجوه بحيث لا يعرفهن احد الا والا رجائهن
نفسيه وكان لنيها وجعه تسمعها هيرودس لانه
شعر نية الانتقال في تكون مهنتهم وتسبب لنسا
حملا منا ووضعا اسوأ عمر زوجه كانت ابرز
ما تكون في ترفيع العذارى بتسيد القبت. وفي
تماثيل ايام قضت في دارها ربه تعمر لها عند
وتحيله للامر كانت تعلم انسا سلب نسا
وامثلة تردديها مرتدة ادعي على سير الامسية
على أموال الرجال فاحصرت بالعنف والجامعة
والصباد دائمدية والحتز من قسر الاحسرام
والاسرد. وكانت تعليهن اساليب لغضب كل شعر

واساليب اخرى لطلب السلاسل والحلى. وتستشهد ببلاندانيا» زميلتها في القلعة و «بلانوسا» زميلتها في ترعس وكلتاهما من البارعات في فن الاحتيال والكذب

وقد سردت هذا كله لتداخـل الشفقة قلب من دري بين اية ايد سقطت ويقدر خير تقديـر ما قدمته لي من الحجج وحيث لـم تكن لتتكلم عني قبل ان تضرب عليه الامثلة بدأت بقولهـا: «اعلم يا بني ضون فيليبي انه من حيث تخرج ولا تزيد سرعان ما تبلغ القعر البعيـد» وكما يكون التراب يكون الوحل» وكما تكون الاعراس تكون الحلوى. وانا لست اعرفك ولا اعرف طريقة عيشك ولكنك فتى ولا يهولني ان تبـدر منـك نزوات الشباب دون ان تحسب اننا ونحـن نيام نسير نحو اللحد. وانا ككتلة من التراب بوسعي ان اكلمك بهذا الكلام وهل من جديد في ان يقال لي انك اتلفت ثروة واسعة دون ان تشعر بها وانك شوهدت يوما طالبا وآخر شاطرا وثالثا نبيلا

وكل هذا من جراء الصحبة التي بليت بها! "
قل لي يا بني من ترافق وانا اقول لك من انت!
الا ان كل نعجة وصاحبتها. واعلم ايضا يا بني ان
الحذر منجاة للمرء لان الغرق قد يضيع بين المد
والغم وانها ايها الابله! فان اقضت عليك مضجعك
رغبة في النساء فاعلم اني الامينة على تلك السلعة
في هذه الديار واني اتعيش مما اربحه في هذه التجارة
وسواء علي الدلالة ام الشراء وغالبا مانحتفظ بهن
في الدار وليس عليك ان تنتقل من صحفة سطر
الى سطر آخر سعيا وراء معمرة متبرجة تهب نفسها
لمن يقدم لها صحن طعام وحقك انك لو سلمتني
ذاتك لوفرت على نفسك كثيرا من الدنانير لانني
لست ممن يحب المال وحق اسلافي وموتاي
والميتة الصالحة التي ارغبها ما كنت لاطالبك حتى
بما لي عندك من اجرة المنزل لولا حاجتي الماسة
لشراء بعض الاعشاب والنباتات ـ لانها كانت
تشتغل بالمساحيق دون ان تكون عقاقيرية وتتعاطى
السحر لمن تدفع لها عدة احرا.

ولما ابصرت عظمها قد انتهت بالمطالبة اوقد اخرنه مع انه موضوع حديثها ولم تبدأ به كما يفعل المقيه، لم اجزع لزيارتها ولم نقم بها سابقا حين كنت نزيلها وانما وقع ذلك ذات يوم قدمت فيه غرفتي انعتذر لي عما سمعته من حديث اناس لي عن شؤون سحرية وان العدالة حاولت ان تقبض عليها فاخفت الدار والشارع عن نظر رجالها. فجاءت لتنزع من رأسي ذلك الوهم قائلة ان التي فعلت تلك الفعلة امرأة اخرى تدعى غياء ولا عجب ان ضل الطريق جميعنا حين نسير وراء ادلة كاولئك (1) واخيرا عددت لها مالها وبينما انا اعطيها اياه شاء الحظ العاثر ـ الذي لا ينساني قط ـ وابليس الذي يتذكرني دائما ان يدخل مامورو العدالة ليقبضوا عليها بتهمة الزنا وقد علموا ان عشيقها عندها اذاك. فدخلوا غرفتي

---

1) اتى المؤلف بجناس حول كلمة غيا التي معناها الدليل وقد استعملها اولا كاسم علم ثم بمعناها الحقيقي

وجدت أحدروني في الفراش وهي الى جانبي اهالوا علينا جميعا بالضرب المحن. وقد سوني مرارا ثم جروني خارج الفراش. أما هي فامسكها اثنان منهم وصبا عليها وابلا من الشتائم ناعتين اياها بفاجرة ماجرة. ومن شأن ليظن هذا الظن المرء حين إبانها على الشكل الذي وصفته وعلى رفيق الأمور وتأويلها الكبيرة في العشق - وهو بائع فاكهة وكان اذاك داخل الدار - هارب. فلما أبصروه وعرفوا ما قاله وأحد آخر من نسوة شوى أني لست صاحبها أطلقوا وراءه وأمسكوه بعد أن تركوني مسوقا مضروبا. ومن كل مصيبتي كنت أضحك مما كانوا يقولونه للحضور. فقد كان أحدهم ينظر اليه قائلا: ما أحسن ما سكونهم بهم الآن وتلي رسلك يا أستغفر الله وإنه سيري

...

إذا كان المحكوم عليهم بحرية ثري وأسحر يخاف منهم في الشوارع وعلى رقوسهم تاج يستغني بين الجمهور وشعار بنوع خاص تراعونهم بالخضر والفواكه وغيرها

ان اراك ترسمين ثلاثة الاف لفتة تكون في حدمك. ويقول الاخر: ان المشايخ قد اعدوا الريش وهم في انتظارك لتدخلي مزدانة. واخيرا جاءوا بصاحبيها وربطوهما معا واستغفراني عما صدر منهم نحوي وانصرفوا بعد ان تركوني وحدي. فسري عني قليلا حين رأيت مضيفتي على تلك الحالة وهكذا لم يبق لي من هم الا ان اقوم على عجلة لاتمكن من رميها ببرتقالة (3) وان كنت ـ لما سمعته من خادمة بقيت في الدار ـ لم اثق كل الثقة بسجنها لانها قالت لي كلاما لا اذكره بالتفصيل عن الطيران وامور اخرى لم تقع من اذني خير موقع. فمكثت في الدار اعالج فيها خلال ثمانية ايام اكاد لا اقوى اثناءها على الخروج. وقطبوا لي جرح وجهي اثنتي عشرة قطبة واضطررت الى حمل عكازتين

وهكذا وجدت نفسي صفر اليدين لان المئة درهم ذهبت في ما اديته عن الفراش والاكل

---

(3) راجع الحاشية السابقة

والاقامه ولما لم يبق معي من بدي فلس واحد شرعت دفعا بمصروف لم اعد قادرا على تحمله أن أخرج من الدار بعكازتي وابيع لبوسي واطواقي واردتي وكانت كلها من النوع الفاخر وهذا ما فعلته ثم اشتريت بما تجمع لدي من ثمنها ربقا خلقا من النسيج القرطي وكيسا من المشاقة ورداء طويلا مرقعا وسروالا ضيق الساقين وحذاء كبيرا وادخلت قبعة الرداء في رأسي وعلقت في عنقي سبحة وصليبا من القلز بعد أن تلقنت تاوهات السائلين وعباراتهم المؤلمة ونهجتهم البائسة من فقير سارع في هذا الفن وهكذا شرعت امارسه في الاسواق. وخصصت ستين درهما بقيت لي في قساري وانصرفت لي مهنة الفقر مكلا على جودة كلامي. فجولت على هذه الحالة في الاسواق طيلة ثمانية ايام مسوهما بصوت اليم مرددا عبارات كهذه: تصدق ايها النصراني الصالح يا عبد الرب! تصدق على هذا البائس المعطوب! اواه انني اشفق على نفسي من ان تكون في هذه الحالة وهذا ما كنت اقوله

ايام العمل اما ايام الاعياد فكنت اغير صوتي واستعمل تعابير اخرى فاقول: ايها النصارى المؤمنون يا عبدة الرب! استحلفكم بالاميرة الرفيعة سلطانة الملائكة وام الرب هلا تصدقتم على مقعد بائس ضربته يد الرب! ثم اتوقف هنيهة وذلك من الاهمية بمكان ثم اضيف قائلا: ان ريحا فاسدا في ساعة نحس بينما كنت اشتغل في كرم قد اقعدني وشل اعضائي ولقد كنت فيما مضى صحيحا سالما كما انتم وكما ستكونون والحمد لله

وكانت الدراهم بهذه الحيلة تتساقط بين يدي بغزارة فاكسب مالا وافرا. ولولا فتى وقح اقطع ذقص احدى الساقين يتردد فوق عجلة صغيرة في نفس الشوارع التي اتردد فيها انا فيجمع من الصدقات قدرا وافرا لكان كسبي اكبر بكثير. وكان ذلك الغبي يردد بصوت ابح يختمه صائحا بقوله: تذكروا يا خدمة المسيح عقاب الرب لي على خطاياي. فتصدقوا على المسكين بما تلتمسوه من

الله ونضيف قائلا: استرحمكم باسم خيشو (1) الصالح فيكسب من كل هذا ما لا يحصى فانتبهت الى اسلوبه ولم اقل بعدئذ قط خيسوس بل حسو بحذف السين فانه اكثر تحريكا للقلوب واشد حملا لها على الشفقة واخيرا غيرت عباراتي وحصلت منها كثيرا وكنت امشي متوكئا على عكازين وساقاي في صرة من الجلد وقد قمطتنا بعمائم عريض وابيت في مدخل دار جراح برفقة احد فقراء الازقة: وكان هذا في طليعة ما خلق الله من الحمالين واسع الثروة يتصرف كشيخنا فيكسب اكثر من الجميع وكانت له ادرة كبيرة وكان يربط ذراعه بخيط رافعا اياه الى اعلى فيبدو كأنه مورم اليد ومحموم في آن واحد ويرسي على ظهره في موضعه فيظهر ذراعه من الخارج كأنها ادرة قصيرة (2) ويقول: نعمو

---

(1) حيسو اي يسوع

(2) والغرسي الذي يعصب سفه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليلة فاذا نورم واحتقن

الفقر وهبة الرب للنصراني، فان مرت به امرأة قال: «ايتها السيدة الجميلة! لتكن يد الله معك!» وكان السواد الاكبر من النساء يمررن به وان لم تكن تلك طريقهن ويتصدقن عليه ليدعوهن بهذا اللقب. وان مر به جندي قال: «آه! يا حضرة اليوزباشي» وان كان المار من عرض الناس قال: يا حضرة الشريف. وان رأى واحدا يركب عربة سماه بعدئذ بصاحب السعادة. وان ابصر شماسا على ظهر بغلة سماه برئيس شمامسة، ومحمل القول انه كان لا يداني في فن الرياء والزلفى وكانت له اساليب اخرى للاستعطاء ايام اعياد القديسين وقد توطدت بيني وبينه روابط الصداقة فافشى الي ذات يوم بسر اغنانا بنهارين: وهو ان

الدم مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين وقطر عليه شيئا من سمن واطبق عليه خرقة وكشف بعضه فلا يشك من رآه ان به الاكلة او بلية شبه الاكلة. والفلور الذي يحتال لخصيتيه حتى يريك انه آدر. الجاحظ، كتاب البخلاء ـ ص ٣٣ طبعة ليدن

صاحبي هذا كان عنده ثلاثة صبيان يستجدون في الاسواق ويختلسون ما تطاله ايديهم. ثم يدفعون اليه ما يجمعونه فيحتفظ بالكل وكذلك كان شقيص صبيين مكلفين بادراج الصدقات للكنائس فيتقاسم واياهما ما يختلسانه منها.

اما انا فبعد ان تلقيت نصائح مثل هذا المعلم وسمعت منه هذه الدروس قررت ان احذو حذوه وصوبت خطواتي شطر الناس فما كاد يمر علي شهر حتى تجمع عندي ما يربو عن مئتي درهم خالصة. وفي آخر الامر ادلى الي بعضهم سر — نقصد ان نسير معا — ونترك جملة عرفها مسجد فنفذناه بعد وقوعه [illegible] [illegible] يجلس [illegible] [illegible] اربعة او خمسة عشر فما لبثت ان [illegible] [illegible] بذلك فخرج وسأل عن غلامهم فقالوا [illegible] يا سيدي! لقد اعقبت به عن نسخة [illegible] [illegible] اصل ذلك لدهشته غريبة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يحجم واحد عن مكافأتنا. وهكذا زدت ثروته

وتجمع لدى خمسون دينارا وشفيت قدماى وان كنت لم ازل اسير بهما مقمطتين

واخيرا عزمت على مغادرة العاصمة والتوجه الى طليطلة حيث لا اعرف احدا ولا احد يعرفني فاشتريت ثوبا قاتم اللوم وزيقا وسيفا وودعت بلكاسار - وهو الفقير الذى تحدثت عنه - وبحثت في الفنادق عن ركوبة تحملني الى طليطلة

الفصل التاسع

وفيه اتعاطى التمثيل والشعر ومغازلة الراهبات(1)

في أحد الفنادق صادفت جوقا من الممثلين يستعدون للسفر الى طليطلة. وكان لديهم ثلاث عجلات وشاء الله ان اجد بينهم واحدا كان لي

---

(1) معازلة الراهبات ـ كان من المألوف في ذلك العهد حسبما نستنتج من كثير من الشواهد الادبية والتاريخية تردد الرجال الى ادبار الراهبات لمحادثتهن في أيام وساعات معينة من وراء حاجز مشبك يعرف باسم Locutorio أي محل التكلم فكان بعض الشبان يتخذون من ذلك فرصة للاسترسال في معازلة الراهبات على نحو ما نرى في هذا الفصل لكن هذه العادة ما لبثت ان ألغيت من أنظمة الراهبات.

رفقا أيام الدراسة في القلعة ثم انصرف عن الدرس الى السنمار. فاعلمته رغبتي في مغادرة العاصمة الى طلطلة، ولم يعرفني الا بعد جهد جهيد من جراء الجرح الذي يوجهي، ولم يحرر رسم اشارة اصبعه مسعدنا. واخيرا نزل عند توددي حبا دالي، وحصل لي من الاخرين مكانا لاسير بمعيتهم وسرنا وقد اختلط الرجال بالنساء وابصرت واحدة منهن وهي الراقصة وكانت تمثل فوق ذلك ادوار الملكات وكل الادوار المهمة في المسرحيات فاذا هيا غاية في الكيد والدهاء. وصدف ان زوجها كان جالسا الى جانبي فقلت له مدفوعا برغبتي في امتلاكها ـ دون أن اعرف من هو ـ هذه المرأة بأية صورة يمكننا ان نفاتحها الحديث لننفق عليها عشرين دينارا لانها في نظري غاية في الجمال؟ فقال الرجل: لا يصلح بي وانا زوجها ان اجيبك على سؤالك هذا ولا ان ابحث في الامر ولكن ـ واعلم اني اقول هذا بلا تحيز ـ يمكنك ان تنفق عليها ما اردت من الدنانير لانك لن تجد

انها مدينة في الجمال والثروة، وما ان فرغ من كلامه
حتى قفز من العجلة وانتقل الى عجلة اخرى
مفسحا لي المحل ـ حسبما ظهر ـ لاحدثها. وقد
اضحكني هذا جواب الرجل وذهبت انه عن رجال
من هذا امكن القول ان لهم نساء وكأنهم ليس
لهم قبل ذلك عن حديث لذات المسافر. وشغلت
بفرصة في انسى الذات في بين الشعب وبينما عن
ماشي وحاشي واحدا وبعد قليل كثير اجتمع العمر
في ما بعد وصولنا الى طلمنكة وواصلنا السير
فرحين.

وبينما نحن سائرون خطر لي خاطر فأخذت
أمثل قطعة من مسرحية سان اليخو (2) كنت
أحفظها منذ الصغر. وقد اجدت في التمثيل الى

---

(2) سان اليخو San Alejo ـ توجد مسرحيتان تحملان هذا العنوان الاولى مؤلفها خوان دي ... وقد صدرت في مدينة ... سنة 1570 والثانية من آثار القرن السابع عشر ... مجهول كاتبها.

حد انهم طمعوا في ضمي الى صفوفهم. ولما كانت المرأة مطلعة بواسطة صاحبي الذي يرافقهم على نكباتي ومصائبي عرضت علي الانضمام الى جوقهم وبالغوا أمامي في الثناء على حياة الممثلين ولما كانت الفتاة قد أعجبتني وداخلتني رغبة في التقرب اليها تعاقدت مع مدير الجوق لمدة سنتين. وأمضيت له تعهدا ببقائي الى جانبه واعطاني حصتي وادواري واثناء هذا كله بلغنا طلطلة. فاسندوا الى حفظ بضعة مدائح شعرية تلقى قبل تمثيل المسرحيات وادوارا امثل فيها اشخاصا ذوي لحى كنت أحسن تقليدهم بصوتي فبذلت جل عنايتي والقيت المديح الاول في المدينة وكان على لسان مركب أقبل مفككا بلا مؤونة ومطلعه هذا هو المرفأ وكان بتخلله تلقيب عرض الناس ملأ واستغفارهم عن الهفوات واستصاحنهم لما سيمثل. وحين فرغت من القائه قوبلت بعاصفة من التصفيق ثم غادرت خشبة المسرح وقد احسنت تمثيل دوري.

وبعد ذلك مثلنا مسرحية من تأليف احد

ممثلينا وقد عجبت من أن يكون بينهم شعرا لاني كنت اعتقد ان الشعر لا يحسنه إلا العلماء الكبار ولم يدر قط بخلدي ان لاناس مثلهم نصيبا منه ولكن الشأن الان في هذا الباب هو انه لا يخلو صاحب جوق من ان يؤلف مسرحيات ولا ممثل من ان ينظم ميازل تدور حول منازعات المسلمين والنصارى. واني لاذكر ان الحالة كانت فيما مضى بعكس ما عليه البعد عما هي عليه الان لانه اذاك لم يكن نعرف مسرحيات الا ايا كانت للوبي دي بيغا او لراموون (8) والا فلا. وحضرت ممثت المسرحية في اليوم الاول ولم يفهمها احد وفي اليوم الثاني بدأنا بها - ويشاء الله ان نفتتح ... معركة - فخرجت مسلحا ومزودا بترس

---

(8) رامون Ramon الراهب الونصو رامون او رامون: مؤلف مسرحي اشاد به كل من سرفانتس ولوبي دي بيغا وله وضع عدة مؤلفات علمية دينية له مسرحية مطبوعة لسنة 1615

ولولاه اسقطت تحت وابل من السفرجل الردئ وبقايا الخضر وقشور البطيخ. ولم تر قط زوبعة هذه والحق يقال ان الرواية كانت جديدة بذلك لانها كانت تمثل ملكا نورمانديا لامجال لظهوره بثوب نامك وخادمين لاثارة الضحك وعند حل العقدة يتزوج الجميع وهكذا تنهي الرواية ولذا فوبانا بما نستحقه وأسانا معاملة الرفيق الشاعر ولما كنت انحي عليه باللائمة قائلا له ان تقصير فيما نحونا منه واعتذر قال لي انه ليس له شي مما في الرواية وانما صنفها مستوليا على عدة مقاطع لمختلف الروائيين ومن مجموعها خاط مسرحية فجاءت مجموعة رقاع كرداء الفقد وانه انما اخطأ في خياطتها. واعترف لي ان كل الممثلين الذين يؤلفون مسرحيات انما هم مكلفون بالارجاع لانهم يمدون اياديهم الى ما سبق لهم ان مثلوه من مسرحيات وذلك سهل جدا. وان الطمع في كسب ثلاث او اربعمائة درهم هو الذى يدفع بهم الى ذلك التغرير. ومن جهة اخرى حيث انهم يترددون

على هذه الاماكن فان الكثيرين يقرؤون انهم مسرحيات فياخذونها ليطلعوا عليها واذاك يسرقونها فيضيفون اليها نزهة ويحذفون عبارة جيدة وينسبون المسرحية لنفوسهم وصرح لي ايضا بانه لم يوجد قط ممثل احسن تاليف اغنية الا على هذه الطريقة

فلم استقبح الحيلة واعترف اني شعرت بميل الى استعمالها لما كنت احسه من نفسي بميل طبيعي الى الشعر اضف الى ذلك اني كنت قد تعرفت على بعض شعراء وجماعات مؤلفات غارسيلاسو (1) وعكفت بعد رايي على الانصراف الى هذا الفن فاصبحت ايامي تنقضي دون مطالعة والسهر وليس .... وقد انقضى على وصولي غرناطة شهر واحد فتعهدت .... مسرحيات جديدة مضحكة تذكر حيث .... اول – وبذلك اصبحت مشهورا وعرفت .....

(1) غارسيلاسو Garcilaso ..... ولد في طليطلة سنة 1501 وتوفي ..... 1536 في ..... في احدى المواقع

بالونصيتى (5) لانى قلت ان اسمي الونصو. ومن جهة اخرى كنت القب «بالقاسي» لاني مثلت في احدى المسرحيات دورا بهذا الاسم اعجبت فيه كل الاعجاب الرعاع والعامة من الحاضرين — حتى صار عندي ثلاثة ازواج من الاكسية وصار بعض مديرى الاجواق المسرحية يحاولون انتزاعي من الجوق الذى انا فيه. واصبحت اتحدث كمن له خبرة في فن المسرحيات وانحي باللائمة على الممثلين المشهورين فانتقد حركات بينيدو واثنى على هدوء سانتشث وظرافة مورالس (6) وكنت استشار في تزيين المسارح وتجميلها وان جاءنا أحد ليقرأ علينا مسرحية ما كنت انا السامع لها

---

5) تصغير الونصو

6) بينيدو Pinedo وسانتشث Sanchez ومورالس Morales ثلاثة ممثلين بارعين حازوا قصب السبق في هذا الفن منذ سنة 1599 و 1613 وقد مثل الاول كثيرا من مسرحيات لوبي دي بيغا

واخيرا شجعني هذا التحبيذ فاخرجت باكورة شعري قصيدة غنائية واعقبتها برواية قصيرة قوبلت بالاستحسان.

ثم حدت بي الجرأة الى وضع مسرحية طويلة ولئلا يفوتها ان تكون ذات صلة بالامور الالهية جعلت موضوعها مريم العذراء سيدة السبحة (٦) وكان مطلعها نشيدا يرتل على نغم المزمار. وفي خلالها تظهر النفوس المتطهرة والابالسة اذ كانوا يستعملون في ذلك العهد فيصيحون بو بو عند الخروج و... زى عند الدخول وقد استحسن سكان المكان اسم الشيطان متخللا الادوار وكانوا بعد ذلك يتناقشون فيما بينهم حول سقوطه من السماء وغير ذلك وفي نهاية الامر مثلت مسرحيي ونالت استحسان الجميع ... ... عن القيام بكل ما تطلب مني ... ... على ... منظومات كانوا ... ... في وصف ... ...

---

(٦) Nuestra Señora del Rosario

يريدها في وصف اليدين او الشعر وقس على ذلك وكان لكل ثمنه وان كنت ابيع منظوماتي باثمان رخيصة لوجود حوانيت اخرى تباع فيها السلعة نفسها

اما التراتيل فحدث ولاحرج.فان داري كانت نعج بالوافهين ومرسلات الراهبات وبالعميان ايضا – وكنت اتقاضى ثمانية دراهم عن كل نشيد – واذكر اني في ذلك العهد نظمت نشيد القاضي العادل، وهو نشيد فخم جزل يدعو الى الاحسان ونظمت الابيات المشهورة الاتية لاعمى كان ينشدها ناسبا اباها لنفسه وهي:

يا ام الكلمة المتجسدة
يا ابنة الاب الاله
اعطني نعمة طاهرة الخ.

وكنت اول من ختم الاناشيد كالمواعظ بعبارة النعمة في هذه الدنيا والسعادة في الاخرى، وذلك في المنظومة الاتية على لسان احد اسارى تطوان:

فلنلتمس دون رياء

من الملك الاعلى الذي جل عن شر عيب
ان يلتفت الى قوة عقيدتنا
ويجود علينا بنعمته
وبالسعادة في الدنيا الاخرى. آمين.

فبهذه الامور كلها كانت احوالي على احسن ما ارغب وناهيك عن غنى وازدهار انمتع في بحبوحتهما واصبحت اطمع في تأليف جوق تمثيلي تحت اداري. وكان منزلي فخر الزينة لانني وقعت ـ طمعا في الحصول على زرابي رخيصة ـ على حيلة شيطانية وهي اني اشتريت كمية كبيرة من اجلال الفنادق المرسومة عليها اسلحة النبلاء وعلقتها على الجدران فكلفني ما مجموع ثمن خمسة وعشرين وثلاثين بلونا وكانت وفي ان نرى من دون ما نملك من نوعها لان من حلاتها كان عرى نمزقها تماما انه من جلال عنده لم يكن نبرى شيء (8)

---

(8) اتي المؤلف بجناس في كلمتي para ver

وحصل لي ذات يوم حادث غريب لا بد لي من قصه ولو كان فيه عار علي وهو اني حين كنت اكتب رواية ما كنت اخلي في علية المنزل وهنالك ابقى واكل. وكانت الخادم تحمل الطعام الى العلية وتتركه لي فيها وكان من عادتي ان ارفق الكتابة بالتمثيل كما لو كنت على خشبة المسرح فشاء ابليس انه بينما كانت الفتاة صاعدة على الدرج - وهو ضيق مظلم - وبين يديها قدر وصحفتان . كنت انا انظم مقطعا من روايتي في وصف الصيد فاصيح باعلى صوتي قائلا:

«الا فامسك الدب! الا فامسك الدب!

لانه سيمزقني اربا

ويندفع وراءك هائجا»

او تدري ما فعلت الفتاة - وهي غاليسية(!)

ومعناها الاول حذر بان يري، والثاني «ليري» باعتبار para مقابلة للام السببية

(!) اي من غاليسيا وهي مقاطعة في شمال اسبانيا.

من كلامي حين سمعتني اقول: «سيمزقني ويندفع وراءك؟» لقد ظنت ان كلامي حق واني احذرها من الدب. فولت هاربة لكنها في اضطرابها تعثرت بذيل ثوبها وهوت تتدحرج حتى اسفل الدرج فاهرقت القدر وحطمت الصحفتين وخرجت تصيح في الشارع قائلة ان دبا يقتل رجلا ومع اني هرعت اليه مسرعا حين وصلت كان الجيران قد اقبلوا كلهم مستفسرين عن الدب، وبالرغم عما قصصته عليهم من ان ذلك جهل من الفتاة لان الامر هو ما اخبرت به عن الرواية فانهم اصروا على ان لا يصدقوني فلم اذق طيلة ذلك اليوم طعاما وبلغ الخبر رفاقي وتناقلته الالسن في المدينة كلها وقد حصل في الكثير من هذه الحوادث طيلة تعصري في الى احترف الشعر ومع هذا كله لم يزايلني سوء الحال.

وحصل انه لما ذاع الخبر بان احوال مدبر جوقي كانت تسير باضطراد في طريق النجاح صدر امر فجائي بحجز امواله بسبب دين قديم واودع

السجن – وهي خاتمة جميع من يتعاطون هذه المهنة. فتشتتنا ايدي سبا وولى كل منا وجهه شطر ناحية اما انا والحق يقال فالبرغم عن الحاح الرفاق على ليستميلوني الى جوق آخر لما ابصرت نفسي صاحب مال وهندام انيق ولم اكن راغبا في مثل هذه الحرفة وانما تعاطيتها محتاجا فضلت الانصراف الى الراحة والعيش الرغيد. فودعتهم جميعا وانصرفوا الى حال سبيلهم اما انا وقد حسبت اني بتركي احتراف التمثيل اخرج من حياة الفجور فقد اتخذت مغازلة الراهبات لى مهنة جديدة وقد اداني الى هذا اعتقادي بان ربة الجمال «فينوس» انما هى راهبة نظمت نزولا عند طلبها كثيرا من الاناشيد الميلادية وقد علقت بي حين شاهدتني امثل في مسرحية دينية بوم خميس الجسد دور القديس يوحنا الانجيلي. وصارت تعتني بي كل العناية وقالت لي انها انما تاسف لمعاطاتى حرفة التمثيل – لانى تظاهرت امامها بانى ابن احد النبلاء الكبار – وترق لحالى واخيرا قر رأيى على

ان اكتب لها الرقعة الآتية : لقد تركت الجوق ارضاء لخاطرك اكثر منه قياما بما يهمني لان كل صحبة (10) في دونك انما هي وحدة موحشة وكلما كنت ملكا لنفسي كنت ملكا لك. فاعلميني بميقات المواجهة فعرف متى احظى بمحادثتك

وذهبت المرسلة بالرقعة وليس بالامكان وصف الفرح الذي استولى على الراهبة حين علمت بحالي الجديدة فاجابتني بما يلي:

الجواب

اني لا اهنئك على حالتك الجديدة بل انفض النعمة ولو لم تكن ارادتي ومصلحتك واحدة لما وسعنا ان نقول الان انك انت لو نفست فلم يبق عندك الا المثابرة وسنسعى في الا في عنك مثابرة. من الارجح ان المواجهة لن تكون اليوم ممكنة ولكن لا نتاخر عن المجيء في صلاة

---

(10) اتى المؤلف جذه بكلمة compagnie فستعملها اولا بمعنى جوق وثانيا بمعنى صحبة

المساء وهنالك نتقابل. ولعلى اتمكن بعدئذ من التحيل على الرئيسة لاحادثك. الى اللقاء»

فسرتنى الرقعة لان المرأة كانت في الواقع فطنة وجميلة وبعد ان اكلت ارتديت الثوب الذي كنت ارتديه للمغازلة في المسرحيات وقصدت الكنيسة فصليت ثم جعلت اجيل بصري في جميع ثقوب الشبكة (11) لعلى اراها وبينما انا في هذا شاء الله وحسن حظي - بل ابليس وسوء طالعي - ان اسمع اشارة التعارف القديمة فجعلت اسعل ولا سعلة برباس. وانما كان قصدى ان اتظاهر بالزكام فجاء سعالى كما لو ان ارض الكنيسة قد رشت بالفلفل الحار. واخيرا بعد ان عييت من السعال اطلت من وراء الشبكة عجوز تسعل بدورها فابصرت تعاستي وفهمت ان السعال علامة تعارف في العجائز عادة. ومن الناس من يسمع صوتا فينتظر ان يرى بلبلا فاذا به يبصر بومة. ومكثت

---

11) اي الشبكة التى تفصل بين المحل المحفوظ للراهبات وبقية الكنيسة

برهة طويلة في الكنيسة حتى بدأت صلاة المسا
فسمعتها كلها. ولذا يسمى غزيل الراهبات العشيق
الفخم، (12) لما له من العشايا كالاعياد الفخمة
ومن خاصته انه لا يخرج قط من عشية الفرح لان
يومه لا يصل ابدا. ومن المستحيل ان يصدق قولي
ان ذكرت كم مرة سمعت صلوات المساء. ومنذ
شرعت بالمغازلة استطال عنقي ذراعين من كثرة
ما اشرأب لرؤية حبيبتي. وصاحبت الواقف والصبي
الذي يساعد الكاهن لاقامة القداس. وقد أحسن
هذا استقبالي. وكان ذا روح خفيفة يمشي منتصبا
كأنه يعدي سفافيد وينعشي مزاربق.

---

12) اتى المؤلف بجناس في كلمة solemne ومعناه
الفخم، وايضا الاحتفالي حين تنعت بها الصلوات
وكذلك اتى بجناس آخر في كلمة visperas ومعناه
عشية، وايضا «صلاة المساء» وهي تعني نسكا
احتفاليا. وهو يعني ان مغازلي الراهبات
يكثرون من حضور صلوات المساء الاحتفالية لكن
من دون جدوى فكأن عشيتهم ليس لها صبح.

من هنالك توجهت الى قاعة المقابلة. وهي تتالف من بهو فسيح. ومع هذا لم يكن بد من الحصول على مكان منذ الساعة الثانية عشرة كما لو كان لحضور مسرحية جديدة واخيرا احتللت مكانا حيث امكنني ذلك وناهيك عما رأيته من مواقف المحبين المختلفة: فمن ناظر لا يطرف بعين ومن ممسك قبضة السيف بيده وبالاخرى السبحة كتمثال حجري فوق اللحد ومن رافع يديه وباسط ذراعيه كالملائكة ومن فاغر فاه اكثر من المرأة السؤول مربا حبيبته احشاءه من وراء حلقومه دون ان ينبث ببنت شفة، ومن ملتصق بالجدار متقلا على الاجر دأنه يقايس بين نفسه والزاوية، ومن آخر يتمشى كانه لا بد ان يحب لسيره زهوا كما تحب الفحول: ومن ممسك رسالة كاللحمة بين يدي الصياد كأنه يدعو اليه بازا.

اما الحساد فقد تألفت منهم عصابة اخرى: فبعضهم في حلقة يضحكون وينظرون اليهن والبعض الاخر يقرأون اناشيد ويرينهن اياها ومنهم من تراه

اثارة للغيرة يتمشى في الشارع المحاذي ويده بيد امرأة ومنهم من تراه يتحدث الى خادم ارسلها تتجسس وقد جاءته بنبأ ما. كل هذا كان يجري في القسم الاسفل حيث كنا اما في الطابق الاعلى حيث كانت الراهبات فقد كان المنظر ايضا جديرا بالمشاهدة. لان قاعة المقابلة كانت تتألف من برج صغير ملىء كوى وحائط مخرم يبدو تارة كأنه زجاجة عطور. وكانت جميع الثقوب آهلة بعيون تترصد: فهنا ترى ارجلا وايادي مجتمعة وهناك يدا او رجلا منفردة وفي مكان اخر تشاهد ما تفرغ استعماله يوم السبت من رؤوس والسنة وان نقصتها الادمغة وفي جهة اخرى ترى حانوت محول: فالواحدة تري السبحة والاخرى تهز منديلها وفي ناحية اخرى يعلق قفاز وهناك بنوء شريط اخضر. والبعض منهن يتكلمن بعه وت عريض وعرهن سعلن. ومنهن من تنسج كأنه كما لو انها تخرج العنكبوت بصاحب. وجدير بان يرى كيف انهم في الصيف لا يدفأون على

حر الشمس فحسب بل يتشيطون. واعجب به منظرا
ان تراهن نيئات بقدر ما تراهم مشويين. وفي الشتاء
يحدث ان واحدنا تنبت فوقه من جراء الرطوبة الجرجير
وغيرها من البقول. ولا ثلج يفوتنا ولا مطر الا تتلقاه
اجسامنا وكل هذا في نهاية الامر لرؤية امرأة من وراء
شبكة وزجاج كما نشاهد عظام القديسين فان تكلمت
كان امره كمن يعشق شحرورا في قفص وان سكتت
كمن يغرم بصورة لا غير. وما هداياهن سوى لمس
خفيف لا يرتقي قط الى ضربة محكمة فلا تتعدى النقر
بالاصابع. وبين حديد الشبابيك تدخل الرؤوس
ومن الكوى تطلق اسهم الغزل. كان حبهن
لعبة التخفي. ولك بعد ذلك ان تنظر الى العاشقين
يتكلمون همسا كانهم يصلون ويتحملون توبيخ
عجوز واوامر بوابة وكذب ناظرة. واعجب من
ذلك كله ان تراهن يغرن من النساء اللواتي
خارج الدير مؤكدات ان الحب الحقيقي انما هو
حبهن. وما ادراك بما ياتين به من امور شيطانية
اثباتا لدعواهن. واخيرا صرت ادعو رئيسة الدير

بالسيدة، والنائب الروحي «بالاب» والوافه «بالابن»

وكلها أمور يبلغها اليائس بالمثابرة ومرور الزمان

ولكني اخيرا بدأت استاء من الناظرين يطردنني والراهبات يسألنني وقابلت بين عملة ما ادفعه ثمنا للجحيم ورخص ما يدفعه الآخرون وتأملت الطرق الضالة التي اسلكها لا محالة وأني سائر الى الجحيم بسبب حاسة اللمس وحدها ...

وكنت حين اتكلم ـ لئلا تسمعني نقعة من كان امام النسائك ـ اضم رأسي الى رؤوسهن الى ان تتضام الخدود ... دائت دنرك علاماتها في حسبى طسة اليومين التاليين وانضم بصوت منخفض نكات يستحيل سمعه بلا سماعة ولا يراني احدا ... قال لعنة الله عليك يا ماكرا بالراعيات وقولا احرى اسوأ منها

فهذه الامور كلها جعلتني اعيد الفكرة وكاد يستقر رأيي على قضية الراهبة ولو حسرت

---

(13) أي لأنه لم يرتكب معصية كبرى وانما كان حبه للراهبة لا يعدى مسه اصابع يديه.

قوتي وعزمت على ذلك يوم عيد القديس يوحنا الانجيلي لاني في ذلك اليوم اكملت معرفة ما هن الراهبات وحسبك ان تعرف ان راهبات يوحنا المعمدان بححز جميعهن قصدا فكانت اصواتهن وهن يرتلن القداس نحيبا اكثر منه ترتيلا. وكذلك لم يغسلن وجوههن وارتدين الالبسة القديمة. كما ان اصدقاءهن وقد تالبوا على ان يفقدوا العيدرونقه. جاءوا الى الكنيسة بصفات بدلا من الكراسي وبكثير من الشطار من الرعاع.

وإما رأيت بعضهن بسبب احد القديسين والبعض الاخر بسبب آخر يعاملونهم أسوأ معاملة اخذت من راهبتي ما قيمته خمسون أسكودا من الانسجة المطرزة والجوارب الحريرية وصرات العنبر والحلوى لابيعه بالقرعة واتيها بالثمن فلما صارت تلك الاشياء بين يدي سلكت طريق اشبيلية لاجرب حظي في بلاد اوسع نطاقا. اما ما ساور نفس الراهبة من ألم وحسرة على ما ذهبت به اكثر منه علي فليتأمله القارئ الورع.

الفصل العاشر

في ما جرى لي في اشبيلية حتى رحيلي المحراث اليه (1)

..

قطعت الطريق بين طليطلة واشبيلية ... التي كانت في معركة ... الضعو ووجدت حول من ... عدة قطع مصلصلة الحجم ... تحت ... وكذا ... حلقة ... بلاد. وكانت ... وقعا ... الشردون من حجر ورق اللعب فسمعت ... في ورقة ... ونهده لصورة لم يكن نفسه من ... واحد واني الاخرى ... زهرة (2) عديدة او ... كلها اعتبرت ...

1) ... هو ... الذات على الشرة الجديدة.

2) اتى المؤلف بجناس في كلمة زهرة ...

اكثر منه رجلا وعن سرد عيوب يفر منها الناس
لئلا تكون مدعاة الى الاقتداء بها. ولكن لعلي
بسرد بعض الحيل والتعابير احذر الغافلين من
عاقبة غفلتهم. فاذا ما انطلت على قرائي حيلة بعد
قراءتها فانما يقع الذنب على نفوسهم

لا تركن ايها الانسان الى دفع ورقات لعبك
لانهم يبدلونها لك بغيرها وهم يقرطون الشمعة.
واحفظ ورقك من ان يمس بالقشط او الصقل
وبيما يعرف سوء الطالع. واعلم ان كنت شاطرا
انه في المطابخ والاصطبلات تغرز في الاوراق خلائل
او تطوى لتعرف من الشقوق وان لاعبت اناسا
ذوي مروءة فاحذر من الورق لانها منذ المطبعة
حبل بها بالاثم. فيكفي ان تاتي الورقة مخالفة
ليعرف مافيها. ولا تثق بالورق النظيف لان مايريك
منظرا جميلا ويحتفظ باكثرها نظافة (3) هو في

معانيها الضغو اي الغش في اللعب وبه استعملها
هنا. ثم استعملها بمعناها المعروف.

(3) اي بالمال.

الواقع وسخ. وان لعبت بالورق فاحذر حين يخلطها المكلف بذلك ان يقوس الصور ـ حاشا الملوك ـ وهو يطويها اكثر من بقية الاوراق لان ذلك التقويس انما هو من اجل مالك المرحوم.

واحذر ان لا يعطيك الموزع من فوق ما نفاه عنه من تحت واسع في ان لا تطلب اوراق بالاصابع تتحرك بينها ولا باللجوء الى الاحرف الاولى من الكلمات.

ولا اريد ان ادلك على غير هذه الحيل فهي تكفيك لتعلم ان عليك ان تعيش حذرا لانه من المؤكد انى اطبق شفتى على الكثير منها. فهم يسمون عن جدارة الاستيلاء على المال امانة والحبلة على الصديق شطارة ولغموضها(4) لا يفهمونها و مزدوج. من يقود السذج لسلخ جلودهم هؤلاء النشالون. و ابيض من سلمت

---

(4) أتى المؤلف بجناس في كلمتى revesa ومعناها حبلة و revesada ومعناها غامض.

نبنه وخابت سريرته كالخبز و «اسود» من خابت آماله واخفقت مساعيه

فبهذه اللغة (5) وهذه الحيل بلغت اشيلية وبمال الرفاق دفعت اجرة البغال ومن نزلاء الفندق كسبت ثمن الطعام ومالا آخر احتفظت به.

وبعد هذا ذهبت لانزل في فندق المورو فالتقيت بأحد رفقاء الدراسة في القلعة واسمه «ماطاء» وقد استبدل اسمه لاعتباره اياه قليل الرونق باسم ماطوزال وكان يتاجر بالارواح وعنده حانوت لبيع المشاجرات ولم تكن تجارته كاسدة وفي وجهه نموذج (6) من بضاعته. وبالطعنات التي تلقاها

---

(5) كان للشطار لغة اصطلاحية خاصة والكلمات التي أوردها المؤلف في هذه القطعة مثال على ذلك. وكانت تسمى germaniá خرمانية وفي معجم اللغة الاسبانية الذي نشره المجمع اللغوي يجد القارئ المعاني الاصطلاحية للكلمات في هذه اللغة.

6) اتى المؤلف بجناس في كلمة cuchillada

كان يقرز اتساع وعمق امى سبعثهـا ـدوره. ويقول: «لا معلم كالمطعون في وجهه ونعم القول لان وجهه كان كصدرة من جلد وهو نفسه نحذ منبوغ. ودعاني الى تناول العشاء معه ومع رفقاء آخرين واعدا اني انهم بصحبوني للرجوع الى الفندق

فذهبنا واذ بلغنا مثواه قال لي: انزع عمك المعطف لنظهر بمظهر الرجولة فانك ر هذه نمدنة خيرة ابناء اشبيلية واخفض الزنق لئلا يعسروك متخننا واحن ظهرك ولبكن معطفك ساقطا ـ لاننا عندما نسير ساقطي المعاطف (7) ـ وات بحركات عن يمينك وعن يسارك والعنق الخاء هاء والهاء خاء (8)

فاستعملها اولا بمعنى «مشاجرة ثم بمعنى طعنة وهو معنى قوله «في وجهه انموذج من تعاعنه

7) تعبير اسباني يقصد به سوء الحال وقد لى المؤلف بجناس بين المعنى الحقيقي والمجازي

8) منذ اواسط القرن السادس عشر اخذ لفظ الحرف ع حين نتقدم او ; والحرف j حين تتقدم

u. o. a يقترب من لفظ حرف j بالفرنسية (اي كالجيم العربية) وما عتم ان التبس لفظ هذين الحرفين بلفظ حرف x (وهو كالشين العربية) وبينما كان هذا الابدال يقع في التخاطب بين المثقفين كان لفظ حرف x (اي الشين) بين العامة ينقلب الى لفظ يشبه لفظ الهاء العربية. وكان هذا اللفظ يمثل حينئذ بحرف h فقط في الكلمات الماخوذة من اللاتينية وفيها حرف f او من العربية وفيها الهاء او الحاء. ومع ان هذا الابدال لم يلبث أن عم استعماله فانه في الثلث الاول من القرن السابع عشر (وهو تاريخ وضع هذا الكتاب) كانت المبالغة في اخراج تلك الحروف من ميزات الشجعان في اشبيلية. ويستدل من معلومات كثيرة ان اللفظين كانا مستعملين في آن واحد دون ان يفرق بينهما بصورة فاصلة. ولذا كانت العامة تخبط في هذا الباب خبط عشواء مستبدلة حرفا

و«هامالي» و «هارو» من الشراب»[1] فحفظت هذه الكلمات عن ظهر قلبي. واعارني صاحبي خنجراً يصح فيه هذا الاسم لعرضه. واما لطوله فهو اولى ان يدعى حساما. ثم قال لى: «اشرب هذه الزجاجة من الخمر الصافي لانك ان لم تتصاعد من انفاسك رائحة الخمرة فلا تبدو شجاعا» وبينمـا نحن في هذا وقد تركتني الراح نشوان اذا باربعة منهـم قد دخلوا بوجوه كانها قدت مـن جلد يمشون مرتجحين لا تغطيهم معاطف. وعلى اوساطهم احزمة مشدودة وفوق جباههم قبعات مرفوعة الحافـات

بآخر على هواها وذلك امر ثابـت ومعلـوم في تاريخ التخاطب والمقطع السابق مثال على ذلك.

(1) «خريدا» بدلا من «هريدا» اي مجروحة» و«موخينو» بدلا «موهينو» اي حردان» و«خومو بدلا من «هومو» اى دخان» و«موهار» بدلا مـن «موخار» اي ابل» و«هابالي» بدلا من «حابالـي» اي الهلوف» و«هارو» بدلا من «خارو» اي الابريق وهى مأخوذة من العربية «جرة».

كأنها تيجان تعلو رؤوسهم. وعلى جوانبهم مقابض سيوف قدر ما في دكاني حديد. وقد بدوا مستقيمي العراقيب خافضي الاعين حادي الابصار، مفتولـي الشوارب مقصوصي اللحى. فاتوا بحركة بافواههـم ثم قالوا لصاحبي ـ بصوت حرد مستبقين من الكلمات انصافها ـ «ايها السيد!» فاجاب مدبرى: «مـاذا يا رفيقي؟» فجلسوا. وارادوا ان يسألوا عنـي فلم ينبسوا ببنت شفة بل نظر احدهم الى «ماطورالس» وفتح فاه واخرج لسانه واداره نحوي مشيرا الي. فارضاه معلمي بقبضه على ذقنه والنظر الى تحت علامة الايجـاب. واذاك نهضـوا جمـعا جذليـن وعانقوني وابدوا فرحا عظيما وانا كذلك فكنت كأني ذقت اربعة اصناف من الخمور.

ثم حانت ساعة العشاء. واقبل للخدمة عـلى المائدة بضعة شطار كبار اسماهم الشجعان «مدافع»(10) فجلسنا جميعنا حول الخوان وجيء بالكبر واذاك

---

10) كلمة cañon ومعناها «مدفع» تطلق في لغة الشطار على «الشاطر المتشرد».

بدأوا بشربون – ترحيبا بي – نخب شرفي والحق اني ما عرفت قط ان عندي منه هذا المقدار حتى رأيتهم يشربون نخبه ثم حضر السمك واللحم فاكلنا جميعنا بشهية الظمآن. وكان على الارض جرن مملوء خمرا وامامه ينبطح من اراد ان يقابل بالمثل من شربوا نخبه اما انا فاكتفيت بالقارورة وما اتت عليهم دورتان حتى اصبحوا ولا يعرف احدهم الاخر فبدأت الخطب الحربية وترددت الايمان وبين نخب وآخر هوت رؤوس عشرين او ثلاثين رجلا دون ان يترك لهم اجل للاعتراف ووصفوا لصاحب المظالم الف طعنة. واتوا بالحديث على الطيبي الذكر «دومنغو تيثنادو (11) وغايون» (12)

---

11) كان «دومنغو تيثنادو» هذا خلاسيا حرفته صانع معجنات. وقد ذكره كيبيدو في مؤلفه «خاكاره»

12) كان «غايون» احد شجعان ذلك العهد المشهورين ومبتكر طعنة قتالة. وقد ذكره كيبدو في مؤلفات اخرى. وكذلك ذكره لوبي دي بغا في مسرحيته «امة مغازلها»

واهرقوا خمرا غزيرا ترحما على نفس «اسكاميا»(13) والذين اثار السكر فيهم الشجن بكـوا من اعمـاق قلوبهم المرحوم «الونصو الباريس» (14) وامام هذه الامور كلها اصيب رفيقي بعطل في عقربي ساعة دماغه واذا به يقبض بكلتا يديه على قطعة من الخبز ويحدق بصره بالنور قائلا بصوت مازجته البحة: «قسما بهذا الذي هو وجه الله وذلك النور الذى خرج من فم الملاك انه لا بد لنا ان نقضي الليلة على ذلك الجلوز الذي لحق «بالاعور»(15) المسكين» فتعالت اصواتهم بالصياح واخرجوا خناجرهم واقسموا واضعين ايديهم على حافة الجرن ثم ارتموا حوله

---

13) كان اسكاميا واسمه بدرو باسكيس دي اسكاميا سفاكا للدماء مشهورا في ذلك العهد. ومات على اعواد المشنقة.

14) كان «الونصو الباريس» شاعرا وشاطـرا من اشبيلية توفي ايضا فوق اعواد المشنة وقد ترجم له الكاتب الكبير ضون فرنسيسكو رودريغث مارين

15) اشارة الى الونصو الباريس.

يعبون ويقولون: «كما نشرب هذه الخمرة هكذا سنشرب دم كل مترصد» فسألت اذاك قائلا: «من هو الونصو الباريس» هذا الذي عم الاسى لموته؟ فقال احدهم: «هو فتى مكافح شجاع ذو يدين حديديتين ورفيق نعم الرفيق» هيا بنا! فاز الابالسة توسوس لي، وهكذا خرجنا من الدار سعيا وراء جلاوزة نصطادهم واذ كنت مستسلما للخمرة وبين يديها وضعت حواسي كلها لم اشعر بالخطر الذي تعرضت له.

بلغنا شارع البحر، حيث تصدى لنا العسس. فما كدنا نراهم حتى جردنا سيوفنا وهجمنا عليهم. ومثل رفاقي فعلت وفي الصدمة الاولى نزعنا من جسم جلوازين روحيهما الخبيثتين. فولى المامور هاربا في الشارع يصيح مستنجدا ولم نتمكن من اللحاق به لانه سبقنا في العدو فلجأنا اخيرا الى الكنيسة الكبرى حيث احتمينا من صرامة العدالة. ونمنا الوقت الكافي ليتبخر الخمر الذي كان يغلي في رؤوسنا. ولما عدنا الى نفوسنا

هالني ان تكون العدالة فقدت جلوازين والمامور ولى هاربا امام عنقود عنب واذاك كنا نحن ذلك العنقود.

اقمنا في حرم الكنيسة على احسن ما يرام لانه على رائحة المنعزلين اقبلت غادات تتعرين لتلبسننا. وعلقت بي « لاغراخاليس» والبستني جديدا من لون اثوابها. فراق ذلك في عيني واستطبت هذه الحياة اكثر من كل حياة اخرى وعزمت ان اعيش الى جانبها حتى الموت ودرست فنون السفهاء ولم تنقض سوى ايام قليلة حتى كنت استاذ الاخرين. لكن العدالة لم تكن لتتغافل عن طلبنا ولا يبارح رجالها ابواب الكنيسة. ومع هذا كله كنا نخرج بعد نصف الليل مقنعين ونتجول في المدينة دون ان يدرى بامرنا.

ولما رايت ان هذه الحالة قد طالت كثيرا واكثر منها اصرار الحظ العاثر على ملاحقتي قررت - لا معتبرا لاني لست عاقل الى هذه الدرجة

بل تعبا كخاطئ عنيد بعد ان استشرت لاغراخاليس،
اولا في ذلك ان انتقل معها الى الهند (14)
لعلي اذا بدلت موطني ودنياي يحسن حظي، لكن
النتيجة جاءت بالعكس. فازدادت حالي سوءا لانه
لن يحسن حالا من يقتصر على تبديل موطنه
ولا يبدل حياته وعاداته.

---

(14) راجع الحاشية رقم 1

فهرس

صفحة

سيرة الشطار في الادب الاسباني 5
كيبيدو................ 19
سيرة الشاطر ضون بابلوس 21
الى القارىء.. 22
الفصل الاول ـ وفيه الكلام عن نسبه
ومسقط رأسه 27
الفصل الثاني ـ في ذهابي الى المدرسة
وما وقع لي فيها......... 36
الفصل الثالث ـ في ذهابي الى مدرسة
داخلية بصفة خادم لضون دبيغو
كورونيل 47
الفصل الرابع ـ في تعافيناودهابنا للدراسة
في قلعة هنارس 67

الفصل الخامس ـ في دخولنا قلعة هناريس
ودفع ضريبة التلمذة وما لحقني من
هزء لجدتى في المدرسة 81
الفصل السادس ـ في فظائع الوصيفة وما
اتيت به من كياسة.......... 95
الفصل السابع ـ في رحلة ضون دييغو
واستخباري بوفاة والدى وما عزمت
عليه في شؤوني للمستقبل....... 114.
الفصل الثامن ـ في الكلام عن الطريق
بين القلعة وشقوبية وما جرى لى
فيه حتى ريخاس حيث بت تلك
الليلة 121
الفصل التاسع ـ في ما وقع لى مع شاعر
حتى وصولى الى مدريد 135
الفصل العاشر ـ في ما فعلته في مدريد وما
جرى لى حتى وصلت الى ثرثديا
حيث بت ليلتي............... 142
الفصل الحادي عشر ـ في خيانة خالي
وزائريه وقبض تركتي وعودتي
الى العاصمة 167

الفصل الثاني عشر ـ في فراري وما حصل
لي حلاله حتى بلغت العاصمة . . 180

الكتاب الثاني من حياة الشاطر 201

الفصل الاول ـ في ما وقع لي في العاصمة
منذ وصولي حتى الليل 203

الفصل الثاني ـ وفيه يتابع الموضوع المدو
به وغيره من الحوادث الغريبة . . 211

الفصل الثالث ـ وفيه يتابع الحديث حول
الموضوع نفسه حتى ينتهي الامر
بايداعهم السجن جميعا 234

الفصل الرابع ـ وفيه وصف السجن وما
جرى فيه جرى خروج العجوز مجلودة
والاصحاب الى العار وخروجي انا
بضمانة 239

الفصل الخامس ـ في عثوري على مسوى
والمصيبة التي دهمتني فيه 256

الفصل السادس ـ وفيه يتوالى الكلام
على الامر نفسه وعلى عدة حوادث
اخرى 266

الفصل السابع ـ وفيه يتلو الكـلام على القصة نفسها وعلى غير ذلـك من الحـوادث الغريبـة والنكبـات الخطيرة 278
الفصل الثامن ـ في شفائي وغير ذلكمن الحوادث الغريبة 296
الفصل التاسع ـ وفيه اتعاطـى التمثيـل والشعر ومغازلة الراهبات....... 309
الفصل العاشر ـ في ما جرى لي في اشبيلية حتى ركوبي البحر الى الهند 331

الاخطاء المطبعية
الواردة في الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
61	9	علهم	عليهم
64	7	اسنانة	اسنانه
82	2	رائحة شم الخنزير	رائحة الخنزير
93	6	ويقولون	وهم يقولون
104	1	وبعد	وبعد هذا
139	2	الخنزير الوحشية	والخنازير البرية
152	3	الحاضر	الحاضرين
196	2	لنا نركب	لنا ان نركب
211	12	فتنقضي	فينقضي
212	1	قبض	حتى قبض
244	10	يضربونه	يضربوه
256	1	الفصل الثاني	الفصل الخامس

صفحة	سطر	خطأ	صواب
266	1	الفصل الرابع	الفصل السادس
268	2	لم نقع	لم تقل
273	14	احداهن	احداهما
296	2	شقائى	شفائى
296	2	الغربة	الغربة















بحت عنوان: «القسم التاني من قصة لاثاريو دى طورميس» لترجمان اللغة الاسبانية هـ. دى لونـا H. de Luna لـكن المؤلف خرج فيه عن اسلـوب القسم الاول وحشاه بالمشاهد الخلاعية التـي يندى الجبين لطالعتها أما من الناحية الفنية فيفوق القسم الاول.

والان لا بد لنا ان نقف للتساؤل عن أصل هذا الفن الادبي وعلاقته الحقيقية بالمجتمع الاسباني المعاصر لنموه. فهى والحق يقال من المسائل التى اعارها الباحثة عظيم العناية وتضاربت حولها آراء مؤرخي الادب. ولقد اراد بعض النقاد ومعظمهـم من الاجانب وممن يبغون النيل من اسبانيا وهى في ابان مجدها ان يروا في قصص الشطار تصويرا للمجتمع الاسبانى في ذلك العصر ليستنتجوا من هذا التصوير ان مستوى المعيشة في اسبانيا كـان منحطا وان الفقر كـان يخيم على طبقاتها الشعبية وان عدد الكسالى الطفوليين كان وافرا. لكن الابحاث الصادقة قد دلت على خلاف ذلك وقدمت البراهين